الخطاب الأخلاقي
وأبعاده التداولية
عند
السيد رضي الدين علي بن طاووس الحلي

العتبة العباسية المقدسة
قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية
مركز تراث الحلة
موبايل: 009647602320073
E-mail: hilla@alkafeel.net

الشريفيّ، رحيم كريم علي، مؤلِّف.
الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التداولية عند السَّيِّد رضي الدين علي بن طاووس الحِلِّيّ (ت ٦٦٤هـ) تأليف أ.د. رحيم كريم علي الشريفيّ، أ.م.د. حسين علي حسين الفتلي؛ مراجعة وضبط مركز تراث الحِلَّة قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة.-الطبعة الأولى.- الحِلَّة، العراق: العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، مركز تراث الحلة،١٤٤٢هـ. = ٢٠٢١.
٢٧٢صفحة؛ ٢٤سم
يتضمن كشافات
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية: صفحة ٢٤٧- ٢٦٠.
١. ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر، ٥٨٩- ٦٦٤هجري. ٢. الاخلاق الإسلاميَّة (شيعة). ٣. التداولية. أ. الفتلي، حسين علي حسين، مؤلف. بالعتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة. قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة. مركز تراث الحِلَّة، مصحح. ب. العنوان.
LCC: BP80.I26. S85 A33 2021
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

الكتاب: الخطاب الأخلاقي وأبعاده التداولية.
تأليف: أ. د. رحيم كريم علي الشريفي.
أ. م. د. حسين علي حسين الفتلي.
مراجعة وضبط: مركز تراث الحِلَّة.
جهة الإصدار: العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة.
الطَّبعة: الأولى.
المطبعة: دار الكفيل للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.
سنة الطَّبع: ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٦٢١) لسنة ٢٠٢١م

موسوعة تراث الحلة - محور التراث الفكري

الخطاب الأخلاقي وأبعاده التداولية عند السيد رضي الدين علي بن طاووس الحلي

(ت ٦٦٤ هـ)

تأليف

أ.د. رحيم كريم علي الشريفي

أ.م.د حسين علي حسين الفتلي

مراجعة وضبط

مركز تراث الحلة

قسم شؤون المعارف والاستلال والانسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أرض المقدّسات والأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين (العراق)، علَّنا نمتثلُ أمرَ الله جل جلاله في الاقتداء بهم، والاهتداء بنورهم.

إلى الأرض التي ضمّت واحتضنت رفاتهم، وسُقِيت بدمائهم، حلَّة أمير المؤمنين عليّ، وابنه الإمام الحسن المجتبى عليهما السلام.

إلى الأرض التي أنجبت الأشاوس الذين رووا أرض الوطن بدمائهم ردًّا على موجات الجهل والتكفير أبطالنا وشهداؤنا في القوات المُسلَّحة العراقيَّة...

المؤلِّفان

كَلِمَةُ المَرْكَز

إلـهي اَذْهَلَني عَنْ اِقامَةِ شُكْرِكَ تَتابُعُ طَوْلِكَ، وَأعْجَزَني عَنْ إِحْصاءِ ثَنائِكَ فَيْضُ فَضْلِكَ، وَشَغَلَني عَنْ ذِكْرِ مَحامِدِكَ تَرادُفُ عَوائِدِكَ، وَأَعْياني عَنْ نَشْرِ عَوارِفِكَ تَوالي أياديكَ، وَهذا مَقامُ مَنِ اعْتَرَفَ بِسُبُوغِ النَّعْماءِ وَقابَلَها بِالتَّقْصيرِ، وَشَهِدَ عَلى نَفْسِهِ بِالْإِهْمالِ وَالتَّضْييعِ، وَأَنْتَ الرَّؤوفُ الرَّحيمُ الْبَرُّ الْكَريمُ، الَّذي لا يُخَيِّبُ قاصِديهِ وَلا يَطْرُدُ عَنْ فِنائِهِ آمِليهِ، بِساحَتِكَ تَحُطُّ رِحالُ الرّاجينَ، وَبِعَرْصَتِكَ تَقِفُ آمالُ الْمُسْتَرْفِدينَ، وآله الطِّيبين الطاهرين المنتجبين...

وبعدُ ..

فالخطاب: هو الكلام المقصود وغرضه الإفهام في أيِّ سياقٍ مُشكَّل مِن عناصر متميزة ومترابطة فيه امتداد طولي سواء أكانت لغةً أم شيئًا شبيهًا باللغة، ومشتمل على أكثر من جملة أوَّلية، أو كلُّ تلفظٍ يَفترضُ مُتكلمًا ومُستمعًا يحاول المتكلم التأثير على السامع وتوجيهه بطريقة ما.

إنَّ مفهوم الخطاب من القضايا المُشكِلة في اللسانيات الحديثة؛ لتنوع مرجعيّاته؛ إذ يتخذ تسنينه الاصطلاحي تبعًا للحقل الدلاليّ الذي ينتمي له، غير أنَّ ما يُؤسِّس لمفهوم الخطاب هو العلوم التي أُنشئ على أعتابها في الدراسات النفسيَّة، والاجتماعيَّة، واللغويَّة...، وتستقي كلمة خطاب موضوعيتها من المادة التي تعالجها والسياق الاجتماعيّ الذي ولدت فيه.

أمّا التداوليَّة فمصطلح لسانيّ حديث يعود إلى الفيلسوف الأمريكيّ (شارل موريس)، فهي لديه جزء من السميائيَّة تدرس العلاقات بين العلامة ومستعملها،

فالتداوليَّة تدرس اللغة وتُحللها من خلال (التركيب، الدلالة، التداول)، فهي تُعنى بقضية التلاؤم بين التعبيرات الرمزيَّة، والسياقات المرجعيَّة، والحدثيَّة، والبشريَّة.

ولهذا تعدَّدت أنواعها، فظهرت لدينا التداوليَّة الاجتماعيَّة، واللغويَّة، والتطبيقيَّة، والعامَّة، ولكلِّ فرعٍ تداوليةٌ تختصُّ به.

وبحسبان ما سبق نعتقد أنَّ التداوليَّة ليست علمًا لغويًّا محضًا بالمعنى التقليدي، بواسطتها يتاح لنا وصف البنى اللغويَّة، وتفسيرها، ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، بل هو علم يدرس الظاهرة في مجال الاستعمال، ويدمج مشاريع معرفيَّة عدة في إطار التواصل اللسانيّ وتفسيره بالنظر والتعشيق مع المعارف الأخرى.

ومن هنا تظهر لنا أهمية هذا الكتاب، ومِن أُسسٍ عِدة وهي:

- إنَّ هذا الكتاب يدرسُ نصًّا قديمًا، يشتمل على تراث أحد علماء الإماميَّة القدامى.

- إنَّ هذا المؤَلّف يدرس جانبًا من جوانب الحياة الإنسانيَّة وهو (الأخلاق).

- زاوج الباحثان بين الخطاب والتداولية (ولكن بأبعاد المنهج نفسه) دخولًا إلى ما وراء اللغة من أنساق.

- درس الباحثان نصوصًا قديمة - شكَّلت نصًّا أخلاقيًّا بامتياز - بمنهجٍ حديث، فعند بعض التداوليِّين تدخل ضمن المحذور.

وقد أثبت الباحثان أنَّ هذا الأمر مُمكن (فقِدَم النص لا يتعارض مع حداثة المنهج)؛ لتوافر الإمكانات الهائلة التي تتعدى حدود الزمان والمكان.

وبالرجوع إلى النصوص ومؤلِّفها تكمن أهمية عالم من علماء مدرسة أهلِ البيت عليهم السلام؛ إذ عاش في زمن التأسيس للعلوم العقليَّة والأخلاقيَّة، في مدرسة الحِلَّة العلميَّة آنذاك.

كَلِمَةُ المَرْكَز

وفي الختام لا يسعني إلَّا أن اتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل لسماحة السَّيِّد المُفدّى (أحمد الصافي)، وإذ إنَّ كلمات الشكر في بعض الأحايين عاجزة عن إتيان المقاصد فللهِ درُّه وعلى اللّـهِ أجرُه. والشكر موصول للشيخ (عمار الهلاليّ) جزاه الله عني خيرًا. والأخوة العاملون في وحدة التحقيق؛ لمراجعتهم الدقيقة والعميقة ومعالجتهم للنصوص المُشكِلة والوقوف على أبرز النكات العلميَّة والبحثيَّة فجزاهم الله خير الجزاء، وجعله في صحيفة أعمالهم، وهم كلٌّ من: (السَّيِّد حيدر وتوت الحسينيّ، والأخ الدكتور علي الأعرجيّ، والأخوين الباحثين الدكتور محمَّد حليم الكرويّ، والدكتور عيَّاد حمزة الويساويّ)، والشكر موصول للأخ المُخرج الطباعيّ أحمد رحيم المنصوريّ.

وكذلك لا بُدَّ مِن الشكر لأُناسٍ لبسوا القلوب على الدروع، فأقبلوا يتهافتون على ذهاب الأنفس، الذين لبّوا نداء المرجعيّة الرشيدة وذهبوا لقتال داعش والتكفيريِّين وبذلوا النفس والنفيس، وحفظوا المقدَّسات والحرمات بدمائهم الزكية، أسأل الله تعالى أن يحشرهم مع الحسين عليه السلام ويجعلهم لنا شفعاء، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

صادق الشيخ عبد النبي الخويلديّ

مدير مركز تراث الحِلَّة

٢٩ رجب ١٤٤٢ هـ

المقدمة

الحمدُ للهِ الذي خَصَّ محمَّدًا بالرسالة والنبوّة، والاصْطِفاء، وأنار على يديه دروب البرية، وقادهم إلى المحجّة البيضاء، وصلّى الله ﷻ على المخاطَب بالقرآن- صاحب المنظومة السنّية العليّة - نبيِّنا محمّد ﷺ، وعلى آله موضوع العصمة والطهارة والرشاد، وعلى صحبه الكرام المخلَصين.

أمّا بعدُ..

فقد شكَّل الإنتاج اللغويّ موضوعًا رحبًا للدراسات العلميَّة، إذ انتظمته مجموعة من العلوم منها: (علم الخطاب) الذي ينظر إليه على أساس أنّه عملية إجرائيَّة تقتضي التفاعل المتبادل بين المتكلِّم والسامع، أو بين المنشئ والمستمع، أو بين المرسِل والمرسَل إليه، على وَفْاقًا لضوابط مُعيَّنة، ولكن يشترط بين هذين الركنين المعرفة الواعية بآليات الخطاب من أجل الوصول إلى الغايات المنشودة والمرجوّة، ومن هذه الآليات (التداولية) بوصفها منهجًا لغويًا حديثًا ينظر إلى هذا النتاج على أساس أنّه فعلٌ كلاميٌّ، واستلزامٌ حواريّ وتقنيّةٌ حِجَاجيّةٌ مبنيّ على مقاصدَ معينة بلحاظ الموقف الاجتماعيّ الذي يوضّحه ويفسّرُه.

وعند سَبْر غَوْر مكتبتنا الحِلِّيَّة؛ لاستجلاء الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التداوليّة، فإنّنا سنرقب بمِرْقاب التأمل والتدبر، وبمِنْظار الفحص والتثبّت ما تركه لنا سعدُ السعود، وجمالُ المنشئين، ومهجةُ العارفين، وبهجةُ المخاطِبين، وإقبال المُرْشدين السَّيِّد رضيّ الدين عليّ بن طاووس الحِلِّيّ (ت٦٦٤ هـ)؛ ليكون قبلتنا وعتبتنا في الكتابة عنه،

فنجد المباحث الدقيقة للمصطلحات الأخلاقيَّة، فضلًا عن ذلك نلمح أسس هذا الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التداوليّة في ظلِّ وصاياه وكلامه، وأدعيته ورسائله وغيرها.

كان السَّيِّد ابن طاووس مرشدًا وموجهًا، وذا رؤية واضحة المعالم في الخطاب الأخلاقي مُجسّدًا وكاشفًا عن الآليات التداولية التي تضبط خطابه الاخلاقي.

إنّ إحساسنا بخدمة التراث اللغويّ العربيّ عامَّة، والتراث اللغويّ الحلّيّ خاصَّة يدعونا إلى انتقاء هذا العَلَم الإماميّ؛ ليكون مَحَطَّ دراستِنا ومَحَزّ بحثنا، واقتناص خطابه الأخلاقيّ ليصير الرتاج الوسيع الذي ننفذ من خلاله لسَّبر غور هذه الشخصيّة الأخلاقيّة الكبيرة، ولاسّيما أنّ تراثنا كان وما يزال بحاجة إلى الأيادي الأمينة التي تكشف النقاب عن شخصيات نحسب أنَّها لم تحظَ بِمْرقاةٍ عند الباحثين والدارسين، ومن أجل تبصرة القرَّاء بالمسار الإبداعي، والمسارب المعرفيّة المتنوّعة التي سطّرها علماؤنا؛ ولاسيّما رضيّ الدين ابن طاووس الحِلِّيّ، الذي يُعد من علماء الإسلام المخلصين والمحقِّقين والأخلاقيّين والتربويّين.

وما يسترعي الانتباه في هذا المجال أنَّ نصوص ابن طاووس الأخلاقيَّة – التي اشتملتها دراستنا – تعدّ من النصوص الأخلاقيّة القديمة؛ وتمثل سبقًا علميًا ومظهرًا من مظاهر التميّز لـ(ابن طاووس) يستحق الإشادة به والتنويه عليه؛ الأمر الذي يجعل دراستنا جديدة في بابها، ونحسب أنّها الأولى في هذا الجانب.

إنّ الخطاب الأخلاقيّ وآلياته التداوليَّة الذي أزمعنا الحديث عنه عند عَلَم من أعلام الحلّة الفيحاء، جاء تلبية للدعوة إلى لزوم إعادة قراءة التراث بوسائل منهجية حديثة؛ من أجل استنباط الأسس المعرفيّة المتنوعة التي بُني عليها الفكر الموروث، ومن ثم الإسهام الجادّ والمثمر في تفعيل التراث في الدراسات اللغوية الحديثة.

وقد اعتمدنا لنسج خيوط هذا البحث المنهج الوصفيّ التحليليّ القائم على لملمة أهم الخطابات الأخلاقيَّة، ثم عرضها على مسائل الموضوع، ومناقشتها، وإثرائها بالإفادة من أقوال الباحثين، ممَّن كتبوا في هذا المجال، فَضْلًا عن الأطاريح المقدمّة في الخطاب والأخلاق، والتداول.

وجاءت الدراسةُ في أربعة فصول، يسبقها تمهيد وتعقبها خاتمة وثبتٌ بالمصادر والمراجع، أمّا التمهيد فعرضنا فيه لحياة ابن طاووس و ودلالة الخطاب الاخلاقي، ثمّ بيّنا مفهوم التداوليّة، وعُني الفصل الأوَّل، بجذور الخطاب الأخلاقيّ عند (ابن طاووس الحلّيّ)، وخُصِّصَ الفصل الثانيّ للحديث عن سمات الخطاب الأخلاقيّ، أمّا الفصل الثالث، فجاء بعنوان: الأفعال الكلاميّة في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحِلّيّ، أمّا الفصل الرابع – وهو خاتمة فصول الدراسة – جاء بعنوان الاستلزام الحواريّ والحِجاج في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحلّيّ، وانطوت خاتمة الدراسة على جملة من النتائج، تتبعها توصياتٌ نخالُ أنّ من الحقّ ذكرها.

ولا بُدَّ من القول: إنَّ مَنْ لا يَعْرِفُ حقّ الآخرين لا يَعْرِفُ حقّ الله ﷻ، فإنَّنا نتقدّم بالشكر الجزيل لمركز تراث الحِلَّة المبارك، لما يقومون به مِن أعمال جليلة ومهامَ كبيرة فجزاهم الله ﷻ خير جزاء المحسنين، زد على ذلك رعايتهم المسابقة العلميّة الشريفة لأفضل مؤلَّفٍ بحقّ هذه المدينة المباركة (مدينة العلم والعلماء الحلّة الفيحاء)، ونحن على يقين، ونقطع جازمين بأنّ الأقلام الشريفة والعقول النيرة ستقدّم بحوثًا ودراساتٍ مشرقاتٍ قلّما يجود بمثلها الزمن، كيف لا والحلّة تضطمُّ على تراث عظيم، ومخزون فكريّ كبير، ومكنزٍ أدبيّ أصيل لا يَعْلَمُ سِرَّه إلَّا الله ﷻ والراسخون في العلم.

وفي الختام ندعو العزيز القدير أنْ ينالَ عملنا هذا الموضع المحمود والموقع المأمول من أصحاب الحِجا والعقول حتَّى يُضْحِي ويَغْدُو ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، وعطاءً وافرًا يُسهِم في إغناء المنظومة الأخلاقيّة الإسلاميَّة فِكْرًا ومَبْدأً وثقافةً وسُلُوكًا، والحمدُ للّهِ ربِّ العالمين، وصلّى الله على محمَّد وآله الطاهرين.

المؤلفان

التمهيد

أوَّلًا: لمحة من حياة رضيّ الدين علي ابن طاووس الحِلِّيّ

اسمه و نسبه الشريف

هو السَّيِّد النقيب رضيّ الدين أبو القاسم علي بن سعد الدين أبي إبراهيم موسى ابن جعفر ابن محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن أحمد بن أبي عبد الله محمَّد الطاووس بن إسحاق ابن الحسن بن محمَّد بن سليمان بن داوود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب عليهم السلام[1].

وأسرة آل طاووس الحسنيَّة العلويَّة تنحدر من السَّيِّد أبي عبد الله محمَّد الطاووس الذي يرجع هو ووالده في الأصل إلى مدينة سُورا، ثم انتقلت ذريته بعد ذلك إلى بغداد والحِلّة، وقد أخرجت هذه الأسرة جملة من الأعلام في المائتين السابعة والثامنة للهجرة، فكانوا سادات وعلماء ونقباء، وقد انكبوا على الكتابة والتأليف في علوم الدين والفقه والشريعة والأنساب، وأشاعوا الوعي والفضيلة بين الناس، وكان أبرز أعلام هذه الأسرة رضيّ الدين علي بن موسى بن جعفر ابن طاووس، و لقب جدّ الأسرة بالطاووس لحسن وجهه وجماله وعدم مناسبة قدميه لحسن صورته قال فيهم صاحب عمدة الطالب: «وهم سادة وعلماء ونقباء معظمون، منهم... رضي الدين أبو القاسم علي الزاهد صاحب الكرامات نقيب النقباء، بالعراق»[2]، وتركت لنا هذه الأسرة العلويَّة نتاجًا معرفيًّا غطّى جانبًا كبيرًا من المكتبة العربية.

---

(١) الكنى والألقاب: ١/ ٣٣٩.

(٢) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: ١٨٩، ١٩٠، وينظر: بحار الأنوار: ١٠٤ و ٤٤، الكنى والألقاب: ٢/ ٤٣٩.

ولادته

ولد رضي الدين علي ابن طاووس قبل ظهر يوم الخميس منتصف محرم سنة (٥٨٩هـ) بالحِلّة[١]، التي كانت مقصدًا لرواد العلم، ودارًا للفقه والمعارف، إذ نبغ فيها رجال حملوا راية العلم زهاء أكثر من ثلاثة قرون ولمع في سماء مدرسة الحِلّة فقهاء وعلماء وأدباء ما زالت آراؤهم تحظى بالعناية في أروقة المدارس العلميَّة، وأضحت مدوناتهم مصادر أصيلة يرجع إليها الباحثون، وساعد على إرساء قواعد الحركة العلميَّة في مدينة الحِلَّة وجود الأسر العلويَّة كـ(آل طاووس)، و(آل طباطبا)، و(آل العميد)، و(آل الأعرجيّ) وغيرهم [٢].

أقوال العلماء فيه

قال العلَّامة الحِلِّيّ في بعض إجازاته: وكان رضيّ الدين علي صاحب كرامات، حَكَى لي بعضَها، وروى لي والدي البعض الآخر، وقال في موضع آخر: إنّ السَّيِّد رضيّ الدين كان أزهد أهل زمانه [٣].

أشاد المحدّث القمِّيّ بصفاته قائلًا: «السَّيِّد الأجل الأورع الأزهد، قدوة العارفين...وكان رحمه الله من عظماء المعظمين لشعائر الله تعالى لا يذكر في أحد تصانيفه الاسم المبارك (الله) إلَّا ويعَقِّبُه بقوله جل جلاله... وكان رأيه في زكاة غلاته كما ذكره في كتاب (كشف المحجة)) أن يأخذ العشر منها ويعطي الفقراء الباقي منها»[٤].

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٤.
(٢) ينظر: أسرة آل طاووس ومساهماتها في الحركة العلميَّة في الحِلَّة: ٢.
(٣) ينظر: منهاج الصلاح في اختصار المصباح: ١/ ٣٤٠.
(٤) الكنى والألقاب: ١/ ٣٢٩.

وذكر البحرانيُّ أنّه: صاحب المقامات والكرامات والمصنفات... ولم يزل على قدم الخير والآداب والعبادات والتنزّه عن الدنيّات إلى أن تُوفي[1].

ورد في شعراء الحِلَّة أنّ: «من مشاهير العلماء المؤلفين، و ممَّن نال مكانة قدسيَّة عند مختلف طبقات الإسلام»[2].

جاء في كتاب المدارس الأخلاقيَّة في الفكر الإسلاميّ «وهو يعدّ من أشهر علماء الشيعة، على مرّ التاريخ في الزهد والتعبد وطهارة النفس» [3].

روي عن أحد طلبة الحوزة العلميَّة في النجف الأشرف أنّه سأل السَّيِّد أبا القاسم الخوئيّ قدس سره عن مدى صحة الحديث القائل: **(علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)** فقال السُّيِّد للطالب: من أيِّ مدينة أنت؟ أجاب الطالب: من مدينة الحِلّة فقال سماحته، لو كان العلماء بمنزلة السَّيِّد علي ابن طاووس لعرفنا كيف يكون علماءَ أمة محمَّد صلى الله عليه وآله كأنبياء بني إسرائيل.

وقد أثنى عليه جمعٌ كثيرٌ من العلماء والمؤرخين، ونكتفي بهذا المقدار؛ رعايةً للاختصار.

شيوخه وتلامذته

تتلمذ السَّيِّد رضي الدين ابن طاووس على جملةٍ من العلماء الأفذاذ، وفي مقدمتهم والده السَّيِّد الشريف موسى بن جعفر بن محمَّد ابن أحمد بن الطاووس[4]، والشيخ محمَّد بن نما، وجده الشيخ ورام بن أبي فراس المالكي[5] وهو جد رضي الدين من قبل

(١) لؤلؤة البحرين: ٢٣٦.
(٢) شعراء الحلّة: ٤/ ٢٤٠.
(٣) المدارس الأخلاقيّة في الفكر الإسلاميّ: ٤٥٥.
(٤) فتح الأبواب: ١٣٧و١٨٧و ٢٧١.
(٥) كشف المحجة: ١٠٩.

أمه، وكان عالمًا فقيهًا محدثًا، عُرف بالزهد والورع[1]، له كتاب (تنبيه الخاطر ونزهة الناظر) المعروف بمجموعة ورّام وهو كتاب أخلاقيّ[2]، والشيخ الصالح حسين بن أحمد السوراويّ، كان عالمًا فاضلًا جليلًا نبيلا[3]، أجاز ابنَ طاووس في جمادى الآخرة سنة (٦٠٧هـ)، إذ يقول في كتاب اليقين: «وأخبرني بذلك الشيخ الصالح حسين بن أحمد السوراويّ أجازه في جمادى الآخرة سنة سبع وستمائة عن الشيخ السعيد محمَّد بن القاسم الطبريّ عن الشيخ المفيد أبي علي الحسن بن محمَّد الطوسيّ عن والده السعيد محمَّد بن الحسن الطوسيّ»[4].

ومن جملة مَنْ تتلمذ على يده وروى عنه: العلَّامة الحِلّيّ، وعلي بن عيسى الإربليّ، وابن أخيه السَّيِّد عبد الكريم.

وقُصارى ما يمكن قوله في ظلّ عبارات الفخر والمدح والإطراء بحقِّ السَّيِّد ابن طاووس أنَّه كان زاهدًا عابدًا عارفًا صاحب كرامات ساميات، ومقامات عاليات، وفيوضات شامخات، زد على ذلك أنَّه كان بليغًا منشئًا أديبًا شاعرًا، وبتضافر هذه الخصال الحميدات، والملكات الباهرات، كان حقيقًا علينا أن نستجلي معلمًا معرفيًا من معالم ابن طاووس المتنوعات، وهو خطابه الأخلاقي الذي يمثل مفتاحًا لمعرفته المتنوعة التي انطوى عليها.

مؤلَّفاته

خلّف ابن طاووس تراثًا علميًا ضخمًا في مختلف المعارف والعلوم والفنون، فهو أكثر علماء أسرته نتاجًا معرفيًّا، فانطوى على خِزانة عظيمة حوت على أكثر من ألف

(١) خاتمة المستدرك: ٣/ ٢١.
(٢) الذريعة: ٢٠ / ١٠٩.
(٣) أمل الآمل: ٢/ ٩٠.
(٤) اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام: ٢٠٨.

وخمسمائة كتاب[1]، واستطاع أنْ يمتلك هذه الخزانة الغنية بالذخائر والنفائس ممَّا لم يكن له وجود في خزانة أخرى ولشغفه وعنايته بها وضع لها فهرسًا سمّاه: (الإبانة في معرفة أسماء كتب الخِزانة)، قال:«إنّنا لما صنّفنا كتاب الإبانة في معرفة أسماء كتب الخِزانة، ما كان ذلك يكفي في معرفته أسرار الكتب وجواهرها وجعلنا هذا تمامًا ومرآة يرى عين ناظرها كثير من تلك الفوائد ويتضّيف بها على شرف الموائد» [2]، ولا يخفى أنَّ المكتبات وخزائن الكتب هي روضات أهل العلم وجنات أفكارهم ومحض استمتاعاتهم، فقد أصبحت محلًّا لتحقيق المسائل والاطلاع على الدلائل وهذه المكتبات و خزائن الكتب لها السهم الأوفر، والقدح المعلّى في نشاط الحركة العلميَّة والفكريَّة في مدينة الحِلّة، وقد انمازت مؤلَّفاته بالدقة والأمانة العلميَّة، وشغلت كتب الأدعية والوصايا مساحة واسعة في تراثه الفكريّ، ويظهر في ضوء وصاياه لولده أنّه حذّره من الاشتغال ببعض العلوم، ومن اللافت أنَّ ابن طاووس الحِلّيّ صرّح بأنّ كتبه في الأدعية لم يسبق إليها، قال: «وإذا أتمّ الله ﷻ هذه الكتب على ما أرجوه من فضله رجوت بأنَّ كلَّ كتابٍ منها لم يسبقني فيما أعلم أحدٌ إلى مثله، ويكون من ضرورات من يريد قبول العبادات والاستعداد للمعاد قبل الممات» [3]، وسنذكر أهم المصنَّفات التي نحسب أنّ الخطاب الأخلاقيّ قد انتظم فيها مرّة، وأفادت منها دراستنا مرّة أخرى، مرتبين إيّاها بحسب الأحرف الهجائية على النحو الآتي:

- الإقبال بالأعمال الحسنة.

- التحصين في أسرار ما زاد على كتاب اليقين.

---

(١) ينظر: الذريعة في تصانيف الشيعة: ١/ ٥٨.

(٢) سعد السعود: ٤٢١.

(٣) فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة: ٤٦.

- جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع.
- الدروع الواقية من الأخطار فيما يعمل كلّ شهرٍ على التكرار.
- سعد السعود للنفوس.
- فتح الأبواب بين ذوي الألباب ورب الأرباب.
- فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة.
- كشف المحجَّة لثمرة المهجة.
- محاسبة الملائكة الكرام آخر كلّ يومٍ من الذنوب والآثام أو(محاسبة النفس).
- مهج الدعوات ومنهج العنايات.
- اليقين باختصاص مولانا عليّ أمير المؤمنين عليه السلام بإمرة المؤمنين.

ومن الجدير بالذكر أنّ ابن طاووس قد صرَّح بوفرة نتاجه العلميّ، وزخارة منجزه الأدبيّ قال: «وجمعتُ وصنَّفت مختصرات كثيرة، ما هي الآن على خاطري وأنشأت من المكاتبات والرسائل والخطب ما لو جمعته أو جمعه غيري كان عدّة مجلدات ومذاكرات في المجالس في جواب المسائل بجوابات وإشارات وبمواعظ شافيات ما لو صنّفها سامعوها كانت ما يعلمه الله جل جلاله من مجلدات»[1].

وفاته ومدفنه

توفي السَّيِّد رضي الدين علي ابن طاووس في بغداد بكرة الخامس من ذي القعدة عام (٦٦٤هـ) [2]. وثمَّة خلاف في مكان دفنه وتربته، فالشيخ البحرانّي يذهب إلى أنَّ

(١) الإجازات المطبوع في بحار الأنوار: ١٠٧/ ٤٢.
(٢) بحار الأنوار: ١٠٧/ ٤٤.

قبره غير معروف الآن[1]، وذهبَ المُحدث النوريّ إلى أنَّه دُفِن في الحلّة، يقول: «في الحِلَّة في خارج البلد قبة عالية في بستان تنسب إليه، ويزار قبره ويتبرك فيها، ولا يخفى بعده لو كان الوفاة ببغداد، والله العالم»[2]، ويرى السَّيِّد حسن الصدر أنّ: «الذي يعرف بالحلّة بقبر السَّيِّد علي بن طاووس في البستان هو قبر ابنه السَّيِّد علي بن السَّيِّد علي المذكور فإنّه يشترك معه في الاسم واللقب» [3]، والذي تسالم عليه أهل الحلّة منذ القدم، وحتّى الآن هو أنّ قبر السَّيِّد رضي الدين علي بن طاووس في الحِلَّة ويقع في جنوبيها على الشارع المؤدي بين باب المشهد وغرفة التجارة، وهم يتبركون بزيارته.

والذي نذهب إليه، ونرجّحه ما ذكره ابن طاووس بقلمه الشريف من اختياره لقبره إلى جوار مرقد أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّه كان عارفًا وورعًا وعالمًا أنّ الدفن قرب أمير المؤمنين عليه السلام من دواعي نيل الشفاعة، فضلًا عن إحاطته بالروايات المستفيضة في فضل الدفن في الغري (وادي السلام)، وقد صرَّح بذلك في وصيته إذ بين فيها أنَّه يريد أن يُدفن قرب قبر أمير المؤمنين عليه السلام وتحت قدمي والديه، قال: «وقد كنتُ مضيتُ بنفسي وأشرتُ إلى مَن حفر لي قبرًا، كما اخترته في جوار جدي ومولاي علي بن أبي طالب عليه السلام متضيّفًا ومستجيرًا ووافدًا وسائلًا وآملًا ومتوسلًا بكلِّ ما توسّل به أحد من الخلائق إليه، وجعلته تحت قدمي والديّ رضوان الله تعالى عليهما،لأنّي وجدتُ الله تعالى يأمرني بخفض الجناح لهما ويوصيني بالإحسان فأردت أنْ يكون رأسي مهما بقيت في القبور تحت قدميهما [4]. وقال المؤرخ ابن الفوطيّ في كتاب (الحوادث الجامعة) – الذي يعدّ أفضل من أرّخ حوادث القرن السابع الهجري؛ بسبب ضبطه ودقته فضلًا عن معاصرته

(١) لؤلؤة البحرين: ٢٤.

(٢) خاتمة المستدرك: ٢/ ٤٥٩.

(٣) ينظر: نزهة أهل الحرمين في عمارة المشهدين: ١٠٧.

(٤) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٧٣، ٧٤.

له -: «وفيها- أي سنة (٦٦٤هـ)- توفي السَّيِّد النقيب الطاهر رضيّ الدين علي ابن طاووس وحُمل إلى مشهد جده علي بن أبي طالب، قيل: كان عمره نحو ثلاث وسبعين سنة» [(١)]، تغمده الله ﷻ برحمته الواسعة، وحشره مع الأنبياء والمرسلين؛ والأئمة المعصومين عليهم السلام.

ثانيًا: الخطاب الأخلاقيّ (تعريفًا) بوصفه مركبًا وصفيًا

الخطاب في اللغة:

(خَطَبَ) الْخَاءُ وَالطَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْكَلَامُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، يُقَالُ خَاطِبُهُ يُخَاطِبُهُ خِطَابًا، وَالْخُطْبَةُ مِنْ ذَلِكَ... وَالْخُطْبَةُ: الْكَلَامُ الْمَخْطُوبُ بِهِ، وَيُقَالُ اخْتَطَبَ الْقَوْمُ فُلَانًا، إِذَا دَعَوْهُ إِلَى تَزَوُّجِ صَاحِبَتِهِمْ، وَالْخَطْبُ: الْأَمْرُ يَقَعُ ; وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ التَّخَاطُبِ وَالْمُرَاجَعَةِ [(٢)]، خطب فلان: أحسن الخطاب والخطاب هو المواجهة بالكلام[(٣)]، والخطاب مراجعة الكلام، وخاطبه بالكلام مخاطبةً وخطابًا وهما يتخاطبان[(٤)]؛ وقد وردت هذه المادة (خَطَبَ) وتصريفاتها في القرآن الكريم بصيغ متعددة اسمًا وفعلًا، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[المؤمنون: ٢٧]، ولنا وقفةٌ على قوله تعالى في شأن داوود عليه السلام، ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾، فالمراد من فصل الخطاب المقدرة الخطابية لنبي

(١) الحوادث الجامعة: ٣٥٦.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٢/ ١٩٨.

(٣) أساس البلاغة: ١/ ١٦٧.

(٤) لسان العرب (مادة خَطَبَ): ١/ ٣٦١.

الله داوود عليه السلام في ضوء ملكته الكلامية القائمة على فتق الكلام وتشقيقه، واقناع المخاطَبين وإفحام الخصوم وقهرهم [1].

الخطاب في الاصطلاح:

تنوَّعت تعريفات مفهوم الخطاب عند البيانيَّين العرب، وكان لتباين الفكر والتفكير في المنظومات العقليَّة لمنتجي الخطاب الأثر البالغ في تلوِّن نظرتهم لمفهوم الخطاب، ويظهر أنّ التعريف في الاصطلاح لا يخرج عن المعنى اللغوي في عملية الإبلاغ والتوصيل، فضلًا عن تلمسّ الإقناع والإمتاع، فهو في أصل اللّغة توجيه الكلام نحو المخاطَب (بفتح الطاء)، ثم نقل الكلام الموجّه نحوه للإفهام اصطلاحًا، وسنحاول ذكر أهم تعريفات الخطاب من أجل الوصول إلى مقاربة تأصليَّة له، فقد عرّف الآمدي الخطاب بأنّه:«اللَّفْظُ الْمُتَوَاضَعُ عَلَيْهِ الْمَقْصُودُ بِهِ إِفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ»[2]، نافيًا أنْ يكون الخطاب: «هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يَفْهَمُ الْمُسْتَمِعُ مِنْهُ شَيْئًا» [3]، وعرّفه بدر الدين الزركشيّ بأنّه: «الكلَامُ المقصُودُ مِنْهُ إفهَامُ مَنْ هوَ مُتَهَيِّئٌ لِلفَهمِ؛ وَعَرَّفهُ قومٌ بِأَنَّهُ مَا يُقصَدُ بِهِ الْإِفْهَامُ أَعمُّ مِنْ أَنْ يكونَ منْ قَصَدَ إفْهَامَهُ مُتَهَيِّئًا أَمْ لَا، قِيلَ: وَالْأَولَى أَنْ يُفَسَّرَ بِمَدلُولِ مَا يُقصدُ بِهِ الْإِفهامُ»[4]، ونلحظ أنّ في تعريفي الآمدي والزركشي إشارة إلى أركان الخطاب الثلاثة: (المخاطِب، والمخاطَب، والخطاب)، زد على ذلك وجود عملية تواصلية وإفهامية بين الطرفين، وهذا الفهم لأركان الخطاب ووظيفته الإبلاغية الإبداعية فطن لها اللغويون المحدثون في ظلّ تعريفاتهم مستثمري أفكار القدماء، فقالوا بأنَّ الخطاب هو: «كلُّ تلفظٍ يفترض مُتكلمًا ومُستمعًا وعند الأوَّل هدف التأثير على

(١) ينظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: ٢٦ / ٣٧٦، وينظر: فهم الخطاب القرآنيّ بين الإماميَّة والأشاعرة: ٢٢.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام:١/ ٩٥.

(٣) م. ن:١/ ٩٥.

(٤) البحر المحيط في أصول الفقه: ١/ ٩٨.

الثاني بطريقة ما» [١] وحُدِّد الخطاب – في أعمّ مفاهيمه – بأنّه: كلُّ قولٍ يفترضُ مُتكلمًا وسامعًا مع توافر مقصد التأثير بوجه من الوجوه في هذا السامع[٢]، وقالوا أيضًا هو: «مجموع خصوصي لتعابير تتحدّد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الأيديولوجي»[٣]. ومفردة (خطاب) لاتقف عند حدود الملفوظ من الكلام، وإنَّما تشمل حتَّى النص المكتوب فالخطاب«كلمة تستخدم على كلام متصل اتصالًا يمكنه من أنْ ينقل رسالة كلامية من المتكلم أو الكاتب، وليس كلُّ خطاب نصًّا، وإنْ كان كلُّ نصّ– بالضرورة– خطابًا» [٤].

يقول طه عبد الرحمن:«الواقع أنّ مفهوم (الخِطاب) يدلُّ على أمرٍ زائدٍ على ما يدلّ عليه مفهوم (القول)، إذ لا يعني مجرد النطق بألفاظ معينة، وإنّما يعني توجيه هذه الألفاظ إلى الآخر، بوصفه قادرًا على أنْ يفهمها، ويتحمل مسؤوليتها والفهم منها، ولهذا فإنّ كيفية توصيل هذه الألفاظ إلى الآخرين، أو قلْ بالاصطلاح تبليغها تتطلب من المتكلم عناية تساوي بَلْ تجاوز عنايته بالأحكام التي تتضمنها هذه الألفاظ واختلال هذه الكيفية يلزم منه اختلال الأحكام، في حين قد يختلّ الحكم المبلَّغ، ولا تختلّ كيفية تبليغه»[٥].

الأخلاق في اللغة:

«خَلَقَ) الْخَاءُ وَاللَّامُ وَالْقَافُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا تَقْدِيرُ الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ مَلَاسَةُ الشَّيْءِ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَقَوْلُهُمْ: خَلَقْتُ الْأَدِيمَ لِلسِّقَاءِ، إِذَا قَدَرْتَهُ... وَمِنَ الْبَابِ رَجُلٌ مُخْتَلَقٌ: تَامُ

(١) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة: ٦٥.
(٢) ينظر:الحجاج في القرآن في خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٣٥.
(٣) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ١٤٢.
(٤) الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص: ٢٤.
(٥) الخطاب الإسلاميّ إلى أين؟ حوارات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبدالرحمن): ٢٥.

الْخَلْقِ. وَالْخُلُقُ: خُلُقُ الْكَذِبِ، وَهُوَ اخْتِلَاقُهُ وَاخْتِرَاعُهُ وَتَقْدِيرُهُ فِي النَّفْسِ، وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي فَصَخْرَةٌ خَلْقَاءُ، أَيْ مَلْسَاءُ...وَالْخُلُوقُ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ الْخِلَاقُ أَيْضًا، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا خُلِّقَ مَلُسَ، وَيُقَالُ ثَوْبٌ خَلِقٌ وَمِلْحَفَةٌ خَلَقٌ، يَسْتَوِي فِيهِ الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلسَّهْمِ الْمُصْلَحِ مُخَلَّقٌ؛ لِأَنَّهُ يَصِيرُ أَمْلَسَ»[1].

والخُلْق والخُلُق: «السَّجِيّة. يُقَالُ: خالِصِ الْمُؤْمنَ وخالِقِ الْفَاجِرَ... الخُلُقُ، بِضَمِّ اللَّامِ وَسُكُونِهَا: وَهُوَ الدِّين والطبْع وَالسَّجِيَّةُ، وَحَقِيقَتُهُ أَنه لِصورة الإِنسان الْبَاطِنَةِ وَهِيَ نفْسه وأَوصافها وَمَعَانِيهَا المختصةُ بِها بِمَنْزِلَةِ الخَلْق لِصُورَتِهِ الظَّاهِرَةِ وأَوصافها وَمَعَانِيهَا، وَلَهُمَا أَوصاف حسَنة وَقَبِيحَةٌ، والثوابُ وَالْعِقَابُ»[2].

والذي يبدو في ضوء هذين النصين أنّ هناك فكرتين يتحدّد بهما معنى (الخُلُق) وجمعه أخلاق، الأولى: الرسوخ بمعنى الثبات والدوام، والثانية: التلقائية، وهي الهيأة الراسخة من غير تكلّفٍ، والملاحظ أنّ (الخلق) بهذا المعنى غير السلوك، فهو ملكة أو هيأة في النفس تصدر عنها الأفعال، فهي منبع السلوك[3].

ويبدو أنَّ العلّامة المصطفويّ قد ترسّم التحقيق المراد في موارد استعمال مادة (خلق)، فالأصل الواحد في هذه المادة: هو إيجاد شيء على كيفيّة مخصوصة، وبما أوجبته إرادته، واقتضته الحكمة «والفرق بين الخلق والإيجاد والإحداث والإبداع، والتقدير، والجعل، والاختراع، والتكوين، أنّ النظر في الإيجاد إلى جهة إبداع الوجود فقط، وفي الإحداث إلى الإيجاد من جهة الحدوث وكونه حادثًا، وفي الإبداع إلى الإيجاد على كيفية لم يسبقها غيرها، وفي الخلق إلى كون الإيجاد إلى كيفية مخصوصة، وفي الاختراع إلى جهة الاشتقاق بسهولة، وفي التقدير إلى جهة التحديد وتعيين الحدود فقط، وفي التكوين

(١) مقاييس اللغة (مادة خَلَقَ): ٢/ ٢١٣.

(٢) لسان العرب (مادة خلق): ١٠/ ٨٦.

(٣) ينظر: العقل الأخلاقيّ العربيّ: ٣٣.

إلى الإيجاد ومن جهة حالة الكون والبقاء إجمالًا، وفي الجعل إلى جهة إحداث تعلق وارتباط، فهذه الخصوصية ملحوظة في موارد استعمال المادة، وليس مفهوم التقدير أو الملاسة أو البلى أو التاميّة أو الطبيعية أو النصيب أو الاستواء من حيث هو من مصاديق الأصل الواحد، بل بلحاظ تحقّق الإيجاد على خصوصية معينة»[1].

ويبدو أنَّ أبا علي مسكويه (ت ٤٢١هـ) قد أشار من قبل إلى فضل صناعة الأخلاق قال: «فأمّا أنّ هذه الصناعة هي أفضل الصناعات كلّها، أعني صناعة الأخلاق التي تعنى بتجويد أفعال الانسان بما هو إنسان (...) لما كان للجوهر الإنساني فعل خاص لايشاركه فيه شيء من موجودات العالم (...) وكان الإنسان أشرف موجودات عالمنا ثم لم تصدر أفعاله عنه بحسب جوهره (...) وجب أنْ تكون الصناعة التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان – حتَّى تصدر عنه أفعالهُ – كلّها تامة كاملة بحسب جوهره ورفعه عن رتبة الأخس التي يستحق بها المقت من اللهﷻ والحصول في العذاب الأليم، أشرفُ الصناعات كلّها وأكرمها»[2].

ويرى د. محمَّد عابد الجابريّ في ضوء مناقشته النافعة للنصوص اللغويّة المتصلة بتصريفات مادة (خ ل ق) أنّ للفظ (الخُلق) أربعة استعمالات: القوة الغريزة والهيأة الموجودة في النفس، والحالة المكتسبة التي يصير بها الإنسان خليقًا أنْ يفعل شيئًا دون شيءٍ، وأنْ يستعمل اسمًا للفعل الصادر عن تلك الحالة، وقد يستعمل اسمًا للهيأة، والفعل معًا، مثل: العفة والعدالة والشجاعة[3].

واعتنى القرآن الكريم بمكارم الأخلاق وذم مساوئها في آياته المتكررة وسوره المتتالية، إذ بلغت مجموع الآيات التي تحدثّت عن

(١) التحقيق في كلمات القرآن:٣/ ١٢٨.
(٢) تهذيب الأخلاق:٣٦ – ٣٧.
(٣) ينظر: العقل الأخلاقيّ العربّي: ٣٣.

التمهيد

الأخلاق صراحة أو إشارة أمرًا أو نهيًا ما يقرب من ربع العدد الإجمالي لآيات القرآن الكريم [١].

ومن الدلالات التي لها مسيس بدراستنا، دلالة التحليّ والالتصاق بالصفات الحسنة، والفضائل الحميدة، وتبلغ الكمال والتمام في الخلق العظيم، وهو يتجسَّد ويترشّح للنبيّ محمَّدﷺ بحكم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وهذا ما استشعره الشيخ الطوسيُّ (ت ٤٦٠هـ) قال:«الخلق: المرور في الفعل على عادة، فالخلق الكريم: الصبر على الحق وسعة البذل، وتدبير الأمور على مقتضى العقل وفي ذلك الرفق والأناة والحلم والمداراة» [٢]. قال الفخرُ الرازيّ (ت٦٠٤هـ) «فكأنَّه أمرٌ بمجموع ما كان متفرقًا فيهم، ولمّا كان ذلك درجة عاليةٌ لم تتيسر لأحدٍ من الأنبياء قبله، لا جرَمَ وصف الله خلقه بأنّه عظيم وفيه دقيقة أخرى، وهي قوله: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وكلمة (على) للاستعلاء فدلّ اللفظ على أنّه مستعلٍ على هذه الأخلاق، ومستولٍ عليها وأنّه بالنسبة إلى هذه الاخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد، وكالأمير بالنسبة إلى المأمور»[٣]، وقد تكرَّر هذا الأسلوب الاستعلائي في كلامه سبحانه في مقامات مختلفة، قال تعالى في صفة النبيﷺ: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[الحج: ٦٧]، وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

ويرى الشيرازيُّ (الملا صدرا) أنَّ شرط الفهم هو التخلق بالقرآن، وأنَّ القرآن بحقيقته هو خلق النبيﷺ، قال: «والقرآن بحسب حقيقته الأصلّيَّة خلق النبيﷺ،

(١) ينظر: مقدمة في علم الأخلاق: ٥.

(٢) التبيان في تفسير القرآن: ١٠/ ٧٥.

(٣) التفسير الكبير مفاتيح الغيب: ٢٩/ ٧١.

وكلُّ ما يفهمه المفسرون، ويصل إليه إدراكهم ظِلٌّ من ظِلالِه القريبة والبعيدة، وشَبَحٌ من أَشباحه العالية والدانية» [1].

الأخلاق في الاصطلاح:

الخُلُقُ والخُلْق هو:«ملكة نفسانيَّة تقتدر النفس معها على صدور الأفعال عنها بسهولة من غير تقدم روّيـة»[2]، والخُلُقُ:«مَلَكة في النفس تحصل من تكرّر الأفعال الصادرة من المرء على وجه يبلغ درجة يحصل منه الفعل بسهولة، كالكرم فإنَّه لا يكون خُلُقا للإنسان إلَّا بعد أن يتكرر منه فعل العطاء بغير بدل حتّى يحصل منه الفعل بسهولة من غيرِ تكلفٍ»[3]، والأخـلاق عند علماء المسلمين وغيرهم من الفلاسفة القدماء: ملكة تصدر بها الأفعال عن النفس تلقائيًّا، من غير تفكير أو روية أو تكلّف، وكلُّ ما يصدر عنها عن النفس من سلوك ليس مطبوعًا فيها كغضب الحليم وكرم البخيل لا يعدّ خلقًا؛ والخلق ينقسم على فضائل، وعلى رذائل، وذلك أنَّ النفس الإنسانيَّة من حيث تعلّقها بالبدن وتدبيرها إياه تنطوي في نظر الحكماء على قوى ثلاث:

- القوة التي تعقل بها ما تحتاج اليه في تدبيره، وهي القوة العقلية المميزة.

- القوة التي تجذب بها ما ينفع البدن وما يلائمه من المآكل والمشارب، وتسمى القوة الشهوانية.

- القوة التي تدفع بها ما يضر البدن ويؤلمه فتحمله على المدافعة والإقدام وتسمىّ القوة

(١) تفسير القرآن الكريم: ٧/ ١٧٨.

(٢) ينظر: نهاية المرام في علم الكلام: ٢/ ٢٧٣، وينظر: جامع السعادات: ١/ ٢٦، وتهذيب الأخلاق:٢٥، و إحياء علوم الدين: ٣/ ٥٣.

(٣) المنطق: ٣٤٤.

الغضبية؛ ولكلٍّ واحدةٍ من هذه القوى وسط وطرفان، والفضيلة الخلقية هي التوسط بين الإفراط والتفريط[1].

ولا يخفى التقارب الدلاليَّ بين المعنى اللغوي للخلق، والمفهوم الاصطلاحيّ إذ كلاهما يلتقيان عند نقطة الإيجاد والإبداع، والاختراع التي تمثّلُ ملكات نفسانيَّة تمكن النفس من صدور الأفعال، وقوىً تدفعها إلى تعجيل الأفعال أيضًا.

وأمّا علم الأخلاق، فهو: «هو روح الإنسان ونفسه الناطقة، من حيث قابليتها على الاتصاف بالصفات والخصائص الحسنة أو السيئة»[2].

ثالثًا: التَّداوليَّةُ مفْهُومًا

الدال والواو واللام: يدلُّ على تحولِ شيءٍ من مكان إلى مكان، قالَ أهلُ اللغةِ: اندال القوم، إذا تحولوا من مكان إلى مكانٍ. ومن هذا الباب تداول القومُ الشيء بينهم: إذا صارَ من بعضهم إلى بعضٍ، والدُّولة والدَّولة لغتانِ. ويقالُ بَلِ الدُّولةُ في المالِ والدَّولةُ في الحربِ، وإنَّما سمِّيا بذلك من قياسِ البابِ؛ لأنهُ أمرٌ يتداولونهُ، فيتحولُ من هذا إلى ذاك، ومن ذاك إلى هذا[3].

وتداولنا الأمر: أخذناه بالدُّول، وقالوا: دواليك؛ أي مداولةً على الأمر، ودالت الأيام؛ أي دارت، واللهُ يداولها بين الناس. وتداولته الأيدي؛ أي أخذته هذه مرّةً، وهذه مرّة، والماشي يداول بين قدميه؛ أي يراوح بينهما[4].

---

(١) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون: ١/ ٧٦٢-٧٦٣.

(٢) ينظر: جامع السعادات: ١/ ٦٠.

(٣) ينظر مقاييس اللغة (مادة دول): ٢/ ٣١٤.

(٤) ينظر لسان العرب (مادة دول): ١١/ ٢٥٢.

التداولية في الاصطلاح:

أقدم التعريفات التي قُدِّمت للتداولية هي لشارلز موريس عام ١٩٣٨م يرى فيه أنَّ التّداوليَّةَ فرعٌ من فروعِ السيميائيَّة، إذ تعنى بدراسة علاقة العلامات بمفسّريها، وهذا التَّحديد يوسِّع من مجال التَّداوليَّة لتشمل العلامات اللغويَّة وغير اللغويَّة[١]؛ غيَر أنَ التَّداوليَّة لم تصبحْ مجالًا يعتدُّ بهِ في الدَّرس اللغويّ إلّا في العقد السَّابع من القرن العشرين بعدَ أن قامَ على تطويرها ثلاثةٌ من فلاسفة اللغةِ هم: (أوستن، وسيرل، وكرايس)[٢].

وهي فرعٌ لسانيٌّ يعني بدراسة التَّواصل بين المتكلِّم والمتلقِّي، أو بمعنى آخر يُعنى بدراسة الرُّموز التي يستعملها المتكلّم في عمليّة التَّواصُل، والعوامل المؤثِّرة في اختيار رموز معيَّنة دون أخرى، والعلاقة بين الكلام وسياق حاله، وأثر العلاقة بين المتكلِّم والمخاطب في الكلام[٣]؛ والتداوليَّة تعني بالرَّابط الأساس للتواصل في اللّغة الطبيعيَّة، كما تعنى بالمتكلِّم والسامع وبالسِّياق اللغويّ، والسِّياق الخارج لغويّ، وجاهزيَّة المساهمة في الفعل التَّواصليّ[٤] وهي تقارب اللغة بوصفها ظاهرة خطابيّة، وتواصليّة، واجتماعيّة في الوقت نفسه، وتنضاف إلى علم الدّلالة؛ لتعيد المنزلة للمظاهر التي لا تهتمّ بها الدَّلالة، أي وصف الوضعيّة التَّداوليَّة وشروط نجاح التّواصل[٥] ومصطلح (التداول = التداولية) جاءَ على صيغة (تفاعل = تفاعلية) وهذا البناء يردُ للدَّلالة على المشاركة[٦]، أي: المشاركة بين المتكلم والمتلقّي.

(١) ينظر المقاربة التداولية: ٨٠.
(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٩٠، والمقاربة التداولية: ٨٠.
(٣) ينظر: معجم المصطلحات اللغوية: ٣٩٠.
(٤) ينظر: التداولية اليوم: ٢٩.
(٥) ينظر: التخييل وبناء الأنساق التداولية (نحو مقاربة تداولية): ٢٤.
(٦) ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ٤/ ٢٦٤.

التمهيد

فالتداوليّة فرعٌ من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السّامع مقاصد المتكلّم، أو هو دراسة معنى المتكلّم؛ فمثلًا حين يقول شخص: أنا عطشان فقد يعني أريد كوب ماء وليس من اللزوم أن يكون إخبارًا بأنّه عطشان؛ فالمتكلّم كثيرًا ما يعني أكثر ممّا تقوله كلماته؛ فالتّداوليّة تبحث في كيفيّة اكتشاف السّامع لمقاصد المتكلّم[1].

إنَّ التأمُّل في تعاريف التّداولية التي سُقْنا بعضًا منها وبمِرْقاب الفحص والتدبُّر نحسب أنَّ: دراسة اللغة في الاستعمال أو في التّواصل؛ هو تعريفٌ وافٍ كافٍ؛ لأنَّ المعنى ليس شيئًا متأصلًا في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلّم وحده ولا السَّامع وحده، وإنّما يتمثَّل في تداول اللغة بين المتكلّم والسَّامع في سياقٍ محدَّدٍ.

التَّداوليَّة في القُرآن الكريم:

وردت التَّداوليَّة بمعناها اللغويّ في عددٍ من الآيات القرآنيَّة الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، أي: إلقاء الأموال إلى الحكّام، ويقال: أدلى فلان بحجّته إذا أقامها، وهو من قولهم: أدليتُ الدَّلو في البئر إذا أرسلتها، ودلوتها إذا أخرجتها، فمعنى قولهم أدلى بحجته: أرسلها، وأتى بها على صحّةٍ، وفي تشبيه الخصومة بإرسال الدَّلو في البئر وجهان أحدهما: إنَّه تعلُّق بسبب الحكم، كتعلُّق الدَّلو بالسَّبب الذي هو الحبل الثَّاني: إنَّه يمضي فيه من غير تثبيت، كمضيّ الدَّلو في الإرسال من غير تثبيتٍ، وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وهو أن لا يكون المال دولة بين الرؤساء وحدَهم أي يتداولونه في ما بينهم دون الفقراء[2]، وقوله تعالى:

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٤.

(٢) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٣٣٣.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، (نُدَاوِلُهَا)، أي: نصرفها بين الناس، نديل تارةً لهؤلاء، وتارةً لهؤلاء[١].

إنّ المتأمل في الآيات المباركات يلمسُ منها أنّ (التَّداولَ) يأتي بمعنى التحوّل وعدم الثبوت، فهي لا تختلف كثيرًا عن المعنى اللغويَّ؛ إذ يفهم منها انتقال الملك، والتَّعاقب والتناوب على أمرٍ ما، إذ تنتقل من المتكلِّم إلى السَّامع في سياقٍ ما، يمكن أن يفهم أو يؤول إلى معانٍ عدّةٍ، فالمعنى غير ثابتٍ ومتحوّلٍ وغير مستقرٍّ بين باثِّه (منتجه) ومتلقّيه (مستقبله).

والحقُّ أنّ الإفادة من المنهج التداوليّ الحديث في تحليل أنواع الخطاب المختلفة تقود إلى الوعي بالذات في ضوء فهم أمثل للتُّراث، ومن هنا فإنَّ الحديث عن علاقة التّداوليات بتحليل الخطاب يتطلّب الإطالة على أصول التداوليّة في الفكر اللسانيّ الحديث[٢].

لقد ارتبط الفكر اللسانيُّ العربيُّ الحديث والمعاصر بهذا التوجُّه الذي اشتهر في الثقافة المعاصرة بـ (البراغماتيّة) في ضوء ثلّة من الأعمال العلميّة تصدّرتْها دراساتُ الفليسوف المغربيّ (طه عبد الرّحمن) ثم تعدَّدت الرُّؤى من شارح للنّظريات التَّداوليَّة، ومن داعٍ إلى استثمارها في دراسة اللغة العربيّة وما ينجز بوساطتها من خطابات تعبّر عن الفكر الحضاريّ العامّ، ومن ساعٍ إلى تأصيل التداول اللغويّ في منظومتنا التُّراثيَّة بلحاظ أسبقيّة المنظّرين العرب إلى إدراك أغراض الخطاب، والوظيفة التّداوليّة للغة في الحياة العامة[٣].

(١) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٣٣٣.
(٢) ينظر: الخطاب الأدبيّ ورهانات التأويل (قراءات نصيّة تداوليّة حجاجيّة): ٦٧.
(٣) ينظر: م. ن: ٦٧.

التمهيد

ويرى د. مُحَمَّد عابد الجابريّ أنّ الخطاب الدينيّ: هو خطابٌ بيانيٌّ هدفه جعل المعنى مفهومًا لدى مطلق النّاس بأستعمال الآليّات اللغويّة البيانيّة المختلفة، فإنّ تكرار ورود عبارتين مثل: حسن الخلق، وسوء الخلق معطوفًا عليها ما يدخل عادة في مفهومها كالورع بالنّسبة للأولى، والبخل بالنّسبة للثانية دليل على أنّ المجال التّداوليّ العربيّ السّابق على ظهور المصطلح العلميّ كان يميز بين الخلق وبين خصال خلقيّة معيّنة مثل الورع، والبخل.

إنَّ الإفادة من المنهج التّداوليّ في سبرِ الخطاب والإحاطة بأغراضه، فضلًا عن ذلك الكشف عن استعمالات الخطاب باستشراف تداوليَّته في البيئة التي انتجتْه، حفز الباحثين على إنجاز هذه الدِّراسة الواصفة التَّحليليَّة التي لا تخلو من أنماط تعليمية حديثة، نخالُ- بسبب قلّة البحوث المنهجية في العربية بخصوص التداولية مقارنة بالجمّ الغفير من الدراسات الغربيّة - أنَّنا معنيّون بالسَّير بخطًى حثيثاتٍ من أجل مقاربة الدَّرس اللسانيِّ التَّداوليِّ الحديثِ[1].

(١) ينظر: العقل الأخلاقيّ العربي: ٣٤.

الفصل الأوَّل

جذور الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحِلِّيّ

الفصل الأوَّل

المبحث الأوَّل

القرآن في الخطاب الأخلاقيّ لابن طاووس

لا يخفى أنّ الخطاب القرآنيّ خطابٌ فصلٌ يسمو على الخطابات جميعها، فهو الناطق الذي لا يعيا لسانه، والناصح الذي لا يَغُشُّ، والهادي الذي لا يُضلُ، والمُحدِّث الذي لا يَكْذِبُ، وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلَّا قام عنه بزيادةٍ أو نقصان، زيادةٍ في هُدَىً، أو نقصانٍ من عمى[1].

وأجملْ بوصفِ الإمام زين العابدين القرآن الكريم في صحيفته السجادية في دعائه عند ختم القُرآن بقوله: «اللّهُمَّ إنَّك أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلتَه نورًا، وجعلته مهيمنًا على كلِّ كتاب أنْزَلْتَه، وفَضَّلْتَه على كلِّ حديثٍ قَصَصته، وفرقانًا فَرَقْتَ به بين حَلالِك وحَرامِك وقرآنًا أعْرَبْتَ به عن شرائع أحكامك، وكتابًا فَصَّلْتَه لعبادك تَفْصِيلًا، ووحيًّا أنزلتَه على نبيك محمَّد صلواتك عليه و آله تنزيلًا»[2]، وقد اعترف أئمة البيان من مشركي مكّة إبّان نزول الوحي بين ظَهرانَيْهم بسمو هذا الخطاب وهيمنته.

تأمّلْ وصفَ الوليد بن المغيرة القرآن: «واللهِ لقد سَمِعْتُ من محمَّدٍ كلامًا ما هو من كلام الإنسِ، ولا من كلام الجِنّ، وإنَّ له لحَلاوةً، وإنَّ عليه لطَلاوةً، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمُغْدِق»[3]، إنَّ هذه السلطة البيانيَّة العالية للنص القُرآني رفعةً و ظهورًا قد

(١) ينظر: نهج البلاغة: ٣٤٥.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٣٩، ١٤٠.

(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٧٠.

أسقطت سلطة العرب البيانيَّة، فقد أعجز القرآن الكريم العرب بمزايا ظهرت لهم في نظمه، فتأمَّلوا هذه النظمَ في كلِّ سورةٍ وآيةٍ، فلم يجدوا فيه كلمةً ينبو بها مكانُها، ولفظة يُنْكَرُ شأنها، أو يرى أنَّ غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحْرى، أو أخْلَق، بل وجدوا اتّساقًا ونسقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور(١).

إنّ التأكيد على المنظومة الأخلاقيَّة القرآنيَّة العظيمة والمتحدة الأجزاء تؤدي إلى التقدم والانفتاح، والتطور الشامل والمتعدد الأبعاد، إنّ مثل هذه الجهود المبذولة بحثًا عن المفاهيم القرآنية الواسعة تكشف الميادين والحقول الخصبة لتحرك إنتاج العلم الدينيّ وفاعليته، إذ يصبح الدين والعلم الديني على إثرها منبعًا زلالًا جاريًا متواصلًا متجددًا باستمرار(٢). وعمد البيانيون بمختلف مرجعياتهم إلى تغلغل النص القرآني في بواطن نتاجاتهم الإبداعيَّة، والفكريَّة ليكون مرجعية تعين المتلقي على تفهم خلفية النصّ المرسَل، كما تعيّن المرسِل على نسج نصّه بصور مستجيبة عند القارئ المسلم(٣).

نخلصُ من هذا إلى أنَّ النص القرآني ذو أثرٍ مستمرٍ وفاعلٍ في النصوص والخطابات والمقولات، والنظريات المتداولة منذ نزوله حتَّى زمننا الحاضر، فهو يُشِّكل حضورًا دلاليًا، ومرتكزًا فاعلًا في مدوناتنا التداولية.

ومهما يكن من أمر فقد كان النص القرآنيّ هو المصدر الأوَّل الذي سدّد خُطى السَّيِّد ابن طاووس وحدَّد سيرته الثقافية، فقد اتصل بالقرآن الكريم منذ صغره، وانكب على حفظه، وتدبّره وفهم دلالاته ومعانيه، لذا فقد أنكَرَ على من قدّم على كلام الله سبحانه كلامًا آخر ولاسّيما ما يتعلق بأصول العربية والاستشهاد لها، ونرى أنّ ابن طاووس – بحسب ما وقفنا عليه من آراء القدماء – هو أوَّل من تنبه إلى أنّ القرآن

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٨.

(٢) ينظر: فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في إنتاج المعرفة الدينية: ٥٧.

(٣) ينظر: تأصيل النص: ١٦٨.

الفصل الأوَّل

الكريم والسنة المحمديّة هما الحكم على قواعد النحو والخطابات الكلاميّة، ولا يمكن جعلها حكمًا على الكتاب والسنة، وهي التفاتة تنمّ على عقليته الجبَّارة، وفهمه الثاقب في فهم العملية اللغويّة وتصوّرها من جهة، وإحاطته بالأسلوب القرآني والأسلوب الحديثيّ من جهة أخرى، قال: «إنّه قد صار ما في أيدي كثير من الذين يدعون العلم، علم اللغة العربية أصلًا وعيارًا عندهم لِما في القرآن والسنة المحمدية ﷺ وهو غلط من ذوي الألباب، فلقد كان الأليقُ بالصواب أنْ يجعلوا كلامَ الله ﷻ، وكلامَ رسوله ﷺ وخاصته ومتقدمي الصحابة من ذوي الطباع العربية المشهور بفصاحته أصلًا وعيارًا لما يرد عليهم من اللغات، ويبطلون ما يخالفه أو يجعلونه وجهًا آخر على وجه التأويلات، وأمّا ما قد بلغ الأمر إليه أنّ كلامَ بدويّ جاهل بما ينطق به وشعره الذي لا حكم له هو الحجة وبه تُعرف المحجة؛ فشيء عجيب لا يرضى به كامل لبيب»[1] ومن هنا فإنّنا يجب أن نُؤثر الاستعمال القرآنيّ والخطاب الإلهيّ بوصفه نظمًا كلاميًّا عاليًا على الاستعمالات كافة؛ لأنّنا كما يقول الدكتور صبحي الصالح:«نجعل القرآن حكمًا على قواعد اللغة والنحو، ولا نجعل تلك القواعد حكمًا على القرآن، فما استمد النحاة قواعدهم إلَّا من القرآن بالدرجة الأولى»[2]، وهذا الفهم لكلام الله ﷻ انعكس على خطابه الأخلاقيّ من جهةٍ وعلى سلوكه وتصرفاته من جهةٍ أخرى.

ومن ذلك حثّه على التزام التأدب مع الله، والابتعاد عن التأويل البعيد في دأب القرآن ونظمه، وفي تعليقه واستشهاده على رأي الفرّاء القائل بأنّ (أو) بمعنى بل في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، يقول ابن طاووس: «هذا تأويل كأنّه شاك في صحة التفسير وفي صحته في العربية فهلّا ذكر له وجهًا أو كان

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٣٤.

(٢) ينظر: مباحث في علوم القرآن: ١٦٣.

ترك الآية بالكلية، ولا يوهم بهذا الشك الطعن على المفسرين وإنّها مخالفة للعربية؛ وهلا قال كما قال جديّ أبو جعفر الطوسيّ في التأدب مع الله في تأويل هذه الآية في معنى أو ثلاثة أقوال: أنْ يكون بمعنى الواو وتقديره إلى مائة ألف وزيادة إليهم، والثاني: أن يكون معنى بل على ما قال ابن عبَّاس، والثالث: أن يكون بمعنى الإيهام على المخاطبين، فإنّه قال أرسلناه إلى القريتين،... فهذه وجوه تصون عن الذي ذكره الفرّاء وإنْ كان يمكن أن يكون أو يزيدون على معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ: ٢٤] فيكون معناه أنّهم يزيدون على مائة ألف أو يزيدون»[1].

ومن استشهاده القرآني أيضًا في خطابه الأخلاقيّ قوله: «وأراد بعض شيوخي أنّني أُدرِّس وأُعلِّم الناس وأفتيهم وأسلك سبيل الرؤساء المتقدمين فوجدت الله ﷻ يقول في القرآن الشريف لجدك محمَّد ﷺ صاحب المقام المنيف ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، فرأيت أنَّ هذا تهديد من ربِّ العالمين، فكرهت وخفت من الدخول في الفتوى، حذرًا من أنْ يكون فيها تقوّل عليه، وطلب رئاسة لا أُريد بها التقرب إليه، فاعتزلت عن أوائل هذا الحال قبل التلبس بما فيها من الأهوال»[2].

ومن استشهاده بالقرآن الكريم فيما يتصل بالأخلاق ما ذكره في وصيته لابنه بأنَّ المعرفة بالله لا تكون إلَّا مِن الله وبالله وأنَّه ﷻ هو الذي هدى للإيمان بمقتضى القرآن، وأنَّه هو صاحب المنة في التعريف وأنَّه لولا فضله ورحمته ما زكى من أحد في التكليف، مُستشهدًا بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠]، ثمَّ يقول أيضًا مُستشهدًا بكلام الله ﷻ: «هل ترى يا ولدي محمَّد أنّه يجوز لمسلم أنْ يطعن بعد هذه الدلالة المشار إليها ويسترها عمَّن هو يحتاج إلى التنبيه

(١) سعد السعود: ٦١٠.

(٢) كشف المحجة في ثمرة المهجة: ١٣٤.

عليها ويعلم من ولد على الفطرة ولا يعرفه المنة عليه في تلك الهداية التي مَنّ الله عليها ثم يتلو ويسمع ويعلم أنّ الله ﷻ يقول لسيِّد المرسلين ﷺ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]»[1].

ومن استشهاده بكلام الله ﷻ في رفد خطابه الأخلاقيّ بعدم إساءة الظن بالله ﷻ ولاسيّما في أداء الفرائض من أجل التجريب سواء ترتّب عليها ثوابًا أم لم يترتّب، قوله: «ثمّ لا تكن في صوم الحاجة وصلاتها كالمجرب الذي بظنِّه هل هذا الصوم والصلاة يكفي في قضائها أم لا فإنّ الإنسانَ ما يجرب إلَّا على مَن يسوء ظنه به وقد عرفت أنَّ الله ﷻ قال: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦] ولكن كن على ثقةٍ كاملةٍ من رحمة الله ﷻ الشاملة ومن كمال جوده وإنجاز وعوده أبلغ ممَّا تكون لو قصدت حاتم الجواد في طلب قيراط منه مع ما تسمعه عنه من الكرم والإرفاد فإنَّك تقطع على التحقيق أنّه يعطيك القيراط لو طلبته لك بكلِّ طريقٍ واعلم أنّ حاجتك عند الله (تعالى) ﷻ أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، أهون وأقل من قيراط عند حاتم الذي وثقت بقصده، فإيّاكَ من ترك الثقة بقصد الله ﷻ ورفده»[2]، وهذا كلامٌ شريف يستقي من نميره الحكماء، فإنّ القدر المشترك بين هؤلاء سوء الظن بالله ﷻ؛ لأنّ المصلّي أو الصائم يقول في نفسه: أجرب هاتين الشعيرتين عسى أنْ أنال رضا الله ﷻ، وكلُّ هذه الأمور ترجع إلى سوء الظن بالله، ولو أحسن الظنّ الإنسانُ بالله يقينًا صادقًا لعلمَ أنّ الله مقدرٌ له عمله.

ومن المقبوسات القرآنية المباركة التي وظّفها ابن طاووس الحِلّيّ في خطابه

(١) كشف المحجة في ثمرة المهجة: ١١.

(٢) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٢٠٧.

الأخلاقيّ الذي كشف فيه عن نفسه الشاكرة الصابرة التي آلت على ذاتها التواضع لله ﷻ وللعباد وفرض عليها ألّا ترتضي شكر العباد على صنيعه من أقوال وأفعال، وما دبّجَهُ ودشَّنه بعلمه الشريف في كتبه الأخلاقيّة الكثيرة والمتنوعة، فالشكر- كما يرى- مسوق إلى الله ﷻ، قال: «فإذا انتفعت بشيءٍ من تلك الأقوال والأعمال فاقتصر على الشكر لله ﷻ وتعظيم ذلك الجلال ولا تشتغل عنه بذكري، ولا شكري فيكون ذلك اشتغالًا منك بالمملوك عن المالك ومخاطرة منك في المسالك، وتعرضًا للمهالك فإنّه ﷻ قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]، وقال: ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾[1]، [النحل: ٥٣]، زد على ذلك معرفته بأحوال النفس الإنسانية (خيورها وشرورها) في ظل الخطابات القرآنية التي كشفت عنها والتي تمكّن ابن طاووس الحلّيّ من تكشيفها واستجلائها، وسنسوق جملة من الخطابات الأخلاقية الطاووسيّة التي كشفت عن نوازع النفس المتلجلجة غير الصبورة والشكورة، منها[2]:

أ. اختار قوم من رعايا الألباب مساعدة جنود الجهل رغبة في عاجل الدار دار الفناء والذهاب، فزالت عنهم لذاتهم وحياتهم وكانت كالسراب قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، وانتهى أمرهم إلى دوام دار العذاب.

ب. إنّ في العباد مَنْ يجحد الحقَّ لعناده، مع علمه بالحجة والبرهان، في قوله ﷻ- زيد كلامه المقدَّس شرفًا وسموًا -: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة: ٥٥.

(٢) ينظر: اليقين: ٨٧، ٨٨.

ج. كشف ﷻ بلفظ كتابه الواضح المبين جحود بعض أهل الذمة ما عرفوه من صدق خاتم النبيين، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

د. كشف الحقّ ﷻ قومًا يؤمنون عمّن عاين العذاب ووعد بالرجوع إلى الصواب، ثم يجحد ما عاين ويكفر بما آمن وهم يوقنون، في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

هـ. وصف الله ﷻ بعضًا من عباده بسبب تبهتهم، وخوفهم يوم يحاسبون في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

وبرهن ابن طاووس إحاطته بالمعرفة القرآنيَّة، والسرّ في ذلك أنَّ منشأ العلم ومناطه هو التجرّد، فلمّا تزداد النفس تجرّدًا تزداد إيمانًا ويقينًا، ولا ريبَ في أنّ مَن لم ترتفع عن نفسه أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصل لها التجرّد الذي هو مناط حقيقة اليقين، فلا بُدّ من المجاهدة العظيمة في التزكية والتحلية حتَّى تنفتح أبواب الهداية وتتضح سبل المعرفة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] [1]، قال ابن طاووس مُبرهنًا إحاطته بالمعرفة القرآنية: «كذلك ما نطق به القرآن الشريف من أنّه مُريد وكاره وسميع وبصير وأنّه يغضب ويرضى ويسخط، وكلُّ صفةٍ ورد بها كتاب الله من كتبه الشريفة أو صحَّ نقلها عن الأنبياء والأوصياء والأولياء العارفين بصفاته المقدَّسة المنيفة فإنّها لا تشبه

(١) ينظر: جامع السعادات: ١/ ٤٧.

صفاتنا ولا صفات المحدثات»[1]، وقد استفهم مستنكرًا حال الذين أصابهم الشكُّ والريبُ بعد التشريف، والتكشيف في كتاب الله ﷻ للمعرفة القرآنية، قال: «فهل بعد هذا التشريف والتكشيف شكّ عند من آمن بالله والقرآن الشريف، إنَّ كشف الدلائل لا يمنع من الضلال الهائل ومن جحود ربِّ العالمين ومخالفة سيِّد المرسلين، ويكفي عند أهل العقل والفضل أنّ الله ﷻ كشف عن المعرفة بمقدس ذاته وصفاته بجميع ما اختص به من مقدوراته وكمال دلالاته»[2].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ ابن طاووس قد نقل من الكتب المقدَّسة، كالتوراة والإنجيل، فقال الطهرانيُّ: «نقل هذه الأناجيل دون ذكر أسماء الإنجيلين وعلّق على منقولاتهم وقد بانَ لي من المقابلة بين هذه النصوص وبين الأناجيل أنّ نحو ثماني صفحات منقولة من (إنجيل متى) بنصوصها مع استثناء قليل مكتفيًّا بالمضمون والمآل، ولم ينقل من إنجيل (لوقا) إلّا نحو سطرين فيها آية بنصها، وباقيها نقل بالمعنى، كما أورد من إنجيل (يوحنا) نحو صفحتين بنصوصها أمّا إنجيل (مرقس)، فإنّه لم يذكر منه شيئًا»[3].

ونقطع جازمين أنّ مصباح الهدى (القرآن الكريم) قد زَهَرَ في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ وارتوى من عذب فراته، ويكفي المتأمل مندوحة أنْ يقف على دعائه المعروف ب(دعاء العبرات)، ليرى الاستثمار والاستشراف، بكتاب الله ﷻ القرآن الكريم، وقد تنوَّعت تقنيات الاقتباسات (أنماط القرآنيّة وأنساقها)[4] في هذا الدعاء

(١) كشف المحجَّة في ثمرة المهجة: ١١.

(٢) اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة أمير المؤمنين، والتحصين لأسرار ما زاد من أخبار اليقين: ١١٩.

(٣) طبقات أعلام الشيعة: ١١٧.

(٤) القرآنيَّة: مصطلح حديث ابتكره الدكتور مشتاق عباس مَعْن، مفرّقًا إيّاه عن الاقتباس، =

المبارك، وسنعرض لها فيما يأتي:

أوَّلًا: القرآنية المباشرة (النصّية)

قال ابن طاووس: «فقلت على لسان سيِّد المرسلين فيما تضمنه القرآن المَصُون وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهَّ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهَّ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ»[1]، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال: «وبالمراحم والمكارم التي أنكرت بها على القانطين فقلت (جلّ جلالك): وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ»[2]، فهو تناص مباشر مع قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال:«وبالمراحم والمكارم التي وصلت إلى إبليس وفرعون، ومَنْ علمت أنّه مصرّ على ما يسخطك عليه إلى أن يحضر في القيامة بين يديك، وبالمراحم والمكارم التي أدركت بها إبليس في الساعة التي بسط بها كفّ سؤاله وقصدك بآماله في حال غضبك عليه وبعده منك، وإعراضك عنه وإعراضه عنك، وقال: اجعلني من المنظرين فوسعته رحمتك يا أرحم الراحمين، وقلت فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ»[3]،إشارة إلى

=والتضمين، والتناص، والتناص القُرْآنيّ، بوصفه أقربَ لقضية التأثير والتأثر في الدرس الأدبي من جهة، وجمالية المصطلح من جهة أخرى، فهو كما يقول: آلية من الآليات التي يتوسل بها المبدع في تشكيل الإبداعية من جهتي الرؤى، والأنساق بنية وإيقاعًا بحسب سياق القرآن الكريم، وهذا ما عمدت له الدراسة؛ لأنَّنا نرى قبول هذا المصطلح، واستعماله بوصفه الأقرب تداوليًا وتقنيّة وملائمة في الدرس القرآني من غيره. ينظر: تأصيل النص قراءة في إيديولوجيا التناص: ١٦٩، ١٧٠ والقرآنية في نهج البلاغة: ١١.

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٧.

(٢) م. ن: ٣٢٨.

(٣) م. ن: ٣٢٨.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[الحجر: ٣٧، ٣٨]، وقال «وَكِلْهم إلى حولهم وقوتهم، وأبرئهم من حولك وقوتك، وخُذْهم بياتًا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون»[١]، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧] وقوله تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأعراف: ٩٨].

ثانيًا: القرآنيَّة غير المباشرة (غير النصيَّة)

من الأنماط القُرآنية التي وظّفها ابن طاووس الحِلّيّ في دعاء العبرات، القرآنيَّة غير المباشرة (غير النصيّة)، منها قوله:«سؤاله وبالمراحم والمكارم التي اقتضت الابتداء بالنوال قبل السؤال وبعد السؤال وعند السؤال وبالمراحم والمكارم التي أنكرت بها الآيسين... وبالمراحم والمكارم التي أخرت بها عقوبة الكافرين والمشركين والمتمردين والمتشردين والمنافقين والفاسقين»[٢].

ولا يخفى أنّ ابن طاووس قد أقسم بالمراحم والمكارم، استشرافًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾ [النساء: ١] وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[يس: ٢٧].

وقال ابن طاووس: «رب يا غوث المستغيثين ويا مجيب دعوة المضطرين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين»[٣] استشرافًا واستيحاءً بقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل: ٦٢]، وقال ابن طاووس:«وتقودهم طوعًا وكرهًا إلى مصلحته ومصلحتنا واجمين

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٣٠.
(٢) م. ن: ٣٢٦، ٣٢٧.
(٣) م. ن: ٣٢٩.

نادمين مغلولين مخذولين مكسورين مقهورين، وعرفنا قدر النعمة علينا بتعجيل إجابتك وتكميل رحمتك، وأوزعنا شكر ذلك بحولك وقوتك يا خير الناصرين ويا صاحب الوعود بإجابة الداعين، ومن مدح نفسه المقدَّسة بصرف السوء عن المظلومين، واحفظ فينا وصيتك ووصية سيّد المرسلين وعترته الطاهرين، واحفظنا بما حفظت به كنز أصحاب الجدار لأجل مَن حفظته به من سلفهم الصالحين، فقد عرضنا حاجتنا على أبوابك بيد بوابك ونحن الضعفاء المترقبون لما أنت أهله من جوابك، وأنت أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، والحمد لله كما أنت أهله يا ربَّ العالمين»[1]، فقد استثمر ابن طاووس قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: ١٩]

ثالثًا: القرآنية المتضمنّة (المعاني والدلالات)

في ظلّ استقراء تراث ابن طاووس وأدبه، ولا سيّما دعاء العبرات نجد نفثات من دلالات القرآن الكريم والمعاني المصطفيات من روح اللهﷻ ظاهرةً على خطابه الأخلاقيّ، رحم الله ابن طاووس لقد كان في خطابه الأخلاقيّ حركة الغوّاص الرائد الذي لا يقف على السطح، ولا يستقر عند القاع، فمعانيه القرآنية تقطر وتفيض، والقرآن الكريم «من جهة الأدب غاية الجمال، ومن جهة الفضيلة غاية الخير، ومن جهة الفلسفة غاية الحق»[2].

قال ابن طاووس معبرًا عن هذا التعالُق والتواشُج بكلام اللهﷻ: «وها أنا ذا أمتثلُ مقدّس مراسمك في التعرض لما وعدتَ من مراحمك واثقًا بشهادة العقول أنّ الكريم الجواد إذا أَذِن في السؤال، ووعد بالقبول، فإنّه ينزّه كماله عن التوقف في المسؤول به، وهو قادر على بلوغ المأمول» [3].

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٣١.

(٢) وحي الرسالة: ٤٤٢.

(٣) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٦، ٣٢٧.

تأمَّل معنا استشرافه لحادثة هداية سحرة فرعون، بوساطة اللطف الإلهي، فشملتهم الهداية الربانيَّة، والعاقبة الإلهية الرحيمية، قال ابن طاووس: «وبالمراحم والمكارم التي ابتدأت بها سحرة فرعون وما عرفوك ولا طلبوك ولا تعرضوا لرحمتك ولا تعرضوا لإجابتك»[1]، استيحاءً من قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]، واستثمارًا واستشرافًا لهداية أهل مكة ممّن شملتهم الرحمة الإلهية، والعناية الربانية في تخلصهم من الكفر والضلال إلى التوحيد والسعادة والهداية والعاقبة الحسنة، قال ابن طاووس: «وبالمراحم والمكارم التي ابتدأت بها أمم الأنبياء وأمة ﷺ وقد كانوا على عظيم من الكفر والطغيان والعصيان واستحقاق العذاب والهوان»[2]، استشرافًا لقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَاۖ وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقد استوحى رمزية الدعاء والاستغفار في إنقاذ أقوام الأنبياء كما في هداية قوم إدريس، ويونس عليهما السلام، قال ابن طاووس: «بسعاداتهم وبالمراحم والمكارم التي أجبت بها قوم إدريس وقوم يونس، ومَنْ كان على نحو سوء أعمالهم وقد غضبت عليهم أنبياؤهم وتوعدوهم بما يستحقونه من نكالهم وأشرفوا على الهلاك وعجزوا عن الاستدراك فرحمت شكواهم وكشفت بلواهم»[3] وهو استيحاء من قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس: ٩٨].

وكذلك رمزيّة اللقاء بين يوسف عليه السلام وأبيه يعقوب عليه السلام بعد اليأس من اللُّقيا، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الدعاء والاستغفار يهدمان القضاء والقدر هَدْما، قال ابن طاووس:

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٧.
(٢) م. ن: ٣٢٧.
(٣) م. ن: ٣٢٧.

«وبالمراحم والمكارم التي جمعت بها شمل يوسف ويعقوب»[1] وهو استشراف لقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وتتعالى هذه الدلالات والمعاني القرآنية، وتشرق في خطابه الأخلاقي، كما هو الحال في قوله: «وبالمراحم والمكارم التي كشفت بها كربات أيوب»[2]، وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

وخلاص يونس عليه السلام من الحوت واليم، قال: «وبالمراحم والمكارم التي خلَّصت بها يونس بن متى من بطن حوته ويمّه»[3]، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وجمع موسى عليه السلام بأمه، قال: «وبالمراحم والمكارم التي جمعت بها شمل موسى بأمه»[4]، استشرافًا بقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ ﴾ [طه: ٤٠]، ونصرت عيسى على قومه، قال:

---

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٧.
(٢) م. ن: ٣٢٨.
(٣) م. ن: ٣٢٨.
(٤) م. ن: ٣٢٨.

«وبالمراحم والمكارم التي نصرت بها عيسى على قومه» [1]، استشهادًا واستشرافًا لقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧].

ويتعالى الاستيحاء القرآني في قوله: (وبالمراحمِ والمكارمِ التي نَصَرْت بها محمَّدًا وعليًّا على أحزاب الكفار، ووقيتهما من الأخطار وجعلتهما عَلَمًا لك إلى دار القرارِ»[2]، استيحاءً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨].

و يتجلَّى الفيض الإلهيّ ويشرق في هذا الدعاء الروحانيّ العرفانيّ، قال «احفظْ فينا وصيتك، ووصية سيّد المرسلين وعترته الطاهرين، واحفظنا بما حفظت به كنز أصحاب الجدار لأجل مَن حفظته به من سلفهم الصالحين فقد عرضنا حاجتنا على أبوابك بيد بوابك ونحن الضعفاء المترقبون لما أنت أهله من جوابك، وأنت أرحم الراحمين» [3].

تبارك الله ﷻ ما أبلغ حكمه، وأجلَّ شأنه تجلَّت معارفه، وفاضت نعماؤه في هذا الدعاء المبارك، فظهرت دلالاته جليّة في هذا القرب الإلهي المتصل، تأمَّل إشاراته إلى الكنز الذي حفظه الله ليتيمين كان أبوهما صالحًا، قال ابن طاووس:«واحفظنا بما حفظت به كنز أصحاب الجدار؛ لأجل مَن حَفِظْتَه به من سلفهم الصالحين» [4]، إشارة إلى قوله ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٨.
(٢) م. ن: ٣٢٨.
(٣) م. ن: ٣٣١.
(٤) م. ن: ٣٣٢.

وقد كان من المنطقيّ في هذا السياق أنْ تصور القرآن الكريم في الأطروحات العقائدية العنيفة التي شغلت الناس آنذاك، فالإسلام في ضوء النصّ الديني كان يقدّم نفسه بوصفه الحقّ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ وذلك لأنّه بإيجاز شديد هو اليقين الموحى به من ربِّ العالمين، لا الاجتهاد الذي أدى إليه فكرُ المتفكرين، وقد قدّم القرآن بوصفه لاهوتًا عربيًا حقيقيًا، أو هو التجلي الأخير لهذا اللاهوت حلولًا مجوّدة لكلِّ ما كان اليهود والنصارى يختلفون فيه من مشكلات عقائدية، وقد قدَّم القرآن حلولًا بأنْ أرسى بناء التصورات الأساسيَّة للألوهية والنبوة، وهو ما ورد في آي القرآن الكريم على نحو قصصيّ آسر في بلاغته[1].

فليت شعري أكان في حدود الإمكان أنْ يرتطم المسلمون بالهون، ويرضوا بالدون لو أنّهم اتخذوا من أحكام ربِّهم منهاجًا، ومن كلام رسولهم علاجًا، ومن حياة أئمة الهدى والرشاد من أهل البيت عليهم السلام، والسابقين الأولين من رجالهم قوة وقدرة[2].

ومن هنا فإنّ ابن طاووس الحليّ في ظل ذوبانه في كتاب الله عزّ وجلّ حفظًا وتدبرًا وفهمًا قد وعى وصف القرآن لما قدّمه من سير الأنبياء بأنّه (أحسن القصص) مستعملًا في ذلك (أفعل التفضيل)، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وفي ذلك إشارة لازمة بحسب (مفهوم الموافقة) أي قصص أخرى أقل حسنًا، وأضعف بيانًا.

وقبل أن نغادر هذا المطلب، يخطر لنا أمرٌ حول رؤية ابن طاووس الحِلِّيّ للنص القرآنيّ بوصفه مصونًا من الزيادة والنقصان كما يقتضيه العقل والشرع[3].

---

(١) اللاهوت الدينيّ وأصول العنف الديني: ١٣٩، ١٤٠.

(٢) ينظر: وحي الرسالة فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع: ١/ ١٣٦.

(٣) ينظر: سعد السعود: ٤٦٧.

فقد برهن بالأدلة القاطعة النقليَّة والعقليَّة أنّ القُرآن مصون من التحريف، والزيادة والنقصان، وما قيل: إنّ الرافضة تدّعي نقصان القرآن وتبديله وتغييره هو محض افتراء، وسوء فَهْم يُرَدُّ على المدّعين، وقد ردّ على الجُبَّائي في مقالة برهانية طاووسيّة قَلَّما يجود الزمان بمثلها في ردّ الشبهة التي حكيت على أتباع أهل البيت عليهم السلام وقد اتّخذها بعض المؤلفين مثلبة عليهم، على الرغم من أنّ أعلام الشيعة أنكروها بجدٍّ وإخلاص قرنًا بعد قرنٍ [1].

وقد ذكر ابن طاووس الحِلِّيّ أكثر من سبعة وجوه في ردِّ هذه الفرية ذكرها في تفسيره (سعد السعود) [2].

ويؤيد قول ابن طاووس الحلّيّ بتماميّة القرآن، وعدم وقوع االتحريف فيه زيادة ونقصًا، نقده اللاذع، وعتبه القادح على أبي عليّ الجبائي في أنّه أزاد في تفسيره ما لا يدلّ اللفظ عليه، ولا المعنى عليه، فما بالك في الزيادة وغيرها في الآيات الكريمات، قال الجُبّائي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، «فإنّما عنيّ به أنْ مُرْ أهل دينك، وأهل بيتك بالصلاة التي تعبَّدكم الله بها واصطبر على أدائها والقيام بها»[3]، قال ابن طاووس رادًّا عليه: «ألَا تعجب من رجل مسلمٍ يُصنِّفُ كتابًا يعرفُ أنّه يقف عليه مَنْ يطّلع عليه على مرور الأوقات يعمّه مثل هذه التعصبات، والمحالات بالله تعالى، هَلْ تَرَى في الآية وأمر أهل دينك في ظاهرها، أو معناها، أو حَوْلها أو ما يجدُ هذا تعصبًا قبيحًا لا يليق بذوي الألباب المصدّقين بيوم الحساب؟، أتراه لو اقتصر على أنّه يأمر أهله عليهم السلام بالصلاة أُسوةً بسائر مَنْ

(١) ينظر: النص الخالد لَمْ و لنْ يَحُرّف أبدا: ١٣.

(٢) ينظر: سعد السعود: ٢٩١ – ٢٩٣.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن: ٧/ ٣٧.

بعث إليه، ما الذي كان ينخرم؟، وينفذ على الجبائي حتَّى يَبْلُغَ به الحال إلى أن يزيد في القُرآن ما لا يدلُّ اللفظ ولا المعنى عليه»[1].

و لا يخفى أنَّ ابن طاووس بلحاظ ما سقناه من قبل من أشدّ المدافعين عن سلامة كتاب اللهﷻ من التحريف والتبديل وإنَّ فرية التحريف جاءت من غير الإماميّة.

(١) سعد السعود: ٤٢٠.

الفصل الأوَّل

المبحث الثاني

أقوال الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام

أسّس الرسول صلى الله عليه وآله مدينة فاضلة قادها بحكمة وإرادة، شهد له الكتاب المنزّل أنّه كان ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ودعا أصحابه وأتباعه ومريديه إلى أنْ يتخذوا من سيرته أسوة حسنة، فكان القانون والأخلاق سيّان في هذه المدينة ولنقل توأمين، فبدأت الدعوة المباركة تؤتي ثمارها، فتحوّلت من مجتمع اللادولة إلى مجتمع الدولة [1].

وهذا ما فطن إليه الشيخ محمَّد مهدي النراقيّ من قبلُ، قال: «وقد كان السلف من الحكماء يبالغون في نشرها وتدوينها، وجمعها وتبيينها، على ما أدت إليه قوة أنظارهم، وأدركوه بقرائحهم وأفكارهم، ولما جاءت الشريعة النبويَّة - على صادعها ألف صلاة وتحية - حثّت على تحسين الأخلاق وتهذيبها، وبيّنت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل في جنبها ما قرَّره أساطين الحكمة والعرفان، وغيرهم من أهل الملل والأديان» [2].

وقد حصل انقلاب في القيم، ولنضرب مثالًا على ذلك بعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وآله فلم تمضِ إلّا عشرون سنة بعد وفاته صلى الله عليه وآله حتَّى فاضت الدنيا بتراكم الثروات والعطاءات في أيدي فئة قليلة من رجال قريش خاصة، فحصل انقلاب في السلوك والمظاهر في العمران والمساكن والملابس والمأكل، ومن هنا وجدنا الحكومة العلوية المثالية بإمامها علي بن أبي طالب عليه السلام تؤسس منهجًا اجتماعيًا ثوريًا إصلاحيًا قلّما نجد مثله في تاريخنا، فقد ضَعْضَعَ الإمام علي عليه السلام قانونية الاحتكار المالي العام عند كبار الصحابة، وجثم

(١) العقل الأخلاقي العربي: ٦١.

(٢) جامع السعادات: ٣١.

على صدور الأغنياء المترفين منهم مطبقًا عليهم القانون العلوي الاجتماعي الإسلاميّ العظيم (من أين لك هذا؟) تطبيقًا عمليًا لا هوادة فيه ولا فتور ولا تراخٍ، قائلًا: «واللهِ لو وَجَدْتُه قد تُزُوّجَ به النساء، وملك به الإماء لرددته فإنَّ في العدل سَعَة، ومَنْ ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق»[1].

اغترف ابن طاووس من نمير معين تراث أهل البيت عليهم السلام إذ أفاد من مروياتهم في خطابه الأخلاقي، لانَّهم يمثلون معدن الحكمة، ومعقل الإيمان ومكنز العطاء، وقد اتخذهم قدوةً له، فـ«الأئمة كانوا يحرصون بكلّ ما يملكون من قوة وبيان على أنْ يجعلوا من أصحابهم وشيعتهم، ومَن يتصل بهم دعاة حق وخير يمثلون الإسلام، ويجسّدون تعاليمه بأفعالهم قبل أقوالهم، كما كانوا يحرصون على تنزيه الإسلام من التشويه والافتراء»[2].

قال ابن طاووس في بيان قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢] «ومن أعجب تأويلات البلخي تجويزه أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وآله ذنوبًا في الجاهلية، وأفضل مقامات نبوّته في أيام الجاهلية لمجاهدته مع وحدته وانفراده بنفسه ومهجته في الدعوة إلى تعظيم الجلالة الإلهية وقيامه بأمر يعجز عنه غيره من أهل القوة البشرية؛ لأنّ كلَّ مَن يطلب مغالبة الخلائق من المغارب والمشارق يقتضي العقل وأن لا يظهر ذلك من يكاتب ويراسل... أعوانًا وأنصارًا...»[3]، فقال ابن طاووس رادًّا عليه: «وأما لفظ (ما تقدم من الذنب وما تأخر) فالذي نقلناه من طريق أهل بيت النبوّة أنّ المراد منه ليغفر لك ما تقدّم من ذنبك، وما تأخر عند أهل مكة وقريش... ودار الثواب»[4].

(١) نهج البلاغة: ٧٦٩.
(٢) موسوعة المصطفى والعترة عليهم السلام: ١٤/ ٢٦٦.
(٣) سعد السعود: ٤٩٠، ٤٩١.
(٤) م. ن: ٤٩٢، ٤٩٣.

الفصل الأوَّل

ولا يخفى أنّ ابن طاووس قد شغّل تقنية السياق الروائي عن أهل البيت عليهم السلام التي تنطوي على سرد وظيفي من أجل تكشيف عصمة النبي صلى الله عليه وآله من الذنوب والمعاصي ليس قبل البعثة وبعدها، بَلْ في عالم الخلق والإيجاد أيضًا، فانطواء النبي الأعظم صلى الله عليه وآله على جماع القيم الأخلاقية والمعالم التربوية جعلته أن يكون مصداقًا عظيمًا من مصاديق الاصطفاء الإلهي والاختيار الرباني.

ومن الحقيق ذكره أنَّ ابن طاووس قد شغّل تقنية السياق؛ لأنّه يرى أنّها أوضح وأحوط في العقل والنقل، فضلًا عن كونها ذات أثر في فهم النص القرآني والكشف عن دلالاته، وقد صرّح بهذا الفهم العميق في تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١ - ٣] قال ابن طاووس: «كان ينبغي أن يرجع إلى القرآن الشريف في تسمية النبأ العظيم، وقد قال الله تعالى جل جلاله: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨] ولعلّ مفهوم هذه الآية أن يكون النبأ العظيم حديث محمَّد صلى الله عليه وآله أخبر به صلى الله عليه وآله سؤال الملأ الأعلى؛ لأنّ تفسير بعضه ببعض أوضح وأحوط في العقل والنقل»[1].

ويبدو أنَّ المضامين العاليات، والحقائق الباهرات التي اضطمّ عليها دعاء الزيارة الجامعة لأئمة أهل البيت عليهم السلام المروي عن الإمام علي الهادي عليه السلام قد وعاها، واستلهمها، وجعلها نصب عينيه، وفي ما يأتي فقرات من هذه الزيارة: «**اَلسَّلامُ عَلَيْكُمْ يا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَوْضِعَ الرِّسالَةِ، وَمُخْتَلَفَ الْمَلائِكَةِ، وَمَهْبِطَ الْوَحْيِ، وَمَعْدِنَ الرَّحْمَةِ، وَخُزّانَ الْعِلْمِ، وَمُنْتَهَى الْحِلْمِ، وَأُصُولَ الْكَرَمِ**»[2]، وقال في موضع آخر «**وَاَشهدُ اَنَّكمُ الْائِمَّةُ الرّاشدونَ الْـمَهْديُّونَ الْمَعصُومونَ الْمُكَرَّمُونَ الْمُقَرَّبُونَ الْمُتَّقُونَ الصّادِقُونَ الْمُصْطَفَوْنَ الْمُطيعُونَ للهِ، الْقَوّامُونَ بِأَمْرِهِ، الْعامِلُونَ بِإِرادَتِهِ، الْفائِزُونَ بِكَرامَتِهِ، اصْطَفاكُمْ بِعِلْمِهِ، وَارْتَضاكُمْ**

(١) سعد السعود: ٤٩٤، ٤٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ٩٩/ ١٢٩.

لِغَيْبِهِ، وَاخْتارَكُمْ لِسِرِّهِ، وَاجْتَباكُمْ بِقُدْرَتِهِ، وَأَعَزَّكُمْ بِهُداهُ، وَخَصَّكُمْ بِبُرْهانِهِ، وَانْتَجَبَكُمْ لِنُورِهِ، وَطَهَّرَكُمْ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَكُمْ تَطْهِيرًا، فَعَظَّمْتُمْ جَلالَهُ، وَأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ، وَمَجَّدْتُمْ كَرَمَهُ، وَأَدَمْتُمْ ذِكْرَهُ، وَوَكَّدْتُمْ ميثاقَهُ، وَأَحْكَمْتُمْ عَقْدَ طاعَتِهِ، وَنَصَحْتُمْ لَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ، وَدَعَوْتُمْ إِلى سَبيلِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَبَذَلْتُمْ اَنْفُسَكُمْ فى مَرْضاتِهِ، وَصَبَرْتُمْ عَلى ما أَصابَكُمْ فى جَنْبِهِ، وَأَقَمْتُمُ الصَّلاةَ، وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ، وَأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ»[1].

وصرّح ابن طاووس أنّ علوم أئمة أهل البيت صلوات الله عليهم كانت آية لله ﷻ فيهم، ومعجزة دالة على إمامتهم؛ لأنّهم لم يُعرف لهم أستاذ يتردّدون إليه ولا يشتغلون عليه، ولا رآهم شيعتهم ولا أعداؤهم أنّهم يقرؤن تلك العلوم على آبائهم على عادة المتعلمين، ولا على صفات المدرسين، ولا عُرف لهم كتاب مُصنَّف اشتغلوا فيه، ولا تأليفًا دروا حفظ معانيه ولم يعرف عنهم إلّا إذا مات الحيّ منهم، قام الباقي بعده من ولده الذي أوصى إليه بالإمامة مقامه في علمه وكلّما يحتاج إليه من الخصائص والكرامة[2]، ويرى أنّ الله ﷻ تولّى بلطفه وعطفه تهذيب اختيار أهل البيت عليهم السلام فهم القدوة في الأقوال والأفعال، والكاشفون عن مراد الله ﷻ، قال في مقدمة فلاح السائل ونجاح المسائل: «إنّ اختيارات العباد غير المعصومين لا تقوم بها الحجة البالغة عليهم لسلطان العالمين وإنّها لا تكفيهم في أمور الدنيا وحفظ الدين، وأنّه لابُدّ من رئيس يتولّى الله ﷻ بلطفه وعطفه تهذيب اختياره وتأديب أسراره وتكميل صفاته ويكون هو ﷻ من وراء حركات ذلك المعصوم وسكناته يمدها بالعنايات الباطنة والظاهرة ويرعاها بالهدايا المتناظرة كما كان من وراء تدبير الأنبياء والمرسلين ومن وراء تدبير من جعله رسولًا من الملائكة والمقربين، وهذا واضح لا يخفى على ذوي الألباب ويكون ذلك

(١) بحار الأنوار، العلّامة المجلسي: ٩٩/ ١٢٩.

(٢) ينظر: كشف المحجة لثمرة المهجة: ٩٠.

المعصوم هو الحجة لسلطان يوم الحساب»[1]، فهم الراسخون في العلم، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أين الذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا كذبًا وبغيًا علينا أنْ رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم، بنا يُسْتَعْطى الهُدَى وبنا يُسْتَجْلى العَمَى**»[2] ولمّا رأى عليه السلام أنّ القلوب لا تستوعب علمه، والعقول لاتفقه كنه معرفته، قال قولته المشهورة الخالدة: «**أيها الناس سَلُوني قبل أن تفقدوني، أسألوني عن طرق السماء، فإنِّي أعرف بها من طرق الأرض**»[3]، ويرى الشيخ محمَّد السند أنّ هنالك أمومتين، أمومة الله عزّ وجلّ، وأمومة الراسخين في العلم الذين هم النبيّ صلى الله عليه وآله، والعترة الطاهرة إذ بيّن القرآن الكريم أنّ قطب القرآن والمحور المركزي الذي يستدير عليه مُحكم الكتاب هي ولاية أهل البيت عليهم السلام وأمومتهم»[4].

وفي ظلِّ استشراف سيرة أفعال الرسول صلى الله عليه وآله، وأقوالهم نرى أنّهم قد وضعوا لنا منهاجًا متكاملًا لبناء الإنسان وإعداده بصورة صحيحة سليمة، ومن ثمّ إعداد أرقى مؤسسة إنسانيّة وهي بناء الأسرة ثمّ المجتمع البشري السليم، وأنّ هذا المنهاج أو البرنامج ليس بصعب المنال أو صعب التطبيق، فكلُّ ما نحتاجه - نحن البشر - في بادىء الأمر، هو ترويض النفس الأمّارة بالسوء، ومن ثمّ الإبحار في بحر الأخلاق والفضائل الحسنة رويدًا رويدًا حتَّى نتكامل ونصل إلى مرحلة الرقّي والنمُّو، وننهض بواقعنا الصحيح، ونستحقّ قول الله عزّ وجلّ: (خير أمّة)، ولا نكون كالأمم السابقة التي فقدت روحها عندما فقدت التعاليم الأخلاقيّة، فأخزاها الله تعالى، وألبسها العار[5].

---

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٤٢.

(٢) نهج البلاغة: ٢/ ١٩٢.

(٣) م. ن: ٢/ ٢٦١.

(٤) تفسير أمومة الولاية والمحكمات للقرآن الكريم: ٣٦.

(٥) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام): ١٢، ١٣.

وقد كشف ابن طاووس[1] أنّ أهل البيت عليهم السلام قد اختاروا نصرة العقل وجنوده بخِلَع سُعوده، واستبصروا به عند ظُلَم الجهالة، وتحصنوا به من الضلالة، ورأوا في مرآته ما احتمله حالهم من معرفة مالك الجلالة، ومسالك صاحب الرسالة، فظفروا بالسعادة والمكانة فيما كان ويكون، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، قال ابن طاووس: «يحتمل أنْ يقال: إنّ المكلّفين لما كانوا حاملين لأثقال الأوزار حاملين لأثقال الحساب وحاملين لأثقال التكليف جاز أنْ يسموا أثقالًا للأرض فإنَّ في الحديث أنّ الأرض تثقل العصاة لله تعالى مجازًا؛ لأنّها محمولة بالله، والله الحامل لها ولهم، وهو يبغضهم ويمقتهم وكلُّ ممقوتٍ ثقيلٌ»[2].

ومن اقتباساته من كلام الأئمة المعصومين عليهم السلام، ما جاء في دعائه المعروف بدعاء العبرات: «**وأن تنصرنا على كلّ مَنْ يؤذينا، أو يمكن أن يؤذينا نصرًا أنت أهله، وأن تذلَّم لنا ذُلًا هم أهله، وأن تُدِيْلَنا منهم إدالة أنت أهلها، وأنْ تزيحهم بانتصارنا عليهم من الآثام التي فضحهم عندك جهلها، وذُلّها وتريحنا أن يشغلونا عن الاشتغال بمراقبتك التي جهلوا أمرها وصغروا قدرها، وأنْ تلمح أهل الإساءة إلى مَن يريد ذكره قبل ذكرنا وتعظيم قدره على قدرنا، وأهل الإساءة إلينا والبغاة عليه وعلينا، وذوي التحيل في ضرره وضررنا، والتوصّل في كدره وكدرنا، لمحة في هذه الساعة ترفع بها حلمك عنهم وتعجل النقمة منهم وتستأصل شافتهم، وتقطع مدتهم وتسرع نكبتهم، ومصيبتهم، وأذن في هذه اللحظة في قطع أعمارهم وخراب ديارهم وتغفية آثارهم وتعجيل بوارهم ودمارهم وأخذهم بالمثلات والنكبات والآفات والعاهات والمصيبات الهائلات الذاهلات**

(١) اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة أمير المؤمنين: ٨٦.

(٢) سعد السعود: ٢٥٨.

القاتلات المستأصلات المحيطات بهم من سائر الجهات، حتَّى تجعل تعجيل دمارهم وقطع أعمارهم وخيبة آمالهم وهدم آجالهم عظة للمتعظين وعبرة للمعتبرين وآية باقية على الشهور والسنين وعجَّل سلبهم»[1]، وفي ذلك إشارة إلى دعاء الإمام السجاد عليه السلام المشهور بـ(دعاء الثغور): «**اللّهم افْلُل بذلك عدوهم، واقْلِم عنهم أظفارهم، و فرّق بينهم و بين أسلحتهم، واخْلَعْ وثائق أفئدتهم، وباعِدْ بينهم و بين أزودتهم، وحَيرّهم في سُبُلهم، وضَلّلِهم عن وجههم، واقْطَع عنهم المدد، وانْقُصْ منهم العَدَد، وامْلأ أفئدتهم الرُّعبَ، واقْبضْ أيديهم عن البسط، واخْزِم ألسنتهم عن النطق، وشرِّد بهم من خلفهم، ونَكّلْ بهم من ورائهم، واقْطَع بخزيهم أطماع من بعدهم، اللّهم عَقّمْ أرحام نسائِهم، ويَبِّسْ أصلاب رجالهم، واقْطَعْ نَسْلَ دوابهم وأنعامهم، لا تَأْذَن لسمائهم في قطر، ولا لأرضهم في نبات**»[2].

(١) مهج الدعوات: ٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) الصحيفة السجادية: ١٠٣، ١٠٤.

الفصل الأوَّل

المبحث الثالث

أقوال العلماء الذين سبقوه

أوَّلًا: الشيخ الطوسيّ (ت ٤٦٠هـ)

أفاد ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ من الشيخ الطوسيّ، فكان كثيرًا ما ينقل عنه مستعملًا لفظة (جدّي) احترامًا وتبجيلًا، فاستمد منه كثيرًا من النصوص في أغلب كتبه، ولاسيّما في كتبه: (سعد السعود، وكشف المحجّة، والإقبال بالأعمال، وفلاح السائل، وجمال الاسبوع، ومهج الدعوات، والدروع الواقيّة)، قال ابن طاووس: «لما رأيت فوائد الخلوة والمناجاة وما فيها من مراده لعبده من العز والجاه والظفر بالنجاة والسعادات في الحياة وبعد الوفاة وجدت في المصباح الكبير الذي صنَّفه جدي لبعض أمهاتي أبو جعفر محمَّد بن الحسن الطوسيّ رحمه الله شيئًا عظيمًا من الخير الكثير»[1].

ولمّا كان الدعاء والمناجاة تشغل حيزًا وسيعًا في تراث ابن طاووس نجد إشارات كثيرات وإحالات واسعات لأبي جعفر الطوسيّ، جاء في مقدمة تحقيق (الدروع الواقية) لـ(ابن طاووس): «وهذا الكتاب الذي ضمَّنه مؤلَّفه رحمه الله بجملة واسعة من الآداب الإسلاميَّة المختلفة، والأدعية والأحراز المختصة بأيام الشهر مرتبة ضمن جملة من الفصول المختصة، أراد منه أنْ يكون من تتمات كتاب (مصباح المتهجد) لشيخ الطائفة الطوسيّ رحمه الله الواقع في عشرة أجزاء حيث أسماها رحمه الله بـ(المهمات والتتمات)، والتي منها: كتاب (الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يتعلق مرة بالسنة) المختص بأعمال السنة،

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٤٦.

كتاب (الدروع الواقية) في أعمال الشهر، وكتاب (جمال الاسبوع) في أعمال أيام الاسبوع، وكتاب (فلاح السائل) في أعمال اليوم والليلة»[1]، ونصّ على أنّه قد أُلهِمَ بفضل الله ﷻ تأليف كتاب (فلاح السائل ونجاح المسائل) في عمل اليوم والليلة من كتاب (مهمات في صلاح المتعبد وتتمات المصباح المتهجد) للشيخ الطوسيّ[2].

ونرصد أنّ ابن طاووس قد ضمَّن كتابه عبادات السُنّة المطهرة، فضلًا عن ذلك أضاف اليها الأدعيّة المختارة، مستلهمًا ذلك من كتاب (مِصباح المتهجد) الذي جاء فيه «سألتم أيّدكم الله أنْ أجمع عبادات السَّنَة، ما يتكرّر منها، وما لا يتكرّر، وأضيف إليها الأدعية المختارة عند كلّ عبادة على وجه الاختصار، دون التطويل والإسهاب (...)، فإنَّ كثيرًا من أصحابنا ينشط للعمل دون التفقه وبلوغ الغاية فيه، وفيهم من يقصد التفقه، وفيهم من يجمع بين الأمرين، فيكون لكلِّ طائفةٍ منهم شيء يعتمدونه ويرجعون إليه وينالون بغيتهم منه، وأنا مجيبكم إلى ذلك مستعينًا بالله ومتوكلًا عليه، بعد أن أذكر فصلًا يتضمن ذكر العبادات وكيفية أقسامها وبيان ما يتكرَّر منها وما لا يتكرَّر وما يقف منها على شرط، وما لا يقف، ليعلم الغرض بالكتاب، والله الموفق للصواب»[3].

وقد تنوَّعت إشارات ابن طاووس الحِلّيّ في خطابه الأخلاقيّ إلى الشيخ الطوسيّ، وسنذكر بعضًا منها:

أ. الرواية عنه بطرائق عدّة، قال: «ثم رويتُ بعدة طرق عن جدي أبي جعفر الطوسيّ كلّ ما رواه محمَّد بن يعقوب الكلينيّ، وكلُّ ما رواه أبو جعفر محمَّد بن بابويه، وكلُّ ما رواه السعيد المفيد محمَّد بن محمَّد النعمان، وكلُّ ما رواه السَّيِّد المعظّم المرتضى

(١) الدروع الواقية مقدمة التحقيق: ١١، ١٢.
(٢) ينظر: الدروع الواقية: ٣٣.
(٣) مصباح المتهجد: ٢٠.

وغيرهم ممّن تضمّن الفهرست وكتاب أسماء الرجال وغيرهما رواية جدي أبي جعفر الطوسي عنهم رضوان الله ﷻ عليهم وضاعف إحسانه إليهم»[1].

ب. الرواية عنه بالإسناد تصريحًا، «بإسنادي إلى جدي السعيد أبي جعفر الطوسي رضوان الله عليه، قال: روي عن الصادق ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ دهمه أمر من سلطان، أو مَنْ عدو حاسد فليصم يوم الأربعاء والخميس والجمعة... وليقل في دعائه: (أي ربّاه، أيْ سيِّداه... يا حيُّ يا قيومُ، يا حيًّا لا يموتُ، لاحيَّ لا إله إلا أنت، بمحَّمدٍ يا اللهُ، بعليّ يا اللهُ...**»، وكذلك قوله: «فمن ذلك ما أرويه بإسنادي إلى جدّي أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ... عن مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال: **مَنْ اختلف إلى المسجد، أصاب إحدى الثمان: أخًا مستفادًا في الله، أو علمًا مستطرفًا، أو آيةً محكمةً، أو سمع كلمةً تدلّه على الهدى، أو رحمة منتظرة، أو كلمةً تردّه عن رَدَى، أو يترك ذنبًا خشيةً أو حياءً**»[2]، ومنه روايته عن الشيخ الطوسّي في فضل الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة «فمن الدعاء في الساعة التي يستجاب فيها، الدعاء ما أرويه بإسنادي إلى جدّي أبي جعفر الطوسي قال: «يروى عن النبي ﷺ **في الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة يقول: سبحانَك لا إله إلّا أنت يا حنّانُ يا منّانُ يا بديعَ السماواتِ والأرض يا ذا الجلال والاكرام، ثم يدعو بما يليق بالتوفيق**»[3].

ج. النقل عنه مباشرةً من دون ذكر إسناد أو إشارة إلى لفظة طرق، قال: «قال جدي السعيد أبو جعفر الطوسيّ رضوان الله عليه ويستحب أنْ يدعو لإخوانه المؤمنين في سجوده، ويقول أيضًا: اللّهمّ ربَّ الفجر والليالِيَ العشر، والشفع والوتر والليل إذا يسر وربّ كلّ شيء وإله كلّ شيء، و خالق كلّ شيء ومليك كلَّ شيء صَلِّ على محمَّد وآله،

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٥٣.

(٢) م. ن: ١٨١، وينظر: كشف المحجة لثمرة المهجة: ٨٣، ٨٤.

(٣) جمال الاسبوع بكمال العمل المشروع: ٢١٧.

وافْعلْ بي وبفلان ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله فإنّك أهل التقوى وأهل المغفرة ثم ارفع رأسك وقل: اللهمَّ اعطِ محمَّدًا وآل محمَّدٍ السعادة في الرشد وإيمان اليسر وفضيلة في النعم وهناءة في العلم حتَّى تشرفهم على كلِّ شريفٍ، الحمدُ لله ولي كلّ نعمةٍ وصاحب كلِّ حسنةٍ ومنتهى كلّ رغبةٍ لم يخذلني عند شديدة، ولم يفضحني بسريرة، فلسيِّدي الحمد كثيرًا»[1]، ومن النقل مباشرة، ما ذكره من فضل صلاة ركعتين بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، قال: «وهذه الصلاة ذكرها جدي أبو جعفر الطوسيّ رضوان الله عليه في عمل يوم الجمعة في المصباح الكبير، ولم يذكر إسنادها على عادته في الاختصار أو لغير ذلك من الأعذار إلّا أنَّه ذكر في الركعة الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي وقل أعوذ بربّ الفلق خمسًا وعشرين مرة، ولعلَّه أقرب إلى الصواب وذكر باقي الرواية كما ذكرناه في الصفة والثواب»[2].

د. الرواية عنه بالنقل، جاء في فضل هدية الصلاة، وتفصيل إهدائها في كلِّ يومٍ من أيّام الأسبوع: «أخبرنا الشيخ عربي بن مسافر العبادي، عن محمَّد بن أبي القاسم الطبريّ، عن الشيخ المفيد أبي علي، عن والده جدي السعيد أبي جعفر الطوسي، قال: حدثني السعيد أبو جعفر الطوسيّ في مصباحه الكبير هذا لفظه: صلاة الهدية ثماني ركعات، روى عنهم عليهم السلام أنّه يصلي العبد في يوم الجمعة ثماني ركعات: أربعًا تُهْدى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأربعًا تهُدى إلى فاطمة عليها السلام»[3].

هـ. دعوته إلى الإفادة من كتب الشيخ الطوسيّ، قال حاضًا حاثًا ولده محمّدًا بلزوم الرجوع إلى كتبه، قال موصيًا إيّاه: «إذا أردت الاشتغال بالفقه، فعليك بكتب جدك (أبي جعفر الطوسي) فإنّه رحمه الله ما قصّر فيما هداه الله جل جلاله إليه ودلَّه عليه وقد هيأ الله جل جلاله لك

(١) فلاح السائل: ١٨٨.
(٢) م. ن: ٢٧٥.
(٣) جمال الاسبوع بكمال العمل المشروع: ٢٧٥.

على يدي كتبًا كثيرة في كلِّ فنٍ من الفنون الذي رجوت أن تدلك بل على ما يقرّبك من مولاك ومالك دنياك وأخراك»[1].

والجدير بالذكر أنّ ابن طاووس قد أفاد في خطابه الأخلاقيّ من الشيخ الطوسيّ إفادةً كبيرةً ولاسيّما من كتابه النافع (مِصْباح المتهجد) الذي يعدّ من أوائل كتب الأدعية والمناجاة والعبادات والأعمال، فهو يمثل الفتح الحقيقيّ للتأليف في اتجاهّ الدعاء والمناجاة في الأخلاق الإسلاميّة إذا ما استستثنينا أدعيّة المصطفى ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ومناجاتهم.

ونقدح أنّه على الرغم من اهتمامه بكتاب (مصباح المتهجد) للشيخ أبي جعفر الطوسيّ، إلّا أنّه يرى أن الناس قد انكبوا عليه وأفادوا منه، إلّا أنّهم يرغبون بالزيادة، والتفصيل في ذكر الأدعيّة والمناجاة، ومن هنا جاء كتاب الإقبال بالإعمال ليكون جديدًا في هذا المضمار، قال في آخر كتاب الإقبال بالأعمال «إنَّ في أيدي الناس المصباح وغيره من المصنَّفات ما ليس عندهم نشاطًا للرغبة إليه فأيّ حاجةٍ كانت إلى زيادة عليه: إنّ الذي أودعناه كتابنا هذا ما هو مجرد زيارات وعبادات، ولا كان المقصود جمع صلوات ودعوات، وإنّما ضمَّناه ما لم يعرف فيما وقفنا عليه المخالف والمؤالف مثل الذي هدانا الله جل جلاله بتصنيفه إليه، من كيفية معاملات الله جل جلاله بالإخلاص في عبادته ومن عيوب الأعمال التي تفسد العمل وتخرجه من طاعة الله جل جلاله إلى معصيته – إلى أن قال: – مع أنّ الذي عملنا هذا العمل لأجله قد كان سلفنا أُجرة أكثر من استحقاقنا على فعله، وأعطانا في الحال الحاضرة ما لم تبلغ آمالنا إلى مثله ووعدنا وعد الصدق بما لا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين من فضله، فقد استوفينا أضعاف أجرة ما صنفناه ووضعناه، ومهما حصل بعد ذلك إذا عمل عامل بمقتضاه ورغب فيما رغبناه فهو مكسب على ما وهبناه»[2].

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٢٧.

(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١٩.

ومحصل القول: إنّ السيِّد رضيّ الدين كانت له أسرارُه الخاصة به من أجل تأليف كتاب (التتمات) وجمعها من تلك الكتب حق عظيم على جميع المسلمين، ولاسيّما الإماميّة، وكلُّ مَن ألف بعده كتابًا في الدعاء فهو عيال عليه، مغترف في حياضه، متغذٍ من موائده [1].

ثانيًا: الشيخ ورّام

أبو الحسين ورّام بن أبيّ فراس ورّام بن حمدان النخعيّ الأشتريّ الحِلّيّ من أولاد مالك الأشتر النخعيّ صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[2]، قال الخوانساريّ: «والورّام بصيغة المبالغة من الورم الذي هو بمعنى الانتفاخ، أو الشموخ، التكبر» [3].

وهو الإمام الكبير الفقيه المحدث المعروف، الحِلّيّ المسكن والدار، تلميذ الشيخ سديد الدين محمود الحمصيّ، توفيّ سنة (٦٠٥هـ)، قال عنه ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ: «في وقائع سنة خمس وستمائة في هذه السنة ثاني محرّم توفي أبو الحسين ورّام ابن أبي فراس الزاهد بالحِلّة السيفيَّة، وهو منها وكان صالحًا» [4]، خلَّف لنا الشيخ ورّام مؤلَّفين، هما: مجموعة ورّام (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر)، ومسألة في المواسعة والمضايقة[5].

ولنا وقفةٌ – نحسبها نافعة – على مجموعة ورّام (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر)، وهي المجموعة التي تعدّ من الكتب الأخلاقيَّة المهمة والقيّمة فيها وعظ وإرشاد

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٢٠.

(٢) رياض العلماء وحياض الفضلاء: ٥/ ٢٨٢، روضات الجنات: ٨/ ١٧٧، وتكملة أمل الآمل: ٦/ ١٨٣.

(٣) روضات الجنات: ٨/ ١٧٨.

(٤) الكامل في التأريخ: ٣٥.

(٥) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر مقدمة المحقِّق: ٣٥.

وأخلاق، قال في المقدمة: «بدأ بذكر أول المجموع:

هـي الـدنيـا تـقـولُ بِـمِـلء فيها حَـذَارِ حَـذَارِ من بَطْشي وفَتْكي
فـلا يـغـرُركـمُ حسـنُ ابتسامي فقولي مُضحك والفعـــــلُ مبكِي
أنـا الدنيا كشهدٍ فيـــه سِـمٌّ وإلّا جيفَـــــةٌ طُليتْ بمِسْكِ»[1].

وقد جاء زاخرًا بموضوعات عدّة، إذ يشتمل هذا الكتاب على أكثر من عشرة فصول في الفضائل، وأكثر من خمسة عشر فصلًا في الرذائل، وفصلين في تحسين الأخلاق وتهذيبها، وما تبقى من البحوث يُعنى بمواضيع متفرّقة من قبيل الآداب والكنى والألقاب، السفر، المواعظ، والموت، والمعاد، والمسائل المرتبطة بها، وفي سياق البحوث التي يطرحها حرص ورّام بن أبي فراس على الأخذ من روايات الفريقين، وقد حشّد في كتابه بعض المسائل والقصص ولكنَّها مستوحاة من كلامهم صلوات الله عليهم.

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ الشيخَ الكفعميّ في كتابه (محاسبة النفس) عدّ ورّامًا أوَّل منَ اقتفى طريقة تقسيم الوقت على أقسام وقتٍ للمناجاة، ووقت للتفكرِ في صنع الله، ووقتٍ لمحاسبة النفس والتكلم معها، قال: «وأولُ من اقتفى هذه الطريقة حسب تفحّصي هو شيخنا الأمير الزاهد ورّام بن أبي فراس الأشتري»[2].

أفاد ابن طاووس من هذا الكتاب الذي تشغل التعاليم الأخلاقية حيزًا كبيرًا فيه، فنشأ نشأة أخلاقيّة مبكرة، درس أوَّل نشأته على أبيه وجدِّه لأمّه الشيخ ورام، وفي ضوء إشارات ابن طاووس في كتبه، يتضح أنَّ جدّه ورّامًا كان معلمًا له ومرشدًا فقد تأثر به كثيرًا ولاسيّما بكتابه الأخلاقيّ التربوي (تنبيه الخواطر وتنزيه النواظر المعروف باسم مجموعة ورّام) حتَّى غلب عليه زهدُهُ وتقواهُ وعرفانُه، يقول: «إنَّ أوَّلَ ما نشأت

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام): ٢٧٥.
(٢) محاسبة النفس: ١٤.

بين جدي ورّام ووالدي قَدّس اللهُ أرواحَهم وكمّل فلاحهم وكانوا دعاة إلى اللهﷻ وطالبين لهﷻ فألهمني اللهﷻ سلوك سبيلهم واتبّاع دليلهم وكنتُ عزيزًا عليهم وما أحوجني اللهﷻ بإحسانه إليهم وإليّ ما جرت عليه عادة الصبيان من تأديب لي منهم أو من أستاذ بسبب من أسباب الهوان، وتعلمت الخطّ والعربية، وقرأت في علم الشريعة المحمديَّةﷺ...» [1].

وحان الحين أنّ نظهر إشارات ابن طاووس الحِلّيّ لجدِّه (ورّام)، منها ما قال في حقّه: «وكان جدي ورّام بن أبي فراس قدس الله روحه، ونوّر ضريحه من أورع من رأيناه عارفًا بأصول الدين وأصول الفقه والفقه، وتاركًا ما تقتضيه الرياسة الدنيوية بالكلية» [2]، وقد أشار ابن طاووس إلى تلمذته على يد جدِّه ورّام، قال في وصيته لولده «واعلم أنَّ جدّك ورامًا قدّس الله روحه كان يقول لي وأنا صبي ما معناه: يا ولدي مهما دخلت فيه من الأعمال المنطقة بمصلحتك لا تقنع أنْ تكون فيه بالدون دون أحد من أهل ذلك الحال سواء كان علمًا أو عملًا ولا تقنع بالدون» [3]، وهذا النص يكشف تلقي ابن طاووس العلوم الدينية المتنوعة، ولاسيّما علم الأخلاق من طريق جدِّه ورّام.

وقد أفاد ابن طاووس - كما أشار - من مكتبة جِّده ورّام، زد على ذلك وقوفه على خطه، قال:«ولقد رأيتُ في كتاب جدّي ورام قدس اللهﷻ روحه ونوّر ضريحه حديثًا معناه أنَّ عبدًا ممّن يراقب اللهﷻ ويخشاه قال: قَضَيْتُ صلاة ثلاثين سنة، وما كنت تركت فريضة منها ولقد كنت أُصليها في الصف الأوَّل ولكنْ لمصيبة وجدتها كنتُ قد غفلت عنها، فقيل له ما معناه: وما تلك المصيبة؟ قال: كنت أُصلّيها في الصف الأوَّل مع الإمام، فجئت يومًا فما وجدت لي في الصفّ الأوّل موضعًا فصلّيت في الصف

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٢٩.

(٢) فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم: ١٤٦.

(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٨٥.

الأخير فوجدت نفسي قد خجلت واستحييت من الأنام أنْ يروني وأنا في ذلك المقام، فعلمت أنَّ ذلك التقدّم في الصف الأوَّل ما كان لله جلّ جلاله على اليقين وإنّما كنتُ أقصد به التميز عند الحاضرين»[1]، أمّا فيما يتصل بوقوفه على خطّ جدِّه في مجموعه (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر) واصفًا إيّاه باللطيف، قال: «فيما نذكره من خطّ جدي السعيد ورّام بن أبي فراس قدس الله روحه ونور ضريحه في تسمية مولانا علي عليه السلام وصّي رسول ربِّ العالمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين، ممّا حكاه في مجموعه اللطيف»[2]. وقال أيضًا في إفادته من خزانة جدِّه «و فيما نذكره من توراة وجدتها مُفسرة بالعربية في خزانة كتب جدي ورّام بن أبي فراس فمن السفر الثالث في ذكر آدم ونوح عليهما السلام»[3].

ونختم حديثنا عن الشيخ ورّام بقول الشيخ محمَّد رضا المظفر في مقدمته الماتعة النافعة على كتاب جامع السعادات للمولى محمَّد مهدي النراقيّ، أنّ الأساس هو أن توضع كتب الأخلاق في رفوفها، فليس للنظريات الفلسفيَّة ورصانة التأليف وتركيزه على المبادئ العلميَّة في نظر أرباب القلوب تلك الأهمية الأخلاقية التي تعلّق عليها، ولا تقاس بالأثر الأخلاقيّ الذي يحصل من روحية المؤلِّف، ومقدار تأثره هو بأقواله، وما كانت (شهرة ورّام)، وما كانت أهميتها إلَّا أنّها ناشئة من قلب صادق، ذلك قلب الأمير الزاهد الإلهي الشيخ ورّام بن أبي فراس المالكي الأشتري»[4].

ونطوي فقرات هذا الفصل ببيان حقيقة أنّ السَّيِّد ابن طاووس الحِلِّيّ، في ضوء الجذور المتنوعات، والأصول المتفرقات رأينا أنّه انكبَّ على المعارف الإسلاميّة كافةً، ولاسيّما كتاب الله عزّ وجلّ والسنة النبويّة المطهّرة،

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٢٢٧.
(٢) اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة المؤمنين: ١١٩.
(٣) سعد السعود: ٢٤٠.
(٤) جامع السعادات: ١/ ٢٢.

ومرويات أهل البيت عليهم السلام فضلًا عن أقوال العلماء في مذاهبهم واختصاصاتهم، منتهلًا من خزانة كبيرة في شتَّى المعارف بلغ عدد كتبها في سنة (٦٥٠هـ) (١٥٠٠ كتابًا) وكان كثير الاهتمام فيها والشغف بها حتَّى وضع لها فهرسًا سماه بـ(الإبانة في معرفة اسماء كتب الخزانة) [١].

وقد أفادنا الشيخ محمَّد حسن آل ياسين رحمه الله في صنع ببليوغرافيا بأسماء الكتب التي انتهل منها وأفاد، في بحثه النافع: (السَّيِّد علي آل طاووس: حياته، مؤلَّفاته، خزانة كتبه)[٢].

ويبدو وعلى الرغم من هذا الانتهال الوسيع، والاستقصاء العلميّ الكبير من لدن السَّيِّد علي ابن طاووس إلّا أنّه – في ضوء إشاراته وعباراته – قد حذّر من الاشتغال بعلوم منها: علم الكلام، والتصوف، فقد وصّى ولده بالمنع عن مطلق مراجعة كتب علم الكلام اقتداءً بالنصوص الـواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة:«الكلام والخصومات تفسد النية وتمحق الدين، عن عاصم الخياط عن أبي عبيدة الحذاء قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام **وأنا عنده: إيّاك وأصحاب الكلام والخصومات ومجالستهم فإنّهم تركوا ما أمروا بعلمه وتكلفوا ما لم يؤمروا بعلمه حتَّى تكلفوا علم السماء**»[٣]، فضلًا عن ذلك استفراغ الوقت في تحصيل المسائل الفقهية وطلبها؛ لأنّها مبثوثة في بطون الكتب، ومظانها، فهو يرى أنّ هذه العلوم ليست ذات فائدة عظمى وأنّ تحصيلها هيِّن وسهل، فضلًا عن ذلك أنّها تُعَدّ مضيعةً ومَسْلَبَةً للوقت، فالهمّ والشغلّ في الدعاء والتقرب إلى الله تعالى عزّ وجلّ هو أُسُّ الأعمال، ورمز الأفعال.

(١) ينظر: بحار الأنوار: ٢٥/ ٢٦، والذريعة في تصانيف الشيعة: ١/ ٥٨.
(٢) بحث منشور في مجلَّة المجمع العلميّ العراقيّ، مجلد: ١٢، ١٩٦٥: ١٩٢.
(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٩.

ويمكن تلخيص غاية علم الكلام على وفاقًا لهذا التصور في ثلاث وظائف أساسية هي[1]:

- تصحيح العقائد الدينيَّة.
- إثبات التعاليم الدينيَّة.
- الدفاع عن الدين.

ومن اللزوم الإشارة إلى أنّ الغايّة الدفاعية ها هنا أعمّ منْ أنْ تنحصر في العقائد بل تشمل كلّ ما يتعلق بالدين، إذ من مهام المتكلِّم ردّ الشبهات كافة، التي تثار حول الدين حتَّى ولو كانت هذه الشبهات خارج الإطار العقائديّ، فالصلاة مثلًا بما هي مسألة فقهية هي من مهام الفقيه، لكن الرّد على شبهة التشكك بجدوى الصلاة هو من مهام المتكلِّم[2].

ومهما يكن من أمر فقد نهى أئمة أهل البيت عليهم السلام أصحابهم وسائر المسلمين عن الاتصال بالصوفية والاختلاط بهم؛ لمّا دلّ على زيفهم بإظهار التقشف والزهد لإغراء الناس عامَّة، ولا سيّما السذّج من أجل غوايتهم، وأجمل بقول الإمام الهادي عليه السلام في وصفهم، فقد روى الحسين بن أبي الخطاب، قال: «كنت مع أبي الحسن الهادي عليه السلام في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله فأتاه جماعةٌ من أصحابه منهم أبو هاشم الجعفريّ، وكان بليغًا وله منزلة مرموقة عند الإمام عليه السلام، وبينما نحن وقوف إذ دخل جماعة من الصوفية المسجد فجلسوا في جانب منه، وأخذوا بالتهليل فالتفت الإمام إلى أصحابه، فقال لهم: «**لا تلتفتوا إلى هؤلاء الخدّاعين فإنّهم حلفاء الشياطين ومخرّبو قواعد الدين يتزهّدون لإراحة الأجسام، ويتهجّدون لصيد الأنعام... أورادهم الرقص والتصدية وأذكارهم الترنم والتغنية، فلا يتبعهم إلَّا السفهاء ولا يعتقد بهم إلَّا الحُمَقاء، فمن ذهب إلى زيارة**

(١) ينظر: الهندسة المعرفية لعلم الكلام الجديد: ٥٩.

(٢) ينظر: مقاربات في فهم الدين: ١٢٣.

أحدهم حيًا أو ميّتًا فكأنّما ذهب إلى زيارة الشيطان، وعبادة الأوثان، ومن أعان واحدًا منهم فكأنّما أعان معاوية ويزيد وأبا سفيان، فقال له رجل من أصحابه: وإنْ كان معترفًا بحقوقكم؟ قال: فنظر إليه شبه المغضب، وقال: دع ذا عنك، مَن اعترف بحقوقنا لم يذهب في عقوقنا، أمَا تدري أنّهم أخسّ طوائف الصوفية؟ والصوفية كلّهم من مخالفينا، وطريقهم مغايرة لطريقنا، وإنْ هم إلّا نصارى ومجوس هذه الأمة أولئك الذين يجتهدون في إطفاء نور الله بأفواههم، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون»[1].

ويبدو أنّ نظرة ابن طاووس فيما يتصل بعلم الكلام والتصوف قد فطن إليها العرفاء والمتألهون موافقين له ممّن تقرّبوا من الذات الإلهية، وذابوا فيها، فقد قال الشيخ محمَّد رضا المظفّر في رحلته الكشفيّة الخيالية الرائعة (أحلام اليقظة) مع الفيلسوف صدر المتألهين (الملّا صدرا)، «لو كنت من أهل طريق الكشف واليقين و ممّن عنّى نفسه بالمجاهرات العقلية والرياضات البدنية، لكنت انتفعت بهذه الرموز والإشارات، ولاستغنيت بها من مجادلات الكلاميّين وأصحاب المباحث والنظر البحت... ويتمثل له ما ينكشف للعارفين المستصغرين لعالم الصور واللذات المحسوسة، فينفتح له طريق الحقائق أنْ يبدأ أوّلًا بتزكية نفسه عن هواها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وباستحكام أساس المعرفة والحكمة بالتقوى ليرق ذراها، وإلّا كان ممّن ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾» [النحل: ٢٦]، [2]، وقال: «وأنصحه ألّا يشتغل بترهات عوام الصوفيّة من الجهلة، ولايركن إلى أقاويل المتفلسفة وأهل الكلام جملة، فإنّها فتنة مضلة، وجميعها ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾» [النور: ٤٠] [3].

(١) سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار: ٢/ ٥٨.

(٢) أحلام اليقظة مع فيلسوف المتألهين: ١٣٣.

(٣) م. ن: ١٣٣.

وتأسيسًا لفهم ابن طاووس وتصوره، فإنّ الدعاء والمناجاة والوصايا الأخلاقية هي ترياق الشفاء، وبلسم السعادة في الدنيا والآخرة.

الخطاب الأخلاقيّ ← الدعاء، المناجاة، الوصايا ← الغاية (السعادة الدنيوية والآخروية) ⇐ المخاطب، المستمع

أمّا فيما يتصل بعلم الفقه فقد دعا ابن طاووس الحلّيّ ولده إلى التحصيل وإعمال الفكر والجدّ في نيله، فقال: «أنّي لأعلم أنّني اشتغلت فيه مدة سنتين ونصف على التقريب والتقدير، وما بقيت احتاج إلى ما في أيدي الناس لا قليل ولا كثير،... وكلمَّا اشتغلت بعد ذلك فيه ما كان لي حاجة إليه إلا لحسن الصحبة والأنس والتفريع فيما لا ضرورة فيه... وإذا أردت الاشتغال بالفقه فعليك بكتب جدّك أبي جعفر الطوسي، فإنّه ما قصّر فيما هداه الله ﷻ إليه ودلّ عليه»[1].

ولمحَّ ابن طاووس الحلّيّ بأنّه اقتصر على تأليف كتاب (غياث سلطان الورى لسكان الثرى) في الفقه وهو في قضاء الصلوات عن الأموات وما صنّف غير ذلك في الفقه؛ قال: «لأنّي كنتُ رأيت مصلحتي ومعاذي في دنياي وآخرتي في التفرغ عن الفتوى في الأحكام الشرعية؛ لأجل ما وجدت في الاختلاف في الرواية بين فقهاء أصحابنا في التكاليف الفعلية، وسمعت كلام الله ﷻ يقول عن أعز موجود عليه من الخلائق محمّد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٤٧] فلو صنّفت كتابًا في الفقه يعمل بعدي عليها كان ذلك نقضًا لتورعي عن الفتوى، ودخولًا تحت حظر الآية المشار إليها؛ لأنّه ﷻ إذا كان هذا تهديده للرسول العزيز الأعلم لو تقوّل عليه فكيف يكون حالي إذا تقوّلت عليه ﷻ؟، وأفتيت وصنّفت خطأً وغلطًا يوم حضوري بين يديه»[2]. لا جَرَمَ أنّ موقف

(١) كشف المحجة لثمرة المحجة: ١٨٥.

(٢) إقبال الأعمال: ١/ ١٦، وينظر: بحار الأنوار: ١٠٤/ ٤٢.

ابن طاووس من التأليف في الفقه يمثل وجهة نظره، وطريقة تفكيره وهي لا تصمد أمام العقل والمنطق والواقع، فإن الله ﷻ ورسوله الأكرم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام حثّوا الناس، ولا سيّما ممّن يمتلك ملكة الاستنباط، والقدرة على استخراج الأحكام فضلًا عن موهبته أن يتفقه في الدين، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

إنّ الطبيعة الإنسانية تدعو الإنسان إلى التفكير والاستنباط والتحليل وحجّة أنّ الاختلاف والخلاف مانع من ذلك حجَّة لا تصمد أمام العقل والواقع، فقد ترك فقهاؤنا الأعاظم مصنّفات ومدوّنات وموسوعات ومجموعات علمية عظيمة المضمون كبيرة القدر ولا يخفى أنَّ المراد بالنص القرآنيّ ليس المقصود منه الاختلاف في المسائل الفقهية، بَلْ الكلام الذي لا ينسجم مع مقصد القرآن ومراده.

ومن أجل عدم الابتعاد عن موضوعنا ومقصدنا في هذه المقاربة في خطابه الأخلاقيّ وأبعاده التداوليّة لا نريد أن نحاكيه في عقائده، وتصوراته، أو مرجعياته أو صحة ما يقول، وإنّما همَّنا إبراز الخطاب الأخلاقيّ عنده، مع بيان أهم الأبعاد التي ارتكز عليها واعتمدها، ناهيك عن بيان جمالية الخطاب معاني وأسرارًا، ومقاصد.

وتجدر الإشارة – ونحن نطوي فقرات هذا الفصل – إلى أمر بالغ الأهمية، وهو أنّ ابن طاووس يتحلّى بالأمانة العلميَّة والدقة في النقل، ولاسّيما في الاستدلال، ونلمس ذلك بوضوح في ضوء تتبّعنا، واستقرائنا فيما وقفنا عليه من مؤلَّفاته، فهو يتحرّى الدقة، و في الغالب لا يعتمد على الحكاية بالمضمون وهو أمر يدعو إلى العجب، ولاسيّما في ذلك الزمان – القرن السابع الهجري – وما يتبعه من قلّة المكتبات من جهة، وشحّة المصادر من جهة أخرى.

الفصل الثانيّ

سماتُ الخِطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحِلِّيّ

الفصل الثاني

مدخل

ثمَّة اتجاهات مختلفةٌ في علم الأخلاق لدى المسلمين، وطبيعيّ أنْ يؤدّي هذا الاختلاف في الاتجاهات إلى ظهور أنظمة أخلاقيّة عدّة، وفي مقاربة أوليّة يمكن تصنيف هذه الاتجاهات إلى أربعة أنظمة، الأولى: ذات طابع فلسفي (عقليّ)، الثانية: ذات طابع عرفانيّ (سلوكيّ)، الثالثة: الأخلاقيّة الأثريّة، والرابعة: الأخلاقيّة التوفيقية[1].

ويبدو في ضوء الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ أنّه ينطوي في ضمن المنهج الأخلاقيّ الأثريّ، وهو ما يمثله ابن طاووس خير تمثيل وخطابه يرتبط بدائرة الموضوعات والعنوانات الأخلاقيّة التي يُعنى بها هذا الاتجاه، نلاحظ أنَّه فيما يتعلّق بالأسرة والمجتمع تغطّي هذه المدرسة مواضيع وعناوين أكثر، قياسًا بالمدرسة العرفانية، كما أنّ دائرة اهتمامها (أي مصادر الأخلاق الأثريّة) في مجال أخلاق العبوديّة والأخلاق الاجتماعية، تتّسع لتشمل مواضيع وعناوين أكثر، قياسًا بمصادر المدرسة الفلسفيّة، إلّا أنَّها قياسًا بمصادر المدرسة التوفيقيّة فالنسبة الموجودة هي نسبة العموم والخصوص من وجه؛ وذلك لأنّ بعض العناوين المتعلّقة بالأخلاق الفرديّة أو بالأخلاق الاجتماعيّة أو بأخلاق الأسرة، لم ترد في الكتب الروائيّة، وفي المقابل فإنّ جملة من العناوين التي كانت محط اهتمام الروايات، لم يرد لها ذكر في مصادر الأخلاق التوفيقيّة.

---

(١) ينظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الاسلاميّ: ٣٣.

في هذا الفصل سنحاول بيان أهم السمات التي تلَّبست بالخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، في ضوء الوقوف على تراثه الزاخر، ونحسب أنّ هذه السمات أمارات وعلامات واضحات على سُمّو هذا الخطاب، وعُلوه، فضلًا عن ذلك انتظامه وإحكامه من جهةٍ أخرى.

الفصل الثاني

المبحث الأوَّل

الدعاء والمناجاة

الدعاء والمناجاة كانت من أهم آليات ابن طاووس في نشر المعارف الإسلاميَّة، زدْ على ذلك إشاعة نظم التربية، ومعالم الإرشاد الأسري والمجتمعيّ، فقد أنضج الخطاب الأخلاقيّ الأسريّ والمجتمعيّ في ضوء استشراف الأدعيّة والمناجاة، ولابُدّ من القول: إنّ ابن طاووس الحِلِّيّ قد استند في اختياراته ومقبوساته للدعاء والمناجاة من جهة أخرى بعنصرين مهمين هما:

أ. **العنصر المعرفيّ للتوسّل**: لاشكَّ في أنّ لكلّ مدرسة أو مذهب تربوي، أنماطًا مثالية تشكّل نماذج وعيّنات ملموسة يقتدى بها، تظهر بمظاهر حياتيّة مختلفة من الكلام والسلوك الفرديّ والاجتماعيّ لشخصيات تشترك معنا في الخصائص الإنسانيّة العامة، وبإمكانها – في ضوء عملية التأسّي – أنْ تضمن لنا إمكانيّة ترسخ القِيَم والسلوكيّات الحميدة، وتجذّرها في النفس بدرجة عالية.

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، يتسنّى للشخص المتوسّل – في ضوء المضامين التي تتوافر عليها أدعيّة التوسّل والزيارات، نظير الزيارة الجامعة الكبيرة – التعرّف على الأبعاد المختلفة لشخصيّة الإنسان الكامل الذيّ جعله أسوة وإمامًا له، هذا من جهة، فإنّ شهادته للإمام بأعمال الخير والسجايا الكريمة، بما تضمّنه الدعاء من دلالات في ضوء تكرار فضائل رموز مدرسة أهل البيت عليهم السلام، يكون قد عمل على تكريس صورة أبهى ودور أكبر للإنسان الكامل المهذّب على صفحة قلبه وفي أعماق ذهنه من جهة أخرى.

ب. **العنصر العاطفيّ للتوسل**: لا ريبَ في أنَّ عنصر الحب والعشق من أكثر العناصر التي رفدت مسيرة الإنسانيّة على مرّ تأريخها الطويل بالحركة والفاعليّة، وما فتىء يُشكِّل الباعث الأكبر الذي يمدّ الإنسان بزخم، وحيويّة، وطاقة أكبر، ففي كثير من الأحيان وعلى الرغم من تحديد الإنسان لهدفه، نراه يفتقر إلى الطاقة الروحيّة والعزيمة اللازمة للمسير باتجاه الهدف، فإذا اقترنت المعرفة الصحيحة للأنموذج القدوة بالمحبة العميقة الصافية، فحينئذٍ يُضْحي احتمال التواصل بين الشخص والقدوة، أو قل التأسّي كبيرًا جدًا، وفي الواقع، إنّ مجالس التوسّل لها بعدان:

الأول: إنّها مَحْفِل علميّ، يتمّ في ضوئه تعرّف الإنسان الأنموذج والأسوة السلوكيّة الصادرة عنه.

الثاني: إنّها مناسبة احتفالية، يتمّ في ضوئها تزويد المحبّين بشحنات عاطفيّة، كما إنّها محلّ إبراز ما يجيش في الصدور من الحبّ والوَلَه والفَقْر بأحاسيس مخلصة، من هنا فإنّ الشخص المتوسِّل، بعد كلِّ مرةٍ يبرز فيها تمسّكه بأولياء الله ﷻ يشعر بوجود طاقة عظيمة تحمله على الإصرار على البقاء في خطّ الصلاح والطهارة. وعليه فإنّ المتوسّل، كما الدعاء، طريق للسمّو الروحيّ وتهذيب النفس [1].

ولا مناصَ أنْ نجزم أنّ الدعاء والمناجاة يضطلعان بأثرٍ رئيس في نشر الثقافة والأخلاق الإسلامية، إذ يُعدّ من الأساليب المؤثرة في هذا المضمار، كما أنّه يُشكِّل مناخًا تربويًا مناسبًا من شأنه تهذيب الأمة الإسلاميّة بأطيافها كافة. والدعاء يعني الطلب بمعناه العام والذي يشمل حتَّى الطلب التكوينيّ، والسؤال الفطريّ، كمّا أنّ الدعاء مقدّمة فهو بنفسه خاتمة أيضًا.

(١) ينظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلاميّ: ٤٥٠، ٤٥١.

ومن جانب آخر فإنّ القرآن الكريم يقرّر حقيقة أنّ الدعاء طريق ارتباط العباد بالله ﷻ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، فالدعاء سبيل للنجاة زيادةً على أنّه سبيلٌ إلى الوصول إلى المراتب العليا من الكمال، كما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إنّ عند الله منزلة لا تُنال إلّا بمسألةٍ**»[1]، وإنّ الاستكبار وترك الدعاء، يؤديّان إلى أنْ يفقد الإنسان استعداده وقابليته لتقبّل الرحمة الإلهيّة قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وإلى جانب الأدلة النقليّة التي أشرنا إليها، فإنّ الدليل العقليّ هو الآخر يقضي بلزوم الدعاء والارتباط بالحق تعالى، وذلك كون أنّ لا حقيقة ولا حيثية للإنسان سوى العبوديّة لله تعالى والارتباط به[2].

ومن أهم النتائج التي تترشّح من أدعية ابن طاووس، ومناجاته هي:

١. ملء الخلاء الفطريّ والفقر الذاتيّ، الذي يحسّه الإنسان في عمق وجوده، إزاء وجود آخر يكون له سندًا ودعامةً، يمدّه بالطُمأنينة، ويغمره بالخير المطلق.

٢. زرع حالة الغنى والاستطاعة لدى الانسان، في ضوء الارتباط بالله القادر المتعال.

٣. تعميق حالة الإيمان والثقة بالله تعالى في وجود الإنسان وتكريسها، والتي تُعدّ مصدرًا لكثير من البركات المعنويّة الأخرى.

٤. تعلّم أدب التحدث مع الله سبحانه وتعالى.

٥. تعلّم كثير من المعارف الإلهية الساميّة؛ ففي حالات الدعاء هذه تسنح الفرصة لأكمل موجودات عالم الإمكان؛ كي تنفتح على الحقّ تعالى في ارتباط مباشر، كما هو

(١) الكافي (باب الدعاء): ٢/ ٤٦٦.

(٢) ينظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلاميّ: ٤٤٥، ٤٤٦.

الحال بين الحبيب وحبيبه، ارتباط صميميّ لم تلحظ فيه قدرات الإنسان الإدراكيّة وإمكانيّاته المحدودة، وكأنّ الإنسان الكامل قد تجلّى لله تعالى بأبهى تجلياته وأسماها عبر هذه المناجاة.

٦. تربية الإنسان الكامل وإعداده؛ صحيح أنَّ المضمون الرفيع للدعاء يكشف عن علوّ شخصية الإنسان الداعي، ولكنْ من وجهة نظر تربوية، فإنّه وعبر هذا الدعاء، يوجّه الأفراد جميعهم الذين يتطلّعون إلى الكمال والرفعة، إلى التعالي والصعود إلى قلل الكمال الساميّة [١].

٧. يعدّ الدعاء أسلوبًا تعليميًا إلقائيًا؛ لأنّ الإنسان المسلم يقوم بدور مزدوج يمكن أنْ نصنفه في قائمة الأساليب الإلقائية، فهو - الإنسان المسلم - يقرأ الدعاء بوصفه نصًّا، ويسمعه شخصيًا أو يتلقاه مسموعًا من غيره إذا كان نص الدعاء مقروءًا من الآخرين، وسواء كان النص مقروءًا من الداعي، أم من غيره فإنّ طبيعة هذا الجهد التعليمي إلقائية؛ لأنّ الداعي يقرأ والمستمع يتلقى، فيبقى نصّ الدعاء مقصورًا على القراءة والاستماع، فإنّ الإنسان الذي يمارسه يكون قارئًا ومستمعًا ومتلقيًا في آن واحد، وبهذا المعنى قد يكون الدعاء نوعًا ونمطًا من التعلم الذاتيّ.

٨. ينمّي الدعاء أساليب التعبير العربي ويصقل القدرات اللغويّة للفرد، ويَمُدُّه بثروة من مفردات اللغة وألفاظها؛ وذلك لأنّ الدعاء ينماز بأعلى أساليب البيان العربي ولاسيّما الذي صاغه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام وهذا يؤدي إلى تنمية هادفة لقدرات الفرد على الفهم اللغويّ، وتدريبه على الطلاقة اللفظيّة، فالعقل المسلم بعد ممارسته للدعاء - كتجربة وجدانيّة حيّة - يتقمص هذه الثروة الهائلة من مفردات اللغة، ويتمثلها في أحاديثه ومواقفه الحواريّة.

(١) ينظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الاسلاميّ: ٤٤٦، ٤٤٧.

٩. يقدّم الدعاء معرفة تحليلية مستفيضة للنفس الإنسانيَّة ودراسة حالاتها المتعددة سواء في حالتها السوية، أم في حالتها غير السويّة، ويحدّد طرائق تشخيص أمراضها وسبل معالجتها، ويرشد العقل المسلم بالأساليب الصحيحة التي تعينه على مواجهة المشكلات النفسيَّة وأمراض السلوك السوي، وسمات السلوك العصابيّ، وذلك في ضوء إمداد المسلم بمفاهيم عبادية في حقل الصحة النفسية، وتأصيل مبادئها المستمدة من الأدعية في عقل الانسان المسلم.

ونقدح بأنّ ابن طاووس الحليّ يمثّل مدرسة الأدعية والمناجاة أحسن تمثيل، ولا غرو أنّه من رواد هذه المدرسة بلا منازع، فقد ترك لنا إرثًا عظيمًا في الدعاء والمناجاة نقف له إجلالًا وتعظيمًا وإكبارًا.

أحاط ابن طاووس بالأدعية والمناجاة سواء أكانت في السنة، أم في الشهر أم في الاسبوع، أم في اليوم والليلة، وهذا التدرج يُعد منهجًا جديدًا في التأليف لم نعهده من قبل، فألَّف كتاب (الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة بالسنة) وهو مختصٌّ بأعمال السنة، وكتاب (الدروع الواقيّة) في أعمال الشهر، وكتاب (جمال الاسبوع) في أعمال الاسبوع، وكتاب (فلاح السائل) في أعمال اليوم والليلة.

الفصل الثاني

المبحث الثاني

الشمولية

لا جَرمَ أنَّ النظريات الأخلاقيّة تتطلبُ أنْ تكون شمولية بطرائق أقرب، فقد يُطلب منها مثلًا أنْ تنطبق على الناس جميعهم، وقد تلتزم بمبدأ من قبيل القاعدة الذهنية الذي يشترط أنْ يسلك المرء إزاء الآخرين على النحو الذي يجب أن يسلكوا وقفة إزاءه، فالشمولية بوصفها أحد معايير الحكم على النظريات الأخلاقية، إنَّما نعني بها وجوب قيام النظريات الأخلاقية الملائمة بتفسير كلّ ما يتوجب عليها تفسيره من حقائق[1].

والحقّ أنّ النظرة القائمة – اليوم – بتقديم الحضارة الغربية على أساس الماديات والعقلانيات من دون تقديمها على أساس التقويم الأخلاقي نظرة خاطئة ومتهافتة، على الرغم من أنّنا نجد لها صدىً عند كثير من الناس بَلْهَ بعض علماء المسلمين، فليس للإنسان وجود ومرتبة إلّا الأخلاق ودونها يختلّ نظام الحياة وتفسد مقاصد الكون، بل السمة الأخلاقيّة، والسمة الإنسانية شيء واحد[2]، فأوّل أثر للإيمان هو أنّه سندٌ للأخلاق، أيّ إنّ الأخلاقَ وهي بذاتها من رؤوس الأموال الكبيرة في الحياة، لا يكون لها أساس وقاعدة بغير الإيمان، إنّ أساس جميع الجذور الأخلاقيّة ومنطلقها، بل إنّ سلسلة المعنويات برمّتها مبنية على الإيمان الدينيّ، أي الإيمان بالله والاعتقاد بوجوده، فالكرامة، والشرف، والتقوى، والعفة والاستقامة، والتضحية والإحساس، والمسالمة

(١) ينظر: التفكير الناقد في القضايا الأخلاقية: ٦١، ٦٢.

(٢) ينظر: الخطاب الإسلاميّ إلى أين؟، حورات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبدالرحمن): ٣٥.

مع خلق الله والتمسك بالعدالة وبحقوق الإنسان وجميع الصفات التي تُعدّ من فضائل البشر، والتي يقدّسها الأفراد والشعوب كافة، ويدّعيها حتَّى الذي لا يملكها مبنية جميعًا على مبدأ الإيمان(١).

انماز الخطاب الأخلاقي عند ابن طاووس بشموليته العامة العالمية، فهو خطاب انسانيّ، وإنَّ المعرفةَ (معرفة اللهﷻ محكومٌ بحصولها للإنسان دون ما ذكره أصحاب اللسان؛ لأنَّهم لو عرفوا من مكلّف ولد على الفطرة حرّ عاقل عُقيبَ بلوغه ورشده بأحد أسباب الرشاد أنّه قد ارتدّ بردة يحكم منها ظاهر الشرع بأحكام الارتداد، وأشاروا بقتله وقالوا: قد ارتد عن فطرة الإسلام وتقلّدوا إباحة دمه وماله وشهدوا أنّه كفر بعد إسلام، فلولا أنّ العقول قاضية بالاكتفاء والغناء بإيمان الفطرة، ودون ما ذكروه من طول الفكرة، كيف كان يحكم على هذا بالرِّدة؟ «وكيف كان اللهﷻ يبيح دمه وماله وما أحسن به إليه، وما مضى عليه من الزمان بعد بلوغ رشاده ما يكفيه لتعلمه من أستاذه، ومن ملازمته وتردده واللهﷻ أرحم من الخلق كلِّهم بعباده، وما أباح دمه إلّا وقد اكتفى منه بما فطره عليه، وبما يسعه بأقل زمان بعد إرشاده لاعتقاده» (٢).

وفي ظلّ النصوص الطاووسيّة البالغة الدلالة، والذائعة التداول نجد أنَّها ذات شمولية في آداب الدعوة، والتبليغ الاخلاقيّ، و يتجلَّى الموقف الطاووسيّ الشموليّ في جوابه على استفتاء هولاكو العلماء: «أيّما أفضل، السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟ وجمع العلماء بالمستنصرية لهذه الغاية، فلمّا وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب وكان رضيُّ الدين علي بن طاووس حاضرًا هذا المجلس وكان مُقدّمًا مُحترمًا، فلمّا رأى إحجامهم، تناول الفتيا، ووضع خطَّه فيها، بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطهم بعده» (٣).

(١) ينظر: محاضرات في الدين والاجتماع: ٢٧٣.

(٢) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٥٤.

(٣) الفخري في الآداب السلطانية: ١١، واليقين: ٦٥.

هذه الحادثة لم يذكرها سوى ابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ) وسبب عدم ذكرها من لدن المؤرخين يعود إلى تحرّج مَنْ تحدّث عن هذه الواقعة من جعل السلطان الكافر العادل أفضل من السلطان المسلم الجائر في مجتمع إسلاميّ يدين خليفته بالإسلام وهو أمر غاية في الخطورة، وهذه الفتوى تُصْدِم شعور المسلم المثاليّ، الذي يعيش أجواء النظرية دون التطبيق، وينظر إلى الشكل والاسم، أكثر من المضمون والجوهر، وقد استلهم السَّيِّد ابن طاووس – على ما يبدو – الجواب عن هذه الفتوى من القرآن الكريم فهو المصدر الأوَّل الذي سدّد خطاه وحدَّد سيرته الثقافية، فقد اتصل به منذ صغره، وانكب على حفظه، وتدبّره، وفهم دلالاته ومعانيه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]، إذ تميّز بصفتي الشجاعة والمسؤولية بما هما قيمتان تؤكدان على الفعل والإنجاز فهو يرسخ معنى الالتزام القرآنيّ الأخلاقيّ، وهذا ما اهتدى اليه ابن طاووس الحلّيّ حينما صدع بكلمة الحق في مجلس استفتاء هولاكو العلماءَ.

إنّ وضع الناس خطوطهم بعده، يدلُّ على أمرين: أولهما، ما لابن طاووس من مكانة علميّة ساميّة وثقة كبيرة عند علماء العراق على اختلاف مذاهبهم، والآخر، يدلُّ على شموليته وعدم تعصبه إلّا للحق وحده، ويبدو أنَّ ابن طاووس جعل نصب عينيه أنَّ كفر الكافر عليه ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ [فاطر: ٣٩] وأمّا عدله فللناس؛ وأمّا المسلم الظالم فظلمه لنفسه وللناس، وفي ظلم الناس يختل النظام الاجتماعي؛ لأنّ العدلَ أساسُ الملك، فقبح واحد وهو ظلم الكافر لنفسه أقلُّ من قبيحين ظلم النفس وظلم الناس وشرّ واحد أهون من شرّين[١]، فقد رويّ عن سيِّد الكائنات ﷺ: «**يبقى الملك بالعدل مع الكفر، ولا يبقى بالجور مع الإيمان**» [٢]، وقال الإمام الصادق عليه السلام «**من نكد العيش السلطان**

(١) ينظر: فقهاء الفيحاء: ١٤٥ – ١٤٨.

(٢) ينظر: شرح رسالة الحقوق: ١/ ٣٨٥.

الجائر...»[1]، فالسلطان الجائر، أذىً دائمٌ، ومنكرٌ مستمرٌ، تضيق الدنيا به، وإن رَحُبَت، وأذاه يُفسد الدنيا وإنْ صَلُحت.

يقينًا ظهر في ضوء فتوى ابن طاووس الحِلِّيّ التي حدَّد فيها أفضلية الكافر العادل على المسلم الجائر، أنّه كان يَعُدّ القيّم الأخلاقيّة هي الأساس في التفاضل بين الناس -حتَّى لو كان فاقدها مسلمًا- وهذا منهجٌ قرآنيّ عظيم، وفهم وحيانيّ وسيع، فقد انتصر القرآن الكريم للقيم الأخلاقيّة، والتعاليم الإنسانيّة الساميّة، فجاء الخطاب القرآنيّ للإنسانية أجمع باختلاف مشاربهم وعقائدهم، فالقيمة الأخلاقيّة هي التي تعلو، ومن هنا فإنّ القرآن الكريم (كتاب الله الأكبر) اكتسب صفة العالمية والشموليّة والجامعيّة ما لم يكتسبه كتاب آخر، وقد استطاع ابن طاووس اقتناص هذا الأسلوب العظيم، والتصور البديع موظّفًا إيّاهما في فتواه الشهيرة.

وقد نالَ ابنُ طاووس بفتياه هذه مقامًا محمودًا ومنزلةً كبيرةً في نفس مَنْ يرمون العدل، ويقصدون المساواة، وأدّت وسبّبت فتياه هذه حقنًا لدماء المسلمين وخيرًا عميمًا للأمة[2]، ومن فوائد ذلك وشموليته، ما أشار إليه بقوله: «ظفرتُ بالأمان والإحسان، وحُقِنت فيه دماؤنا، وحُفِظت فيه حرمُنا وأطفالُنا ونساؤنا، وسلم على أيدينا خلقٌ كثيرٌ»[3].

وتأسيسًا على ما ذكرناه من قبل، يمكن القول: إنَّ ابن طاووس من المؤسسين لـ(فقه الأخلاق) في ضوء ما وقفنا على خطاباته الأخلاقيَّة المبثوثة في كتبه، فقد أعطى للعبادات والمعاملات مدياتها وتخوماتها الرحبات كاشفًا أسرارها ودقائقها، قال في

(١) شرح إحقاق الحق: ٢٨/ ٤٠٨.
(٢) ينظر: بحار الأنوار: ١٠٧/ ٤٤.
(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١١٨.

حقيقة (الصيام): «وأمّا حديث الصيام فإنّما صورته أنّك تصوم بالليل في المنام فقلب الله ﷻ تدبير الحال وجعل لك شوقًا وذكرًا جميلًا في الأعمال، فصرت تأكل بالليل وتصوم بالنهار، وهو رياضة الأبرار، وبما علّمهم الله ﷻ منه ومن غيره امتلأت قلوبهم من الأُمور واطلعوا على ما أراد الله ﷻ اطلاعهم عليه من الأسرار فابدأْ يا ولدي بصوم العقل والقلب وعن كلِّ ما يشغل عن الرب وعن الإفطار بالذنب وذِّكر نفسك أنَّه لو طلب سلطان مثل ذلك منك وأن تتقرب إليه وأنت في حضرته بين يديه بشعار المراقبة بخدمته والإمساك عمّا يبعدك عن حضرته، أما كنت تفرح بهذا التكليف وتعتقد أنّه من التشريف» [1].

وتتجلَّى أخلاقية فقه العبادات في موضوع الجهاد في ضوء التعامل مع الحكام الظالمين من جهة، والمخالفين من جهة أخرى؛ من أجل إنقاذ بيضة الإسلام والحفاظ عليها، قال ابن طاووس: «إنّه كان قد غلب التتار على بلاد خراسان وطمعوا في هذا البلاد ووصلت سراياه إلى نحو مقاتلة بغداد في زمن الخليفة المستنصر جزاه الله عني بما هو أهله فكتبت إلى الأمير (قشتمر) وكان إذ ذاك مقدّم العساكر خارج بلد بغداد، وهم مبرّزون بالخيم والعدد والاستظهار، ويخافون أن تأتيهم عساكر التتار وقد نودي في باطن البلد بالخروج إلى الجهاد، فقلت له بالمكاتبة استأذن لي الخليفة واعْرِض رقعتي عليه في أن يأذن لي في التدبير ويكونون حيث أقول يقولون وحيث أسكت يسكتون حتَّى أصلح الحال بالكلام، وقد خيف على بيضة الإسلام» [2]، ويظهر أنّ الجهاد يتخصَّص بحالتين:

الأولى: مع صاحب الأمر والزمان عجل الله فرجه.

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٤٤.

(٢) م. ن: ١٤٧.

والثانية: إذا كان فرضًا عامًا يخاف على الإسلام أنْ تذهب بيضته وتستأصل شأفته، ففي هذه الحالة يصحّ الجهاد حتّى مع غير مَن تجب طاعته [1]، وإزاء الحالة الثانية نكشف مسألتين:

المسألة الأولى: إنّ خلافة المستنصر مخالفة لرسول الله ﷺ ولأمير المؤمنين عليه السلام، لذا لا تجب طاعته، وهو الذي يفسّر لنا شدة رفضه لطلب الخليفة بالمشاركة في دولته بأيّ منصبٍ من المناصب التي عرضت عليه.

المسألة الثانية: إنَّ المرتكز الشموليّ والخوف على بيضة الإسلام هما اللذان فرضا عليه أنْ يعرض على المستنصر أنْ يكون رسولًا إلى قائد الجيش المغوليّ، وهذه الحالة تكون مع المستنصر أو غيره، فالأهم هو إنقاذ بيضة الإسلام، يقول ابن طاووس: «وإنِ ابتليت بجهاد مع غير من يجب طاعته فإنْ كان فرضًا عامًا يخاف على الإسلام أن يذهب بيضته وتستأصل شأفته، فإنّك تعلم أنَّ النفوس والرؤوس وكلّ ما يعزّ عليك من الله جل جلاله إليك فأحقّ ممّا يذلّ كلّ عزيز والدنيا كلّها لواهبها وأجمل ما أنفقت ذخائر العقول في مراد جالبها، ومن أحق بالأجساد والأرواح والعقول بكلِّ ما في الوجود من الله جل جلاله الذي أنت وما في يدك صادر عن ذلك الجود فمتى دعاك إليه فإيّاك أن تتوقف من حمل نفسك ومالك إليه فإنّك إنْ بخلت بها عليه في بذلها سَلَبها عزرائيل عليه السلام أو غيره وضاع منك شرف الخدمة بتسليمها إليه وبذلها في إعزاز دينه الذي يعزّ عليه» [2]، فتدرج العبارات بلحاظ السُلَّم الحجاجيّ، يُعطي نتيجة إيجابيّة أرادها ابن طاووس الحلّيّ وهي الشهادة والكرامة والعز، وفيما يأتي أدناه مخطط يوضح حقيقة نيل الشهادة العظيمة:

(١) ينظر: سعد السعود: ٢٨.

(٢) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٤٦.

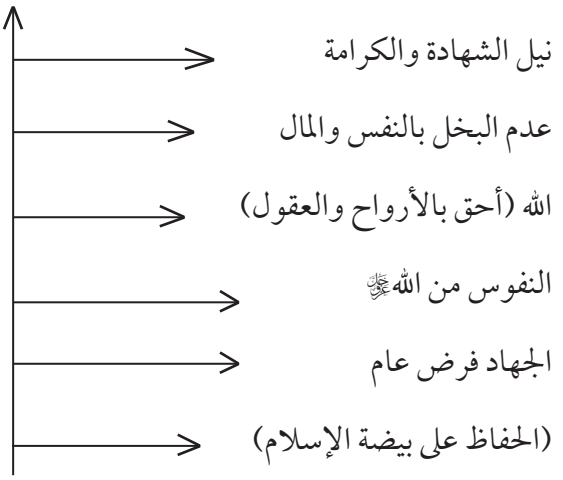

فليت شعري، لقد أَسَس ابن طاووس الحلّيّ (أخلاقية الجهاد) في هذا الخطاب وهو مبحث فقهيّ، أخلاقيّ يجدر بالباحثين الأكارم أنْ يوسّعوا منه ويرسموا الخطوات الثابتات له عند ابن طاووس خاصة وعند فقهاء المدرسة الحِلِّيّة عامة؛ من أجل الوصول إلى مقاربات تداوليّة فقهية من جهة، ومقاربة قواعد الفراغات من جهة أخرى، ولاسيّما ونحن نعيش في عصر الخلافات، ومحاولة الانقضاض على بيضة الإسلام واستئصال شأفته من غير المسلمين و ممّن يدعون الإسلام نفاقًا، ويسلكون مسلك الزهاد ومذاهب العبّاد كَذبًا كالحركات التكفيرية المتنوعة بمسمياتها.

وقد اتّبع طريقة (التسلسل الاجتماعي) في الإفادة من نهج القرآن ونظّمه في آداب الخطاب الأخلاقيّ ولاسيّما الدعاء، فقد آل على نفسه ألّا يشمل دعاءه المؤمنين والمسلمين فحسب، بَلْ شمل دعاؤه الفجّار والمعاندين فأساليب الدعاء مفتوحة أمام العبد شاملة، يقول: «وكنتُ في ليلة جليلة من شهر رمضان بعد تصنيف هذا الكتاب بزمان - يقصد كتاب الإقبال - وأنا أدعو في السحر لمن يجب أو يحسن تقديم الدعاء له، ولي ولَمَنْ يليق بالتوفيق أن أدعو له، فورد على خاطري أنَّ الجاحدين لله ﷻ ولنعمه والمستخفين بحرمته والمبدلين لحكمه في عباده

وخليقته، ينبغي أن يُبدأ بالدعاء لهم بالهداية من ضلالتهم»[1]. مُعلِّلًا ذلك بأنّ جنايتهم على الربوبية، والحكمة الإلهية، والجلالة النبوية أشد من جناية العارفين بالله وبالرسول ﷺ؛ فيقتضي تعظيم الله وتعظيم جلاله وتعظيم رسوله ﷺ وحقوق هدايته بمقاله وفعاله، أن يُقدم الدعاء بهداية من هو أعظم ضررًا وأشد خطرًا، إذْ لم يقدر أن يزال ذلك بالجهاد، ومنعهم من الإلحاد والفساد، فشمل دعاؤه كُلّ ضالّ عن الله بالهداية إليه، ولكلّ ضالّ عن الرسول بالرجوع إليه، ولكل ضالّ عن الحقّ بالاعتراف به والاعتماد عليه؛ ثم بعد ذلك يتسلسل دعاؤه فيدعو لأهل التوفيق والتحقيق بالثبوت على توفيقهم، والزيادة في تحقيقهم، ثُمّ بعد ذلك يدعو لنفسه، ومَنْ يعنيه أمره بحسب ما يرجوه من الترتيب [2].

وقد استلهم ابن طاووس هذه الشمولية في الدعاء من القرآن الكريم،مستوحيًا شفاعة إبراهيم ﷺ في أهل الكفر، قال الله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤، ٧٥]، فمدحه ﷻ على حلمه وشفاعته ومجادلته في قوم لوط الذين قد بلغ كفرهم إلى تعجيل نقمته، واستلهم هذا المعاني الجليلة أيضًا من قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ومن سيرة الرسول ﷺ فقد كان كلّما بالغ قومه الكفار في إيذائه، قال ﷺ «**اللّهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون**»، وقول نبينا ﷺ: «**اصْنَعِ الخيرَ إلى أهله وإلى غير أهله، فإنْ لم يكن أهله، فكُنْ أنت أهله**»[3]، وحديث عيسى عليه السلام: «**كن كالشمس تطلع على البر والفاجر**» [4] وقول الإمام علي عليه السلام: «**وأشعر قلبك الرحمة للرعية**

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١/ ٣٨٤.

(٢) ينظر: م. ن: ١/ ٣٨٤.

(٣) أصول الكافي: ٤/ ٤٧.

(٤) بحار الأنوار: ٩٥/ ١٦٧.

والمحبة لهم واللطف بهم..، فإنّهم صنفان إمّا أخ لك في الدين وإمّا نظير لك في الخلق»[1] ويكفي أنَّ الرسول ﷺ بُعث رحمة للعالمين[2].

وتأسيسًا على ذلك كلّه رفع ابن طاووس الحليّ الجماعية والشمولية؛ لأنّ «الفرديّة تعلو فتكوّن الاستبداد، وتسفل فتكوّن الأنانية، وإنّ الجمعية ترتفع فتكون الإنسانية، وتنخفض فتكون العصبية، وإنّ بين الإنسانية والعصبية، شَعبًا يُعَزُّ، وأمةٌ تَرْقى، وذكرًا يَبْقى، وأثرًا يخلّدُ، ولكن بين الاستبداد والأنانية، تحكم الهوى وشقاء العيش، وذلّ الأبـد»[3]، ومن هنا فإنّ الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس كان مؤثّرًا؛ لأنّه إنماز بخصال أخلاقية ثلاثٍ: الفضيلة، والسداد، والبِّر، وهي من الصفات التي حدّدها أرسطو في الخطيب الناجح[4].

هذه الرؤية في الخطاب التفت إليها المعاصرون حرصًا منهم بالارتقاء بالدعوة الإسلاميَّة لكون الإسلام يقصد خير المسلم وغيره، إذ «كان الأولى بالخطاب الإسـلاميّ بعد أن بلغ أشده واتسعت قاعدته أن يوجه خطابه إلى المخالفين له في الفكر والاتجاه، ولا يدعْهم في ضلالهم القديم، وجهلهم الموروث، وسوء ظنهم بالإسلام ودعاته...»[5].

ونطوي هذه السمة الأخلاقية عند ابن طاووس بالقول: إنّ ابن طاووس أراد بناء نسق أخلاقي شامل من أجل الاقتراب من الآخر بشكل كبير؛ واستنهاضًا من أجل وضع الإنسان على المسار الصحيح نحو القمم العليا التي هي عنوان التلاقيّ والتحاور والتواصل بين والشعوب والأمم والثقافات والكيانات.

(١) نهج البلاغة: ٤٢٧.
(٢) ينظر: الإقبال بالأعمال الحسنة: ١/ ٣٨٤.
(٣) وحيّ الرسالة فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع: ٢٠٥.
(٤) ينظر: السبيل إلى البلاغة الباتوسيّة الأرسطية: ٦٠.
(٥) الخطاب الدعوي بين العامة والخاصة (مقال للأستاذ محمَّد الدويش في شبكة المعلومات).

الفصل الثاني

المبحث الثالث

العقلانية

لا يخفى أنَّ أغلب تعريفات علم الأخلاق تؤكد الجانب العقلي فيه، وأنَّ العقلَ وحدَه هو القادر على تشخيص المبادئ والخصال من دون تدخل لأيِّ طرفٍ آخر، يقول محمَّد جواد مغنية: «علم الأخلاق: هو مجموعة من المبادئ المعيارية التي ينبغي أن يجري السلوك البشري على مقتضاها، والياء في المعيارية نسبة إلى المعيار الذي يقاس به غيره، غير أنّ مبادئ الأخلاق ترسم طريق السلوك الحميد وتحدّد أهدافه وبواعثه»[1].

لا جَرَمَ أنّ الأخلاق أساس الحياة، وبالأخلاق يرتقي الإنسان إلى الكمالات وبها نحصل على مجتمع متماسك وقويّ، وآمن تسود فيه العدالة والحريّة والودّ والمساواة، فكلّ عمل يستحسنه العقلاء، فهو من الأخلاق، أو له صلة بالأخلاق فالإيفاء بالعهود، وأداء الأمانات والإحسان والبِّر، ومساعدة المحتاج والمريض وغيرها من الأخلاق التي يرتضيها الرحمن عزّ وجلّ[2].

إنّ العقلَ آلة أخلاقيّة منقاد بالطبع للقوانين الأخلاقية الأبديّة، وهو يعطيها صدر مجلس وجدانه، ومن هنا فإنّ كلّ قضية أخلاقيّة لها وجودها بالحمل الشائع في منزلة العقل الأخلاقيّ، وهكذا يبدو أنّ العقل أخلاقيّ بالذات ولا يصل إلى الأخلاق إلّا بعد التأمل والبحث أو الإكتساب، ومن ثمّ فإنّ الإنسان أخلاقيّ بالطبع، يتلمس أثر قوانين الأخلاق في مرحلة الوجدان الأوليّ الضروريّ[3].

(١) فلسفة الأخلاق في الإسلام: ١٢.

(٢) ينظر: تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام): ٩.

(٣) ينظر: الدين والعلم مطارحات في دَيْننة العلم: ٦٢.

وقد أبدع محمَّد باقر الداماد (ت ١٠٤١هـ) في بيان أثر العقل في إدراك المعقولات والأسرار، قال: «فلا جرمَ... لا حشمة، ولاجاه للإنسان أعظم من إدراك المعقول الجنّة المزيّنة المحلّاة بأنواع حليّها ونعيمها وزنجبيلها وسلسبيلها إدراك المعقولات، ودركات جهنّم بأغلالها وسلاسلها وحميمها وزّقومها متابعة الأشغال الجسمانيّة ومعانقة القوى الدائرة الحسّانية»[١].

حرص ابن طاووس إلى الدعوة إلى إعمال العقل، والتنشيط العقلي، فمن لوازم الخطاب الأخلاقيّ استثمار العقل وتوظيفه، بوصفه عامل التَّمييز ومناط التكليف؛ فهو أعز منال وسبب التكريم، فَلَزِم الحفاظ عليه حفظًا لما أنيط به، وبالعقل كُرِّم الإنسانُ وفُضِّل على سائر المخلوقات؛ ونلمح هذا التصور في جملة من الألفاظ التي جاءت في خطاب ابن طاووس الأخلاقي، منها: (يفكر، العقل، كمال العقل، العاقل، معقولة، القلب البصير، الحكمة، التذكير، حكم الالباب...) وغيرها من الألفاظ الحِكَمية الهادفة، وقد ربط هذا الخطاب بهدف أسمى هو تقوى الله والسعي في رضاه، والإخلاص له (سبحانه وتعالى)، لذلك حرص على عدّ العقل حجةً في أدبياته، وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ مسألة العقلين (النظري والعمليّ) لم تكن محلّ وفاق تام في طبيعة وظيفتهما عند الفلاسفة وعلماء الأخلاق، ففي حين يذهب فريق إلى أنَّ الأول يُعنى بالمسائل الفلسفية النظرية خارج دائرة الأخلاق، والآخر يُعنى بالمسائل العملية[٢]، يذهب آخرون إلى فهم مختلف قوامه أنّ فلسفة الأخلاق أيضا من شؤون العقل النظري، وأمّا وظيفة العقل العملي فتتعدّى ذلك إلى البعث والتحريك[٣].

(١) الصراط المستقيم في ربط الحادث بالقديم: ٨.
(٢) مفاتيح الغيب: ٢/ ٦٠٢.
(٣) ينظر: جامع السعادات: ١/ ٤٨ – ٥٣.

وفطن ابن طاووس إلى أنّ العقلَ هو البوصلة الحقيقة للمعارف، قال: «أما تعلم أنّ العقلَ الذي هو النور الكاشف عن المعارف ما هو مِنْ كسبك، ولا من قدرتك وأنَّ الآثار التي تنظر إليها ما هي من نظرتك، وأنَّ العين التي تنظر بها ما هي من خلقك...»[1]، ويرى أيضًا أنّ المعرفة بالعقل لازمة، وهو أصل العلوم كلّها، وبه حصلت المعرفة، بالفرق بين الحقّ والباطل[2].

وسنفلي بعضًا من النصوص التي تُظهر هذا المرتكز في خطابه، ففي تفسير قوله تعالى ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [ال عمران: ٧]، رادًّا على الفرّاء، الذي قيّد (الآيات المتشابهات) بالحروف المقطعة التي ابتدأت بها بعض السور، قال ابن طاووس: «وأمّا تعيين الآيات المتشابهات بالحروف فهو أيضا تحكّم عظيم، وليس في ظاهرها ما يقتضى ذلك، ولا إجماع على ما ذكره، ولا حجّة من عقلٍ ولا نقلٍ والقرآن فيه من المتشابه التي قد صنَّف المسلمون فيه المجلدات ما لا يخفى والإجماع على أنّه متشابه»[3]، ويبدو أنّ ابن طاووس قد نفى تقييد بيان تفسير الآيات المتشابهات بالحروف المقطّعة، وأشار إلى أنّ القرآن قَدِ انطوى على آيات متشابهات غير منحصرات بالحروف المقطعة، فالإجماع والحجج النقلية والعقلية تؤكد وجودها في القرآن الكريم.

ومن المرتكزات العقلية، وطرائق التدليل العقليّ التي التزم بها ابن طاووس الحليّ في مختلف خطاباته الأخلاقيّة، تدلّ على قوة عقلانيته من جهة، ورسوخ أخلاقيته من جهة أخرى، ناهيك عن اتساع حواريته التي كان لها السهم الأوفر في ظهور القيم الإسلاميّة الأخلاقية عامة، والقيم الإسلامية المنبثقة من أهل البيت عليهم السلام خاصة،

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٥٦.

(٢) سعد السعود: ١٩٠.

(٣) م. ن: ٥٩٧.

وإذا تأملت خطابات ابن طاووس الأخلاقيّة، رأيت هذه المرتكزات العقلية تصرخ فيها، ففي مَعرض إثباته ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وإمامته من لدن المصطفى صلى الله عليه وآله بأمر إلهي، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ﴾ [الرعد: ٧] وقد استظهر ابن طاووس هذه الولاية استظهارًا عقليًا إذ لا يُعقل أنّ يترك النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله أمته هَمْلًا بلا راعٍ ولا رابطٍ، فهو يجعل على المسلمين رئيسًا وراعيًا حينما يذهب في غزوة أو سريّة من جهة، ويؤمّر رئيسًا على العسكر، أو السرية من أجل ضمّ شملهم ورصّ صفوفهم وإصلاح فاسدهم من جهة أخرى فضلًا عن ذلك فإنّ العقل يوجب استكتاب الوصايا قبل الانتقال إلى الرفيق الأعلى جل جلاله، قال ابن طاووس: «ومنها أنّ جدّك صلى الله عليه وآله عليه أفضل السلام والتحية ما كان ينفذ عسكرًا أو سريةً إلّا ويجعل فيهم رئيسًا عليهم يضمّ شملهم ويصلح فاسدهم ويحسن إليهم فكيف تقبل العقول أنّه يترك الأمة كلَّها بعد وفاته إلى الله جل جلاله في مسافة مدتها... ست مائة وتسع وثلاثون سنة وبعدها إلى يوم القيامة؟ ولا يجعل لهم رئيسًا يصلح حالهم ويصونهم عن الذي جرى عليهم من الاختلاف والندامة، ومنها نصوص الله جل جلاله وتقدّس كماله على جدك مولانا علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه بالآيات الباهرات في ذاته وصفاته وفي مقاماته وتعريف الأمّة بكرامته وما أخبرها من أسرار الله جل جلاله ورسوله صلى الله عليه وآله الدالة على أنّها نصوص عليه بأنّ مرجع الأمة في جميع أمورهم إليه... فكيف قبلت العقول أنَّ من يُعلِّم الناس الوصية لمن يخلفونه يترك الوصية بهم بالكلية؟ وقد علم أنّهم يختلفون بعد وفاته ويخالفونه، ومنها أنَّ كلَّ منصف عاقل فاضل من أهل الإسلام بعيد أن يقبل عقله أن محمَّدًا جدك عليه وآله أفضل الصلاة والسلام يتلو عليهم قرآنا يتضمن ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣] ثم يدعي مدعٍ أنّه عليه السلام مات وترك

أمته متحيرين في الإمامة، ومنها أنَّ جدّك محمَّدًا ﷺ كان ما يخرج في غزوة إلّا ويجعل في المدينة نائبًا ومدة الغزوة قصيرة في حياته فكيف يقبل العقل أنّه ترك الأمة مهملة من نائب ينصّ عليه؟ والمدّة طويلة خطيرة كثيرة بعد وفاته»[1]، ونحن نغتنم هذه الفرصة ونفيد من إشارات ابن طاووس الحِلِّيّ في الاستدلال على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، نلفت نظر القارئ العزيز إلى أنّ ابن طاووس الحلّيّ قد انبرى في تصنيف كتابين جليلين، هما: (اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة أمير المؤمنين)، و (التحصين لأسرار ما زاد من أخبار اليقين)، فقد شحنهما وحشدهما بالروايات المتواترة سندًا، والمضبوطة متنًا ودلالةً في إمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام، وألقابه وأحواله كافةً.

وعود على بدء فالعقل آلية حضورية ومقياس فعّال في التحكم في الأقوال والأفعال؛ والتكاليف العامة في الفقه هي الواجبات والمحرمات، والتكاليف المعمَّقة هي المستحبات والمكروهات، وهي التي تربّي الفرد في خطوة أعلى من مجرد الالتزام بما هو إلزامي في الشريعة، فتكون المستحبات والمكروهات الفقهية هي أحكامًا أخلاقيةً بطبيعتها[2]، وقد تنبه ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ للعَلاقة القوية ما بين التكليف والأخلاق؛ لأنّ شروطهما متقاربة جدًا، فمن هذه الشروط التي أوردها ابن طاووس أنْ يكون المكلّف عاقلًا، ومن هنا فقد وصّى ابن طاووس ابنه بالاحتفال سنويًّا بسن التكليف بوصفه كمال العقل فعيد ميلاد المرء عند ابن طاووس ليس بيوم ولادته، وإنّما بكمال عقله وهو سنّ التكليف، قال: «فإذا وصلتَ إلى الوقت الذي يشرّفك الله جل جلاله يا ولدي محمَّد بكمال العقل، وهو جل جلاله أهل من استصلاحك لمجالسته ومشافهته، ودخول مقدّس حضرته لطاعته، فَلْيَكُنْ ذلك الوقت عندك مؤرخًا محفوظًا من أفضل أوقات الأعياد وكلّما أوصلك عمرك المبارك إليه في سنة من السنين فجدّد شكرًا، وصدقات

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٣٨.

(٢) ينظر: فقه الأخلاق: ١/ ٢٠.

وخدمات لواهب العقل الدال لك على شرف الدنيا والمعاد... وإنْ بقيت حيًّا على ما عوَّدني الله ﷻ من رحمته وعنايته، فإنّي أجعل يوم تشريفك بالتكليف عيدًا أتصدّق فيه بمئة وخمسين دينارًا عن كلِّ سنةٍ بعشرة دنانير»[1].

ومن هنا فإنّ صلة التكليف بالأخلاق عند ابن طاووس يمكن إرجاعه إلى أنّ الأحكام الشرعية هي أحكام ذات صبغة أخلاقية واضحة، فضلًا عن أنّ دائرة الوجوب تشمل ما هو أوسع من الوجوب الشرعي، مثل وجوب المحافظة على النظام، أو حتَّى الوجوب الذي يمليه المجتمع نتيجة أعرافٍ معينة، ففي جميع هذه الأحوال يكون الإنسان مأمورًا ومكلَّفًا أمام الجهة الموجبة وإلّا تعرّض إلى العقاب كلّ بحسبه.

وقد ربّى ابن طاووس آلية العقل هذه على روح الاستقلال في الفهم والنظر، واتّباع البرهان ونبذ التقليد، ويتجلَّى ذلك واضحًا بوصيته لابنه راسمًا له بأسلوب بديع الصراع السرمدي بين العقل من جهة، والهوى، والشيطان من جهة أخرى وذلك في رفضه ورده على منْ أشار عليه أنْ يكون حاكمًا بين المتخاصمين على عادة الفقهاء والعلماء من السلف الماضين ومُصلحًا لأمور المتحاكمين، يقول: «فقلت لهم إنَّني قد وجدتُ عقلي يريد صلاحي بالكلية؛ ونفسي وهواي والشيطان يريدون هلاكي بالاشتغال بالأمور الدنيويَّة، وأنا قد دخلت بين عقلي ونفسي والشيطان وهواي على أنْ أحكم بينهم بمجرد العدل ويتفقون كلّهم مع العقل فلم يتوافقوا على الدوام على صواب هذه الأحكام وقال لسان حال العقل إنَّه لا يجوز أن يكون تبعًا لهم على الهلاك والجهل وما تهيأ في عمر طويل أنْ أحكم بين هذين الخصمين أو أصالح بينهم مصالحة تقرُّ بها العين وينقطع معهم المنازعات والمخالفات فمَن عرف من نفسه الضعف عن حكومة واحدة مدة من الأوقات كيف يقدم على الدخول فيما لا يحصى من الحكومات»[2] ثمَّ يقول

(١) كشف المحجّة لثمرة المهجة: ٨٦.

(٢) م. ن: ١٦٥.

مُستلهمًا قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]: «وقُلتُ لهم انظروا مَنْ اتفق عقله ونفسه وطبعه وهواه وقوي على الشيطان وصاروا كلُّهم يدًا واحدةً في طلب طاعة الله ورضاه وتفرغ من مهماته المتعينة عليه فتحاكموا عنده فإنَّه يكون قادرًا بتلك القدرة على فصل الحكومات والمصالحات إذا حضر الخصومة بين يديه، فاعتزلت يا ولدي محمَّد عن رياسة هذا الباب، ورأيتُ في الله ﷻ ونفسي شغل شاغلٍ بمقتضى حكم الألباب» (١).

فهو بهذا يسمو بعقله ويرفع من مكانته مثل أولي العقول الذين قال فيهم الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، [الزمر: ١٨].

وأنضج ابن طاووس الحلّيّ الخِطاب الأخلاقي بلحاظ العقل ممّا يتوصل به إلى تهذيب النفس وتقوى الله ﷻ، فجعله حكمًا في ذلك، قال: «ومن مهمات الذي يريد الصلاة أن لا يدخلها كارهًا ويخرج عنها مستقيلًا، وإيّاك أن تقبل قول مَنْ يقول لك: إنَّها تكليف،والتكليف ثقيل على القلوب، فإنَّ هذا القول بعيد من رضى علّام الغيوب «يقول ﷻ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ﴾ [الحجرات: ٧] فترد أنت عليه هذا القول المقدَّس الصريح في القرآن وتقول أنت بخلاف ذلك وتقدم على البهتان أيقبل عقلك أنّه ﷻ يريد منك أنْ تحبّه ﷻ وتدّعي أنّك قد أحببته ﷻ، وتكره خدمته والتقرب إليه، فهل يصحّ في العقل أنّ المُحِبَ يستثقل العمل في طلب رضا محبوبه أو يكره شيئا ممّا يقرّبه إليه؟» (٢)، ولا يخفى أنّ ابن طاووس

(١) كشف المحجّة لثمرة المهجة: ١٦٥.

(٢) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٢٨٣.

قد وصّى ابنه في ضبط هذه الآلية – كمال العقل– من أجل الوصول إلى الأهداف المبتغاة والنتائج المرجوة وإنَّ سوء استعمال هذه الآلية يؤدي إلى نتائج غير محمودة.

ويمكننا القول: إنّ خطاب ابن طاووس لم يكن عاطفيًا غير علميّ، ولا يرتقي إلى مستوى معالجة الأوضاع الحرجة والملحة للمسلمين في عصره، فكان بصيرًا بالمجتمع وأحواله؛ بمعنى أنّه كان خطابًا عقلانيًا واقعيًا لا يعيش بعزلة وانطوائية بعيدة عن الواقع، فهو خطابٌ أصيلٌ كاملٌ ينتسب إلى العمق الاسلاميّ.

ونطوي فقرات هذه السمة بأنّ الخطاب التهذيبي الأخلاقيّ الاستشهاديّ يعلو على الخطاب النقدي الاستدلالي، فأساسه قاعدة (اعتقاد القول حتَّى يقوم الدليل على بطلانه)، وما ذاك إلّا لأنّ مجال العقلانية الاعتقادية هو عالم القيم، فلو أنّها طُبّقت على الوقائع؛ لأنزلت القانون الطبيعيّ منزلة الأمر التشريعيّ متعاملةً مع الأدنى بما ينبغيّ أنْ يعامل به الأعلى في حين أنّ العقلانية الإنكاريّة مجالها عالم الوقائع، فلو أنّها طبقت على القيم، لأنْزلتَ الأمر التشريعي منزلة القانون الطبيعيّ متعاملة مع الأعلى بما ينبغي أن يعامل به الأدنى [1].

(١) ينظر: الخطاب الإسلاميّ إلى أين؟ حوارات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبدالرحمن): ٢٠.

الفصل الثاني

المبحث الرابع

تعقيب الخطابات الإنشائيّة

إنّ الخطاب الاخلاقيّ قد تأسّس عنده على بنية الإيقاعات، وتعدّد المعطوفات، والجمل التقريرية الطويلة القائمة على التأمل والاعتبار، أو على أساس - كما قلنا آنفًا- الاقتباس من الآيات القرآنيَّة والأخبار، لذلك فإنّ خطابه الاخلاقي، ولاسيّما وإنَّ أدعيته صالحةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وما تحليل ابن طاووس للنفس الإنسانيَّة ومحاولة مغازلتها وملاطفتها إلَّا ليجعل كلَّ قارئ مهتمًا به كأنّه هو المخاطَب (المتلقي)، فهو يُشرك القارئ ويحاوره في ضوء التقنيات الحوارية (اعلم أنَّ...قيل... لعلّك تقول...، فإنْ قلت...) وغيرها من العبارات وهي استراتيجية خطابية يستحضر في ظلّها القارئ بمختلف مراتبه المعرفية وتوجهاته العقدية والذهنية؛ لإقناعه وإمتاعه وبثّ الروح الأخلاقيَّة والإيمانيَّة فيه، فهو خطاب يُقرأ في كلِّ العصور، ولم يُنتج ليُقرأ في عصره.

من سمات الخطاب الاخلاقي الطاووسيّ تعقيب الأساليب الإنشائيّة وتلاحقها في نصوصه المختلفة، وهو ملمحٌ أسلوبيٌ ظاهرٌ، توسّل به ابن طاووس من أجل تكشيف الدلالات واستظهار المعاني فضلًا عن ذلك إرادة إيصال الشحنات والطاقات التعبيرية بكامل تعجيلها وزخمها؛ رغبة منه في الوصول إلى أقصى غايات التواصُل والتحاوُر والإبلاغ مع المتلقين.

وَعَى ابن طاووس نجاح خطابه الأخلاقي، وتحقق دلالات أفعال الكلام في ظلّ تعاقب الأساليب الإنشائية سواء أكانت طلبية أم غير طلبية (أمر، نهي، استفهام، نداء، تمني)...

وهذا ملمحٌ أسلوبي مهم من أجل توالي الإيقاعات، واقتناص الدلالات المختلفة بوصفه نقيبًا للطالبين حينما يوجهه للناس أجمع، وبوصفه أبًا حينما يوجهه إلى أهله وذويه، قال واعظًا ولده لاستلهام العبر من التاريخ ومآل الإنسان: «واعلم يا ولدي محمَّد أنّني كنتُ يومًا أنظر في كتاب من التواريخ المذكورة، فقال لي قائل: في أيّ شيء تنظر؟ فقلت: أنا في حياة، وبين قبور أنظرُ إلى قوم بينما هم في سرور وغرور إذ هجم عليهم هادم اللذات ومفرق الجماعات وصاحب الشتاتات فنقلهم إلى محلّة الأموات وقطّعهم عمّا كانوا فيه من اللذات، وصاروا في ذل الحسرات وأسر الندامات»[1].

وقال مبيّنًا أنَّ الله رقيب بعباده محذّرًا أهله جميعهم بالإقلال من مخالطة الناس؛ لكونها تشغل المرء عن ذكر الله ﷻ والتفرغ للعبادات: «واعلم يا ولدي محمَّد ومن بلغه كتابي هذا من ذريتي وغيرهم من الأهل والإخوان علّمك الله ﷻ وإيّاهم ما يريد منكم من المراقبة في السر والإعلان أنّ مخالطةَ الناس داءٌ معضلٌ، وشغلٌ شاغلٌ عن الله ﷻ مذهل، وقد بلغ الأمر في مخالطتهم إلى نحو ما جرى في الجاهلية من الاشتغال بالأصنام عن الجلالة الإلهيَّة فاقللْ يا ولدي من مخالطتك لهم ومخالطتهم لك بغاية الإمكان فقد جربته ورأيته تورث مرضًا هائلًا في الأديان»[2]، ويظهر تلاحق الأساليب الإنشائية في الخِطاب الطاووسيّ في حثّه على الاقتداء بسنة المصطفى ﷺ قولًا وفعلًا وتقريرًا وهي جماع الأخلاق والآداب لديه ﷺ: «أقول أنا: أيّها المسلم المصدق بالقرآن، الممتثل لأمر الله ﷻ، إيّاك أنْ تخالف قوله تعالى في رسوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧] اسلك سبيل هذه الآداب، فإنّها مطايا وعطايا يفتح لها أنوار سعادة الدنيا ويوم الحساب»[3]، فتلاحقت أساليب: النداء (أيها)، وأسلوب التحذير (إيّاك)،

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٢٩.

(٢) م. ن: ١٠٢.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١/ ٢٤٥.

والأمر (اسلك)، فتعدد هذه الأساليب في النسق الطاووسيّ، يعطي شحنات تعبيرية وإيحائية للمخاطَب من أجل إثارة انتباهه وإبلاغه.

ومن الخطابات الأخلاقيَّة الطاووسيَّة التي توافرت على تلاحق الأساليب الإنشائية، قوله في إظهار الصبر في استجابة الدعاء: «وإذا تأخرت عنك إجابة الدعاء وبلوغ الرجاء فابكِ على نفسك بكاء مَن يعرف أنّ الذنبَ له، وأنّه يستحقّ لأكثر من ذلك الجفاء، فَكَمْ رأينا – والله – يا ولدي عند هذه المقامات من فتوح السعادات والعنايات ما أغنانا عن سؤال العباد وعن كثير من الاجتهاد»[1]، فنلمح تلاحق الأساليب الإنشائيّة: الاستفهام (كَمْ)، والقسم(والله)، والنداء (ياولدي)؛ من أجل قوة الخطاب واستظهار الدلالات المتنوعات للوصول إلى المقاربات التداولية التي تساعد على إحداث التواصل والإبلاغ.

ونقدح بتعاقب الأساليب الإنشائية وتلاحقها في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ النصوح حينما دعا المخاطَب إلى الاقتداء بآثار الصالحين والاهتداء بأنوارهم، وعدم تضييع الوقت باغتنام الغفلة وطلب الشهوة، قال:«أيّها العبد المسكين هل يصحّ انْ يكون الله ﷻ ما يحبك وتكون من المسلمين انظر في شفاء سقام قلبك ودينك فداؤك عظيم دفين وهلّا اهتديت فاقتديت بمن تذكر أنّك تهتدى بأنواره وتقتدى بآثاره وكيف كانت أحوالهم في ليلهم الذي تضيعه أنت باغتنام الغفلات وطلب الشهوات كأنّك دابةٌ قد رفع عنها حكم التكليفات» [2]، فلا يخفى تلاحق الأساليب الإنشائية وتعقيبها في النسق الأخلاقيّ الطاووسيّ المتمثّل في النداء (أيّها العبد المسكين)، والاستفهام (هل يصحُّ؟)، والأمر (انظرْ)، والتحضيض (هلَّا اهتديت)، وهذا التلاحق يعطي دلالات متنوعات من أجل قوة الخطاب والوصول إلى أعلى درجة من درجات تنبيه المخاطب وإيقاظه.

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٧٣.

(٢) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٢٦٤، ٢٦٥.

لاريبَ أنّ الخطاب الأخلاق الطاووسيّ قد آنس تلاحق الأساليب الإنشائيّة وتعقيبها، وإذا تأملتَ خطابه في العبادات، ولاسيّما الصلاة، رأيت هذه الملاحقة الإنشائية الجميلة، قال: «فاعلم: أنّها تستدعي لك الحضور بين يدي مالك الأحياء والأموات فبادر إليها بالتشريف والاستبشار بتلك العنايات، واترك كلَّ شغل لا يعذرك اللهﷻ في الاشتغال به عنها فإنّه يصير ذلك الشغل مخالفة على مولاك وتصغيرًا لأمره وتخاطر مخاطرة لا تأمن أنّك لا تسلم منها ولا تلتفت إلى قول مَنْ يسهل عليك تأخيرها عن أوائل الأوقات وجرّب ذلك القائل لو كلفك حاجة وأخرتها عن أوائل قدرتك أفما يكون يلومك، ويشهد أنّك مستحقٌّ للمعاتبات؟، وما تعرف حقّ المودات، ولكنّهم جاهلون باللهﷻ وعظمته ونعمته فيريدون منك أن تحترمهم أكثر من احترامك لجلالته وأنْ تكون محبتّك ومودتّك لهم أكثر من محبته، فإيّاك أن تقتدي بهم في التهوين بمولاك فقبيح وعظيم وفظيع أن يساوي العبد بالمولى، وخاصة وهو يراك»[1]، إذ ابتدأ الخطاب بأسلوب الأمر (فاعلمْ، فبادرْ، واتركْ)، والنهيّ (لاتأمنْ، لاتسلمْ، لاتلتفتْ)، ثم لاحق ابن طاووس النهي الأمرَ (جرّبْ)، والاستفهام (أفَما يكون؟).

إنّ أيّ أسلوب بلاغيّ - كما يقول الدكتور حسين جمعة - مهما قيل فيه قديمًا وحديثًا «إنّما هو بنية لغويّة دلالية مباشرة وغير مباشرة، يحمل وظائف الإثارة والإمتاع في الوقت الذي يحمل وظيفة التوصيل والإفادة بنقل الأفكار، ولهذا فوظيفة الأسلوب البلاغيّ ذات وجوه متعددة...، فالأسلوب البلاغيّ بوصفه ظاهرة بلاغيّة، تجمع بين عناصر الأدب والفن واللغة والحياة في بنية فنية مثيرة للعاطفة والوجدان والعقل»[2].

وتتزايد وتتعالى سمة تلاحق الأساليب الإنشائية وتتلعلع في خطابه الأخلاقيّ المجلجل في حثّه ولده على أداء الزكاة: «لا بالله يا ولدي لا تفضحني ولا تفضح نفسك

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٤١.

(٢) جمالية الخبر والإنشاء دراسة جمالية بلاغية نقدية: ١٧.

مع الله ﷻ المنعم عليّ وعليك ولا تخجلنا معه ومع سلفك الطاهرين، واعتقد المنة لله ربِّ العالمين كيف أكَرمَكَ وسلّم مالَه إليك؟ وكيف رضيك مُستودعًا؟ وكيف جعلك أهلًا أن يبعث رسوله ﷺ إليك، فإنّ العقل قضى أنَّه إذا كان عندي وديعة لسيِّدي، وأنا عبده وهو ﷻ يقوم بكلِّ ما أحتاج إليه وطلبها إنّني أسلمها إليه ولا أطلب جزاء منه ولا أذل بذلك عليه بل يكون قد خفَّف عني مؤونة حفظها ورعايتها وشرّفني بجميل ذكري بتأدية أمانتها»[1]، إذ ابتدأ الخطاب بالقسم (بالله)، فالنداء (ياولدي)، فالنهيّ (لا تفضحني، لا تفضحْ، لا تجعلْنا، فالأمر (اعتقدْ، سلّمْ)، ثمَّ الاستفهام (كَيْف أكرمك؟، كيف رضيك؟، كيف جعلك؟)، يقينًا أنّ التكثيف الإنشائي في هذا الخطاب فضلًا عن وظيفته الأخلاقيَّة يتّجه إلى السمة الجماليَّة المثيرة للدهشة، والانفعال والإدراك [2].

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٣٤.

(٢) جمالية الخبر والإنشاء دراسة جمالية بلاغية نقدية: ١٦.

الفصل الثاني

المبحث الخامس

تخيّر الألفاظ

إنّ أساس الفعل الكلاميّ في أيِّ اتّصالٍ يعدّ الاختيار أساس نجاح الرسائل الإبلاغية، مهما تنّوعت تجلياتها، ويعدّ هذا من الآليات التي تكشف عنها التداولية، يقول أبو هلال العسكري: «ومن الدليل على أنّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما عُمِلت لإفهام المعاني فقط؛ لأنّ الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها فى الإفهام، وإنَّما يدلّ حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم المنشئ» [1].

وهو على صلة بالخطبة في حدّ ذاتها؛ إذ تقتضي انتقاء الكلمات التي تجعل المستمع أكثر متابعة، فمن «تمام آلات البلاغة التوسّع فى معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها؛ والعلم بفاخر الألفاظ، وساقطها، ومتخيّرها» [2]، والتخيير ههنا يومئ إلى التنويع في استعمال اللفظ بحسب المقام من جهة والمتلقين من جهة أخرى، بلحاظ أنّ السامعين تختلف مستوياتهم لذلك يخاطبهم بحسب درجاتهم، فأساس بناء الخطاب يقتضي التدبّر والتحقّق في اختيار الألفاظ ليسهم في رونقة الكلام، وجريانه مجرى السيل، ومن الكلام الجاري مجرى السيل وهو على صلة بالخطاب في حدّ ذاته؛ إذ تقتضي انتقاء الكلمات التي تجعل المستمع أكثر متابعة، والتخيير ههنا يومئ إلى التنويع في استعمال اللفظ بحسب

(١) كتاب الصناعتين: ١/ ٥٨، وينظر: الاتصال اللسانّي وآلياته التداولية: ١٠٣.

(٢) كتاب الصناعتين: ١/ ٢١.

المقام من جهة، والمتلقين من جهة أخرى؛ لكون السامعين تختلف مستوياتهم لذلك يخاطبهم بحسب درجاتهم.

وسنعرض نصوصًا أخلاقيّة طاووسية تتجلَّى فيها هذه السمة، من ذلك وصيته لابنه في حفظ الجوارح وأداء حقوقها، قال: «واعلم أنّ جوارحك بضائع معك لله ﷻ؛ وأمانات جعلك تاجرًا فيها لنفسك ولآخرتك فمتى صرفتها في غير ما خُلِقت له من الطاعات والمراقبات أو أنفقت وقتًا من أوقاتك في الغفلات، كان ذلك الخسران عائدًا إليك بالنقصان ومثمرًا أنْ يعاملك سيّدك بالهجران واستخفاف الهوان» [1]، فنلمح الإتقان في تخيّر الألفاظ ذات الدلالات المتقاربات تداوليًا، كأنَّها تنتظم في حقل دلاليّ، (بضائع، أمانات، تاجرًا، صرفتها، أنفقت، الخسران، النقصان، يعاملك).

وتتجلَّى سمة تخيُّر الألفاظ في بيان أثر الإخلاص والتأدب مع الخالق ﷻ لضمانة إجابة الدعاء مبيّنًا – ابن طاووس – تقنية الحِجاج في قبول الدعاء، قال: «فبالله عليك كيف ترجو وأنتَ مستخفٌّ في الفعال والمقال أن تظفر بإجابته الابتهال؟ فهل رأيت عاصيًا يتقرّب إلى سلطانه بعصيانه أو طالبًا يتقرَّب إلى مَن يطلب منه بهوانه» [2]، فلا تخفى الذائقة الطاووسيَّة في اصطفاء ألفاظ يجمعها نسقًا صوتيًا واحدًا (الفعال والمقال، عاصيًا طالبًا، سلطانه عصيانه، هوانه)، وقال في موضع آخر: «إنّي متوسّل إلى مَنْ لا يتعاظمه ذنوب أنْ يغفرها ولا عيوب أن يسترها ولا عثرات أن يقيلها ولا كربات أن يكشفها ويزيلها بجميع ما ذكرته من الوسائل المنجحة للمسائل في أن يقبل منّي ما سألته» [3]، فاصطفى ابن طاووس ألفاظًا يجمعها نسقٌ صوتٌي واحدٌ (يغفرها، يسترها، ذنوب، عيوب، عثرات، يقيلها، يكشفها، يزيلها)، (الوسائل، المسائل).

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٢٠.

(٢) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٤٨.

(٣) م. ن: ٣٣١.

وتأمل معنا أيّها القارئ الحبيب دعاء ابن طاووس، الذي ختم به كتابه مهج الدعوات ومنهج العنايات، ممّا جاء على خاطره، قال: «اللّهم إنّك ابتدأت بالإحسان قبل منطق اللسان وفتحت أبواب الآمال وتفضلت بالنوال قبل السؤال ودلَّلت على عفوك ذوي الألباب وأذنت لهم في محكم الكتاب بالخطاب ثم أمرتهم بالدعاء ووعدتهم بنجاح الطلاب وهددتهم أن لم يسألوك وثقتهم عن الجواب وها أنا ذا امتثل مقدس مراسمك في التعرض لما وعدت من مراحمك واثقًا بشهادة العقول أنَّ الكريم الجواد إذا أذن في السؤال ووعد بالقبول فإنّه ينزه كماله عن التوقف في المسؤول به وهو قادر على بلوغ المأمول» [1].

تجد الاصطفاء الحسن والاختيار المدروس للألفاظ، ويبدو أنّ المكنز الثقافي الوسيع من جهة، وقلبه الأخلاقيّ الكبير قد ظهر في هذا الاصطفاء الأدبي والتربويّ، و يتجلَّى هذا الاصطفاء في (ابتدأت، فتحت، تفضَّلت، دلَّلت، أذنت، وعدت، هدَّدت)، (الإحسان اللسان، الآمال، النوال، السؤال)، (مراسمك، مراحمك، العقول، القبول، المسؤول، المأمول).

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٦، ٣٢٧.

المبحث السادس

مزية الفضاء (الزمكانيّ)

اعتنى ابن طاووس بالجانب الدعائي عنايةً كبيرةً في مصنَّفاته قياسًا بالتصنيف في سائر الجوانب الأخرى،فأضحى الدعاء الصفةُ الغالبةُ في مصنَّفاتِهِ؛ لكون الدعاء يركّزُ على المعرفةِ الأخلاقيةِ والقيمِ الإنسانيَّةِ النبيلةِ، فالدعاءُ منهجٌ ارشاديٌ يستعملُ التكرارَ، ومعالجةَ السلوك بأضدادهِ، وإثارةَ العاطفة والتنفيرَ من الرذيلة، والترغيبَ في الفضيلة، ويستعملُ أسلوبَ الوقايةِ والمعالجة في تربيةِ الشخصيةِ العباديةِ وتعديل سلوكها، كما أنَّه يشكلُ مناخًا تربويًا مناسبًا من شأنه تهذيب الأمة الإسلاميّة بأطيافها كافة، والدعاء مقدمة للقرب الإلهي، فهو بنفسه أيضًا يعدّ من أبرزِ مصاديقِ التقرب الإلهية، إذن هو مقدمة وهو خاتمة بنفسه.

إنّ العبدَ إذا طلب من الله ﷻ أحسّ بالعزّة؛ لذلك فالدعاء طلب ومطلوب، وسيلة وغاية، لم يحب أولياء الله شيئًا أكثر من حبِّهم الدعاء، فكانوا يعرضون كلّ طلباتهم، وأمانيهم على محبوبهم الحقيقيّ، وهم يولون طلباتهم من الأهميّة بالقدر الذي يولون لنجواهم مع الله ﷻ دون أنْ يحسُّوا بتعب ولا نصب [1].

ومن المزايا المهمة للخطاب الطاووسيّ الأخلاقيّ ولاسيّما بالجانب الدعائي مزية الفضاء وهو تمثل (أيقوني)، وبيانه أنّ الإنسانَ يدرك العالم إدراكًا بصريًا، فالإنسان يرجع العلاقات اللغويَّة إلى أشياءَ بصريَّة، ومن هنا يمكن عدّ المبدأ الأيقونيّ، والصفة البشريّة من أهم الأنساق اللغوية الأصلية [2].

(١) ينظر: محاضرات في الدين والاجتماع: ١١٩.
(٢) ينظر: مشكلة المكان الفني: ٦٨ الأيقون: الصورة أو المثال.

وقد رسم لنا ابن طاووس صورًا فنية تستمد زخمها الدلاليّ من سياقها التاريخي، فأضحت أدعيتُه ومناجاتُه ووصاياهُ ورسائلهُ مسبارًا يكشف عن تعلقاته النفسيَّة والروحيَّة بالخالق العظيم في ظلّ ربطها بالأنساق الزمانيَّة والمكانيَّة، ممّا جعلها كمشارط الجراحين تدخل في أعماق طبقات النفوس.

إنَّ الفضاءات في خطاب ابن طاووس الأخلاقيّ ولاسّيما في الدعاء، قد أحدثت صحوة ارتدادية في نفس المتلقي فتحوّل الخطاب لديه إلى وسيلة وآلية موجهة إلى المتلقّي ينصر المظلوم ويفضح الظالم، زدْ على ذلك يحاول إلقاء الاطمئنان والسكينة في نفس المخاطب من جهة، ويحذّر من التكاسُل والتهاوُن في عمل الخير من جهة أخرى، فالدعاء له أثرٌ كبيرٌ في نشر الأخلاق الإسلاميَّة السامية، إذ يُعدّ من الأساليب المؤثرة في هذا المضمار، والقرآن الكريم يقرّر حقيقة أنَّ الدعاء طريق ارتباط العباد بالله ﷻ، ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فنبّه ﷻ على أنّ تركَ الدعاء استكبارٌ عن عبادته، وسبب لدخول النار والعذاب المهين[1].

والدعاء ليس فقط سبيل للنجاة، بل هو أيضًا سبيل للوصول إلى المراتب العليا من الكمال، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال «إنَّ عند الله منزلة لا تُنال إلّا بمسألة»[2]، كما أنَّ الاستكبار وترك الدعاء، يؤديان إلى أنْ يفقد الإنسان استعداده وقابليته لتقبّل الرحمة الإلهيَّة.

وقد نهج ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ ولاسيّما في الدعاء منهج مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فقد تضمَّنت الأدعية مقاطع مهمة وخاصة فيها توسل واستشفاع ترتبط

(١) ينظر: فلاح السائل ونجاح المسائل: ٦٨.
(٢) الكافي: ج ٢/ حديث ٤٦٦.

بأنساق زمانيَّة ومكانيَّة داعيًا العبد أن يكون متحفظًا من السيئات بخلاف ما لا يجري مجراها من الجهات والأوقات، فإنَّه ينبغي تعظيمه بحسب الأوامر الشرعية فهو يُعنى بفضاء الأماكن المكرمات: المسجد الحرام، والكعبة، ومسجد النبي صلى الله عليه وآله؛ وبيت المقدس، والمشاهد المشرفة، والمساجد المباركات، وكلُّ موضعٍ أتى بتعظيمه سواءٌ في القرآن الكريم، أم في الأحاديث النبويّة، والروايات الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام [1].

ويعيّن الأزمنة المتبرّكة؛ استنادًا للآيات وبعض الروايات مثل ليلة الجمعة، وليلة القدر، وشهر رمضان، والأشهر الحرم، والأيام المعلومات، والأيام المعدودات، وغيرها من الأوقات المحترمات [2]؛ و(عند زوال الشمس، وعند الأذان، وفي أول ساعة من ظهر يوم الجمعة، وفي آخر ساعة من يوم الجمعة وفي الثلث الأخير من كلِّ ليلةٍ وفي ليلة الجمعة كلّها وعند نزول المطر وبعد فرائض الصلوات وعقيب صلاة المغرب إذا سجد بعدها وعند وقت الخشوع وعند وقت الإخلاص في الدموع إذا بقي من النهار للظهر نحو رُمْح كلِّ يوم) [3] و من ذلك أيضًا (دعوات ليالي القدر الثلاث وخاصة أنَّ علمها أحد بذاتها وإلّا فإنّ ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان أرجح في تعظيم الدعوات وإجابتها فمن ذلك أيام هذه الثلاث ليالي ومن ذلك يوم مولد النبي صلى الله عليه وآله وليلة مبعثه الشريف ويومه ومن ذلك يوم عرفة وليلة عرفة وخاصة إذا كان بالموقف أو عند الحسين عليه السلام، ومن ذلك ليالي الأعياد الثلاث وأيامها وهي ليلة عيد الغدير ويومه وليلة عيد الفطر ويومها وليلة عيد الأضحى ويومها ومن ذلك أوَّل ليلة من رجب ويوم النصف منه وليلة النصف من شعبان»[4] ومن ذلك – على سبيل المثال لا الحصر – ما

(١) ينظر: محاسبة الملائكة الكرام: ٣٦٦.

(٢) ينظر: م. ن: ٣٦٦.

(٣) ينظر: مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٤٣٣.

(٤) ينظر: م. ن: ٤٢٦.

نقله عن كتاب الأزمنة للمرزبانيّ عند ذكره ليوم الاثنين والخميس، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يصوم يوم الاثنين والخميس، فقيل له لِمَ ذلك؟ فقال ﷺ: إنَّ الأعمال تُرفَعُ في كُلّ اثْنَيَن وَخَميس، وأحبُّ أنْ يُرفَعَ عملي وأنا صائِمٌ) [1]؛ وإزاء ذلك فإنّ ابن طاووس يدعو الناس إلى أنْ يكونوا متحفظين بكلِّ طريقٍ، في طلب التوفيق، وإنْ يكونوا مجتهدين في السلامة، من الإضاعة، بغاية الإمكان، فإنّ العقل والنقل يقتضيان: أنّ زمان عرض العبد على السلطان، أنْ يكون مستعدًا ومستحفظًا بخلاف غيره من الأزمان، ويذكر اللحظات التي يستجاب فيها الدعاء مثل سقوط المطر ووقت السحر، وعندما يجود الإنسان بنفسه (يحتضر)؛ ومَن يقرأ مؤلَّفاته يجد هذا التناغم؛ فهو يحترم ويحتكم كثيرا إلى المناسبات ويستند في تعيينها إلى الروايات الصحيحة، والدقة في النقل فضلًا عن ذلك يفصّل في أعمال الليلة وغيرها.

كان على خطى أهل النبوة في معرفة الله تعالى في تزكية النفس وعرفانها، فأدعية الليل والنهار والأذكار الأسبوعية السنوية، والأذكار الفصلية، كلُّ ذلك منسوب بأوراد فهو ليس مخترعًا ولا مبتدعًا، وكان عرفانيًا في تهذيب النفس تبعًا لما ورد عن النبي ﷺ فأعماله ورياضاته شرعية، وليس الجلوس في الظلمات، وتكرار بعض الكلمات في العزلة والغرف المظلمة؛ وعرفانه عرفان الإمام زين العابدين عليه السلام ورياضاته رياضات الصحيفة السجادية أدعية وأذكار مفاتيح الغيب، الأوقات الشرعية، الأعمال المسنونة، زيارة الأئمة عليهم السلام إلى مراقدهم ومقاماتهم، كان للعرفان الطاووسيّ ميزة عظيمة، ومزيّة كبيرة، أدعيته وأوراده طبقًا للموازين الشرعية للأئمة عليهم السلام، فوق الأرض لا تحتها، جهارًا لا سرًّا، لا يتكلّف لا يغمض، لا يعمي العبارات؛ والألفاظ في غاية الوضوح والبيان لا يتمتم ولا يغمض ولا يُلْبِسُ؛ فتهذيب النفس وتهذيب الآخرين مأخوذٌ من القرآن الكريم، والمصطفى ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام.

(١) ينظر: محاسبة الملائكة الكرام: ٣٥٨. و بحار الأنوار: ٥٩/ ٤٩ حديث ١٠.

الفصل الثاني

المبحث السابع

التقابلات الدلالية

التقابل في اللغة:«تقول لقيته قِبلًا: أي مُوَاجَهةً، والمقَابَلةُ: إذا ضممت شيئًا إلى شيء، تقول: قَابَلْتُه به»[1] وعند ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ):- «القاف، و الباء، واللام): أَصْلٌ واحدٌ صحيحٌ؛ تدل الكلمة كُلُّها على مُوَاجَهةِ الشيء للشيءِ، ويَتَفَرَّعُ بعد ذلك»[2].

أمّا في الاصطلاح، فلا يخرج المعنى عن معناه اللغويّ فتظهر معانٍ متقاربات، منها: التضاد، والطباق، والمقابلة، والتكافؤ... وغيرها، وقد جمعها العلويُّ (ت٧٤٩هـ) في طـرازه، بخمسة مصطلحات، هي:التطبيق،والتضاد، والتكافؤ، والطباق، والمقابلة،مفرِّقًا بين الطباق والمقابلة بأن التضاد إذا كَثُرَ سُمِّيَ مقابلة[3].

انطلق ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ من نسق تصوري مهم قائم وواضح على التقابلات الدلالية، قال في دعاء العبرات، وهو من الدعوات المذخورة، والأسرار المستورة بدعاء أورده الله ﷻ على خاطره، وهو المنشئ للسرائر، والمالك للبصائر، قال: «وقد علمت أني أعصيك فيما لا يزال صغيرًا وكبيرًا ظاهرًا ومستورًا وبالمراحم والمكارم التي نقلتني بها من ظهور الآباء إلى بطون الأمهات» [4]، فتلمح تقابلًا دلاليًا ذات علاقة ضديّة بين، (صغيرًا – كبيرًا)، (ظاهرًا – مستورًا)، (ظهور الآباء – بطون الأمهات)،

(١) العين (مادة قبل): ٥/ ١٦٨.
(٢) مقاييس اللغة (مادة قبل): ٥/ ٧٣٣.
(٣) الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٣٨٢.
(٤) مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٣٢٦.

وقال: «واضربهم بتكرار أخطار البلاء والابتلاء حتَّى يقدموا عليك وقد خسروا سعادة الدنيا والآخرة وأتلفوا ما ظفر به السعداء من النعم الباطنة والظاهرة»[1]، فالتقابل الدلاليّ بين (الدنيا – الآخرة)، و (الباطنة – الظاهرة) ذو علاقة ضديّة.

ونلمح هذه العلاقة في أغلب خطاباته الأخلاقيّة كما هو الحال في التقابل بين (الحياة والموت)، و (الإقبال والإدبار)، و (عجزنا وظفرنا)، و (الأوائل والأواخر)، و (حار وبارد)، و(رطب ويابس)، (يؤدّي، يخون)، (يصفو، يتكدر)، (يستر، يجاهر)، (يتقرّب، يتباعد)، (البانون، المفطرون)، (يحسن، يسيء)، (يقبل، يعرض)، قال ابن طاووس موصيًا ابنه بأن يكون أهلًا لاستقبال نعم الله ﷻ قال: «ثم جعلك الله ﷻ يا ولدي محمَّد وساير المكلفين أهلًا أن يكتب إليكم كتابًا من مقدس جلالته وعظيم ربوبيته مع غنائه لذاته عن خليقته وأن يبعث رسلا من نوابه وأنبيائه وخاصته ولم يكن بنو آدم في مقام أن يبلغ حالهم إلى هذا المقام من كرامة ثم بلغ الأمر بين الله ﷻ القادر القاهر مالك الأوائل والأواخر وبين بني آدم الضعفاء والأذلاء الأصاغر الذين انتظم حال وجودهم من تراب وروح كالهواء إلى أن بنى لهم الدنيا قبل معرفتهم به وخدمتهم له وفيها ما هم إليه محتاجون وما أتعبهم في بنائها وإنشائها ولا كانوا ممّن يقدرون، فلا يعترفون ولا يشكرون حتَّى كأنَّهم البانون لها والفاطرون، ثم يحسن ويسيئون ويقبل فيعرضون ويعدهم فلا يتقون ويتقرب إليهم فيتباعدون ويتحبب إليهم فيكرهون ويؤدي الأمانات إليهم فيخونون ويصفو معهم فيتكدرون ويستر عليهم فيجاهرون ويطلع عليهم فلا يستحيون ويتهددهم فلا يخافون ويطلبهم عدوهم فيسارعون ويسألهم أن يسكنوه في قلوبهم التي هي من جملة ما وهبهم فلا يفعلون ويبذل أجرى السكنى أوَّلًا وحاضرًا ومستقبلًا فلا يقبلون ويطلب منهم بعض ما أعطاهم ليدخرها لهم فلا يجيبون وفرض عليهم ما ينفعهم فيعرضون ويريهم الآيات في أنفسهم وفي الآفاق فلا يبصرون ويوثقهم

(١) مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٣٣٠.

من دار قد عمرها لهم كاملة الصفاء دائمة البقاء ويريد انتقالهم إليها فلا يوافقون» [1]، ونقدح في النص تقابلًا دلاليًا ذا علاقة (الإيجاب والسلب) ويكون في فعلين الأوَّل مثبت، والثاني منفيّ، في (يريهم، لايبصرون)، (ويريد انتقالهم، لا يوافقون).

وثمَّة تقابل دلالي ذو علاقة أخرى (العدم والكسب) ويراد به أنّ أحد المتقابلين معدومًا عن الصفة، والآخر مكتسب لها، قال ابن طاووس: «واعلم حفظك الله يا ولدي محمَّد وحفظ ما أنعم وينعم به عليك وأوزعك شكر ما أحسن به إليك، إنَّ وجودهﷻ وصفاته ليست مناسبة لوجودنا وصفاتنا في شيء من الأشياء؛ لأنَّنا موجودون بهﷻ ويتصرف فينا تارة بالإنشاء وتارة بالإفناء وتارة بالحياة وتارة بالموت وتارة بالعافية وتارة بالسقم وتارةً بالشباب وتارةً بالهرم وتارةً بالغنى وتارةً بالفقر»[2]، وتأمل التقابل الدلاليّ ذا العلاقة (العدم والكسب) في خطاب ابن طاووس في كتابه الدروع الواقيّة، قال: «أحمد اللهﷻ بما وهب لي من القدرة على حمده، وأُثني عليهﷻ على توفيقي لتقديس مجده، وأطوف بلسان حال العقل حول حمى كعبة مراحمه ومكارمه ورفده، واستعطفه ببيان مقال النقل رجاءً لتمام رحمته وحلمه عن عبده، واسمع من دواعي النصيحة والإشفاق، ورسل رسائل أهل السباق، حثًا عظيمًا على التلزم بأطناب سرادقات منشئ الاحياء، ومُفني الأموات، وواهب الأقوات، ومالك الأوقات، حتَّى لقد كدت أن أجدني كالمضطر إلى الوقوف بمقدّس جنابه، والمحمول على مطايا لطفه وعطفه إلى العكوف على شريف بابه» [3].

وللتقابل الدلالي أثر مهم في الخطاب الأخلاقي عند ابن طاووس، فهو يحضر بقوة في أدعيته ورسائله ووصاياه، فالطبيعية الشيطانية تقابل الطبيعة الملائكية، وكذلك صفات الطبيعتين، الأولى: الشيطانية، مثل: الخبث،والوقاحة، والرياء، والعبث، والحرص،

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٣٠.

(٢) م. ن: ٢٥.

(٣) الدروع الواقيّة: ٣٢، ٣٣.

والشبع، والملق، والحسد، والتهور، والشماتة، والبذخ، والتكبر، والاستهزاء، والمكر.. وغيرها، وأمّا صفات الطبيعة الملائكيّة، فهي: العلم، والشجاعة، والحكمة، والكرم، والعفة وضبط النفس، والصدق، والحلم، والزهد، والعفو، والورع.. وغيرها.

قال في مقدمة كتابه جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: «أحمد الله ﷻ الذي أيقظ ذوي السنة من أهل الوجود بألسنة الفضل والكرم والجود، وعلم العبد المخلوق من التراب حتَّى تكلَّم بمحكم الآداب على منابر الصواب، وألبس العقل من خلع أنواره حتَّى أجلس صاحبه بالفضل على أرائك ممالك أسراره، ورفع بالرياسة منازل مملوكه وعبده عن نوازل مهالك، وظلّل ظلال فهمه بما أسبل عليه من حلل كمال رحمته وحلمه، وكانت حياته مواتًا فأخذه بيد قدرته من عدمه وأعاشه، وكان عظمه عريانًا فكساه لحمًا من نعمته وراشه، وكان إمكانه رفاتًا فأخذ بيده وانتاشه، وكان لسانه مقفلًا ففتح بمفاتيح جوده أقفاله، وكان إنسانه مهملًا فأوضح بمصابيح شمس سعوده إقباله، وكان بصره في الأفق اكمه فكحله بميل فضله حتَّى أبصر سبيل مثله، وكان سمعه في الطرف متيها فنحله من نعم كرمه ما شفاه من سقم صممه، وكان قلبه في مخافة أخطار الجهل فتداركه بالرأفة وأنوار العقل، ولم يغنِ ﷻ شيئًا من هذه المواهب عنه سبحانه»[1].

وههنا كلام ينبغي أنْ نذكره: أنّنا لو بحثنا عن سرِّ هذه التقسيمات والتقابلات الدّلاليّة، لوجدنا أنّ مصدرها القرآن الكريم، والأحاديث النبويّة الشريفة، وكلمات أئمة أهل البيت عليهم السلام، فمحورية التقابل الدلاليّ حاضرةٌ عنده.

(١) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ١٥.

الفصل الثالث

الأفعالُ الكلاميّةُ في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحِلِّيّ

الفصل الثالث

مدخل

لاريبَ أنّ الأخلاق ليست نصوصًا ومتونًا تُلقى وتُحفظ، فإنّنا عندما نُريد دراسةَ الخطاب الأخلاقيّ تداوليًّا نرمي إلى قضية مهمة، فلا يتعلق الأمر بتعاليم أخلاقيَّة بالمعنى الوعظيّ والإرشاديّ للعبارة على ما للأخلاق العامَّة وتعاليمها المحفوظة في خزائن الكتب والأسفار الدينيَّة والحِكَميَّة والأدبيَّة من أهمية في تأهيل العقل لطلب فلسفتها، فضلًا عن أنّ البشرية لاتزال تُدين لهذا النمط من التخليق في ما تبقّى من معنى لاجتماعها الإنسانيّ غيرَ أنّ الأمر هنا يتعلق باستشكال السؤال الأخلاقي من وجهة نظرٍ فلسفية يجعل الأخلاقَ مجالًا لاقتحام النسبيَّة والعرضيَّة والديناميَّة والبراغماتيَّة وما شابه، أي السؤال الذي يدرس الأخلاق حقيقتها وجدواها وأنماطها ضمن النشاط الفرديّ والجماعيّ الشخصيّ والمؤسساتيّ في حياة البشر ضمن صيرورة سوسيو – اقتصادية وثقافية تكون الأخلاق منها أمرًا ينتجُ ويؤخّرُ ويتأثّرُ بـ(المعنى النيتشيّ) إنّها إعادة إنتاج قيم مختلفة تنهض على السؤال النقدي،أيّ: السؤال الذي يبحث في إنسحاب أخلاقٍ وبروز أخرى مَحِلها، أو صراع أخلاق مع أخرى، فقد ظّلت الأخلاقُ تشكّل درسًا واحدًا لدى مختلف الثقافات والحضارات؛ لتنهض على أساس التلقين والتعلم والتدريب وتكوين الملكة الآمرة – الحاثّة على خير محدّد ثابت لا يتغير، والناهية الزاجرة على شرّ محدَّد لا يتغير، لكنْ سرعان ما حدث تحولٌ في فلسفة القيم سعى، ولا يزال يسعى إلى قلب هذه القيم وإحداث تغييرات جذرية في المنظومة الأخلاقية للإنسان [1].

(١) ينظر: أخلاقنا في حاجة إلى فلسفة أخلاقنا بديلة: ٨٧، ٨٨. المعنى النيتشي: نسبة إلى =

ويرى إدريس هاني: «إنّ دعوى إمكان الاستغناء عن تعلّم الأخلاق والاستزادة منها يُعدُّ جهلًا بامتياز، بَلْ إنّه الجهلُ الذي يتّسع بصورة جدلية مع تقدّم العلوم، وسيادة الغرور والإحساس بالاكتفاء بذلك الوهم الذي سُمّي يومًا بموضوعية العلم، وأقصد بذلك أنّ الأخلاق ليست أمرًا يحضرُ في وجداننا كاملًا وبالفطرة، بَلْ هو الشيء الذي نعلّمه ونسْمُو به، وقد نتفوّق فيه بقدر ما نخفق، نتقدّم فيه بقدر ما نتخلّفُ، نبتكر فيه بقدر ما نُقلّد، فكلُّ خُلُقٍ هو ارتقاءٌ في العلم فلا يستوي المتخلّف وغيره بالمقدار نفسه»[1].

تناول طه عبد الرحمن الفيلسوف الأخلاقيّ موضوعة المبدع المحدِث، والمبدع المختار، فالأوَّل يصف وضع العالم الإسلاميّ عامة ولاسيّما الجانب الأخلاقيّ، كاشفًا أسباب الوضع، وطرائق التصدّي له ممارسًا له ممّا يعدّه نوعًا من (التقريب التكامليّ)، إذ يرى أنّ تغيير الوضع في العالم الإسلاميّ لا يكون إلّا بتوسيع المفاهيم والتصورات الإسلاميَّة المقررة حتَّى تتلاءم مع المفاهيم والتصورات الحديثة، بل حتَّى تنضبط بها انضباطًا، فيُثْبِت لها كلّ ما ثبت نفعه المادي في هذه، وينفي عنها كلّ ما خالف العقل على مقتضاه الأداتي أو بتأوله بما يوافقه، أمّا الثانيّ، فيصف هذا الوضع ويقف على أسبابه وطرائق التصدّي له ممارسًا ما يعدّه نوعًا من (التقريب التداوليّ)، إذ يرى أنَّ تغيير الوضع في العالم الإسلاميّ لا يكون إلّا بتهذيب المفاهيم والتصورات الحديثة حتَّى تتلاءم مع المفاهيم والتصورات الإسلاميَّة، بل حتَّى تنضبط بها انضباطًا، فيُثْبت

=فريديريك نيتشه ت ١٩٠٠م الفيلسوف والأديب الألماني الذي فكَّر وكتب في الإنسان ومصيره، والأخلاق وقيمتها، كان ابن قسِّيس وحفيد وأراد أن يكون قسيسًا فكان في حداثته مستمسكًا بالدين، ثم خرج على الدين والأخلاق بمنتهى الشدة داعيًا إلى تجاوز وهم الأخلاق ينظر: موسوعة عالم السياسة: ٢/ ١٨١.

(١) ينظر: أخلاقنا في حاجة إلى فلسفة أخلاق بديلة: ٩٢.

لها كلّ ما ثبت نفعه الروحيّ في هذه، وينفي عنها كلّ ما خالف الوحيّ على مقتضاه القيميّ أو بتأوله بما يوافقه [1].

ويمكن القول: إنّ ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ كان يرنو إلى (التقريب التداوليّ)، فيرى أنّ تغيير الوضع في عصره لا يكون إلّا بتهذيب المفاهيم والتصورات الحديثة، من أجل مقاربتها وملاءمتها مع المفاهيم والتصورات الإسلامية، كي تنضبط معها انضباطًا راجيًا ثبات النفع الروحيّ في هذه، ودَرْء كُلّ ما خالف الوحيّ على مقتضاه القيمي الأخلاقيّ، أو راغبًا في تأويله بما يوافق الوحيّ؛ لذا فقد فطن ابن طاووس منْ قبلُ إلى لزومِ المقاربة التداولية للأدعية والوصايا والمواعظ الإرشاديَّة والتهذيبيَّة وإسقاطها في حيّز الانتاج والتأثير، ومسايرتها للواقع الإنسانيّ فلا يُكتفى بقراءتها وحفظها، بل لابُدَّ من العمل بها وتطبيقها في الواقع، قال ابن طاووس: «إنَّ الذي أودعناه كتابَنا هذا ما هو مجرد زيارات وعبادات، ولا كان المقصود جمع صلوات ودعوات، وإنّما ضمّناه ما لم يُعْرَف فيما وقفنا عليه المخالف والمؤالف مثل الذي هدانا اللهﷻ بتصنيفه إليه، من كيفية معاملات اللهﷻ بالإخلاص في عبادته ومن عيوب الأعمال التي تفسد العمل وتخرجه من طاعة اللهﷻ إلى معصيته – إلى أن قال: – مع أنّ الذي عملنا هذا العمل لأجله قد كان سلفنا أجرة أكثر من استحقاقنا على فعله، وأعطانا في الحال الحاضرة ما لم تبلغ آمالنا إلى مثله، ووعدنا وعد الصدق بما لا تعلم نفس ما أُخفى لها من قُرة أعين من فضله، فقد استوفينا أضعاف أجرة ما صنّفناه ووضعناه، ومهما حصل بعد ذلك إذا عمل عامل بمقتضاه ورغب فيما رغبناه فهو مكسب على ما وهبناه»[2].

(١) الخطاب الإسلاميّ إلى أين؟ حوارات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبدالرحمن): ٢٠.
(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣/ ٣٦٧.

فتأثير الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ لم يأتِ من مجرد شحن كتبه بالنظريات الأخلاقية المجردّة، بل لروحيته الأثر الأبلغ في اجتذاب القلوب إلى الخير والصلاح والإخلاص في العمل ومن هنا اشترطوا في الواعظ أن يكون متّعظًا، زد على ذلك أنّ الفَهم الطاووسيّ الحاذق قد تجلَّى في أقواله وأفعاله فقد وصفه من ترجموا له بأنّه كان عالمًا عاملًا [1]، فقد نهج ذلك المنهج الأخلاقيّ الذي أحسن فيه الأخلاقيون أيّما إحسانٍ، وأفاد به المنظومة الأخلاقيّة أيّما فائدةٍ.

(١) ينظر: على سبيل المثال السراج الوهاج: ١٢٧.

الفصل الثالث

المبحث الأوَّل

الأفعال الكلاميـــّـــة المباشرة

هي أقوال تُؤدّى بها أفعال فيها يمكن للمرء أن ينجز أفعالًا بواسطة اللغة، نحو: أزوجك ابنتي، فمجرد التلفظ بالقول تصير الابنة زوجة؛ ومن ثم يَحْدُث فعل كلاميّ[1].

يتضح في ضوء المسار التطوريّ للتداولية أنّ المقاربة التداولية قامت على الأُسُسِ التي وضعتها فلسفة اللّغة مع كلّ من أوستين، وسيرل، وغرايس، فقد عَمِل كلُّ واحدٍ من جهته على تقديم رؤية لمقاربة اللّغة في إنجازاتها المختلفة.

ابتدأَ أوستين أوَّلًا بالتمييز بين الجُمل الوصفيّةِ، والجمل الانشائيّة، فالأولى تخضع لحكم الصدق والكذب في حين ترتبط الثانية بالنجاح والإخفاق، غير أنّ أوستين سرعان ما سيكشف أنّه لا جدوى من هذا التقسيم، وينزع عنه نسبيًا في ضوء تأكيده أنّ كلَّ جملةٍ تامَّة مستقلةً تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، ويميّز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغويَّة، العمل الأوَّل: هو العمل القولي وهو الذي يتحقّق ما إنْ تتلفظ بشيء ما، أمّا الثاني، فهو العمل المتضمّن في القول وهو الذي يتحقّق بقولنا شيئًا ما، وأمّا الثالث، فهو عمل التأثير بالقول وهو الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئًا ما ومن ثمّ فإنّ كلَّ جملةٍ عند التلفظ في نظر أوستين توافق على الأقل إنجاز عمل قولي وعمل متضمن في القول، وأحيانًا توافق القيام بعمل تأثير القول[2].

---

(١) ينظر: معجم تحليل الخطاب: ٢٠.

(٢) ينظر: التداولية اليوم: ٣٢، ٣٣.

وبحسب التقسيم الأوستيني، الذي نجزم قاطعين أنّ جذوره ضاربةٌ في التراث العربي بلحاظ حقائق، وقواعد أسّسها العرب، منها الحقيقة والمجاز والسياق وتقنياته، من نحو سياق المقام (لكلِّ مقامٍ مقالٌ)، وسياق الحال وغيرها [1].

جاء تقسيم الأفعال الكلاميّة على قسمين مباشرة، وغير مباشرة.

إنّ اللّغةَ بحسب نظرة التداوليين، ولاسيّما (جون أوستين) ليست مجرد وسيلة للوصف ونقل الخبر، بل أداة لبناء العالم والتأثير فيه، وقد تقدّم بنظرية بسط القول فيها: عبر جملة محاضرات ومقالات ضمَّنها نظريته بخصوص الأفعال اللّغوية التي ظهرت بعد وفاته بعنوان (كيف نُنْجِزُ الأشياء بالكلمات؟) والذي ترجم إلى الفرنسية عام ١٩٧٠ [2]، وأُولى الخطوات التي تحدّث عنها موقفه من الأثر الذي تحدثه الجمل في إقرار حدث ما، وهو ما تكون بموجبه صادقة أو كاذبة أي التي تقوم وفاقًا لمعيار الصدق والكذب، زدْ على ذلك جمل التعجب والاستفهام والأمر والنهي...وغيرها.

الخبر

يُعرّف الخبرُ بأنّه «القول المقتضي بصريحة نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي، أو الاثبات ومَن حدَّه بأنّه المحتمل للصدق والكذب المحدودين بالخبر لزمه الدور»[3]، وقد اختلف العلماء في وضع تحديد معين لتعريف الخبر، واختلفوا في ماهية الصدق والكذب، وقد كان للخطيب القزويني رأيٌ حاسمٌ في هذا الموضوع فقال: «اختلف الناسُ في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنَّه منحصرٌ فيهما، ثمّ اختلفوا فقال الأكثر منهم: صدقه مطابقة حكمه للواقع هذا هو المشهور وعليه التعويل»[4]، وتأسيسًا

(١) ينظر: تداوليّة قبل التداوليّة هي تداولية قروسطيّة عربيّة إسلاميّة: ٤٩٩.

(٢) ينظر: الاستلزام الحواريّ في التداول اللسانيّ: ٧٧.

(٣) ينظر: الاستلزام الحواري في سورة البقرة في القرآن الكريم (دراسة وصفية تحليلية تداولية): ٦٧.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة: ١٠.

على ذلك فالخبرُ هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته، فالكذبُ في الخبر منهم مَنْ يجعله الخبر الكاذب ما كان مخالفًا للواقع، ومنهم من يجعله مخالفًا لاعتقاد المتكلم، وسواء كان هذا الموقف أو ذاك فإنّ القيمة الصدقية للكلام هي التي تمنحه مشروعية التداول غير أنّ هذا اللّاصدقي استطاع أن يجد له أو لنفسه مكانًا أو فضاءً، ويستقطب جمهورًا خاصًا اهتم به، وتتبع خطواته عبر خطابات نصية مختلفة تلتقي جميعها في هذه القيمة اللّاصدقيّة التي هي التخيل[1].

وقد يخرج الخبرُ عن غرضيه الأصليين (الحقيقيّن)، فائدة الخبر (إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة، أو الكلام)، ولازم الفائدة (وهو أن يلقى الكلام على عالم به) [2]، وهذا هو الأصل في أغراض الخبر، لكنّه قد يخرج على خلاف مقتضى الظاهر فيفيد معاني مجازيّة تُفهم من السياق وقرائن الأحوال.

وسنحاول استجلاء النصوص الخبريّة الأخلاقيّة الطاووسيّة (الإخباريات- التقريرات-)، والهدفُ منها: وصف واقعة معينة في ضوء قضية، وتتميّز باحتمالها الصدق والكذب، باتجاه المطابقة فيها إلى العالم الخارجيّ، فيكون القول مطابقًا للوقائع الموجودة في ذلك العالم، وهذه التقنية (الإخباريات) تعدّ إضافة من (سيرل)، لما أبداه (جون أوستين) من قبلُ من (حكميات، وتنفيذيات، وسلوكيات الأفعال الكلامية المباشرة وغيرها)، إذ أضاف (الإخباريات - التقريرات -، والتوجيهات (الطلبيات)، و الإلتزاميات (الوعديات)، والتعبيريات، والإعلانيات).

قال ابن طاووس مخبرًا عن نفسه أنّه الذي يشير بالتقى ويعمل بالهدى وهو الرجل الذي أخبر عنه الإمام الصادق عليه السلام»: «أقول: ومن حيث انقرض ملك بني العبَّاس لم

(١) ينظر: التخييل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقاربة تداولية: ٦٠، ٦١.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٦٦، والإيضاح في علوم البلاغة العربية: ١٣.

أجد، ولا أسمع برجل من أهل البيت يشير بالتقى ويعمل بالهدى ولا يأخذ في حكمه الرشى، كما قد تفضل الله به علينا باطنًا وظاهرًا، وغلب ظني أو عرفت أنَّ ذلك إشارة إلينا وإنعام، فقلت ما معناه: يا الله إنَّ كان هذا الرجل المشار إليه أنا فلا تمنعني من صوم هذا يوم ثالث عشر ربيع الأوَّل (...) وقلت في معناه: يا الله إنْ كنت أنا المشار إليه فلا تمنعني من صلاة الشكر وأدعيتها، فقمت فلم أمنع بل وجدت لشيء مأمور، فصلَّيتها ودعوت بأدعيتها، وقد رجوت أن يكون الله تعالى برحمته قد شرّفني بذكري في الكتب السالفة على لسان الصادق عليه السلام» [1]، فنلمح أنّ الجملة الخبرية (أقول) وما بعدها تحمل معنى واحدًا وهو الدلالة على اتصاف ابن طاووس بالأخلاق والفضائل والشمائل التي أخبر بها الأمام الصادق عليه السلام أنّه سيظهر رجلٌ من ذرية أهل البيت عليهم السلام يتصف بالتقى ويعمل بالهدى، وانطوت هذه الجملة في بنيتها السطحية قرينة التكلم والخطاب وفعل انجازي ظاهر، فهي تمثل ملفوظًا إنجازيًا صريحًا (أقول)، وهذا ما خلص اليه (أوستين) بالقول: إنَّ معيار الصدق أو الكذب مرتبط بمعيار النجاح أو الفشل، والعكس صحيح هذا من جهة، ومن جهة أخرى لاحَظَ (أوستين) أنّ الجمل اللغويّة كلَّها يمكن أنْ تقوم بحسب المعيارين معًا، ومن ثمَّ يستحيل التمييز بين الملفوظات الوصفية والملفوظات الإنجازيّة، وتوصّل إلى أنَّ جميع الجمل اللغويّة هي قول وفعل في الوقت نفسهِ، ومن ثمَّ يمكن اختزالها وتصنيفها بعنوان واحد هو الملفوظات الإنجازيّة، إلّا أنّنا نجد نوعين من الملفوظات: إنجازيّة صريحة، وملفوظات إنجازيّة ضمنية، من نحو:

الأولى: إنَّ الجوَ باردٌ اليومَ، والثانيّة: أقول: إنّ الجوَّ باردٌ اليومَ.

فالثانية: حملت في بنيتها السطحية لفظًا إنجازيًا صريحًا هو (أقول) [2].

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣/ ١١٧.

(٢) ينظر: الأمر والنهي في اللّغة العربيّة: ١٤٣.

وقال ابن طاووس كاشفًا عن تعظيم اليوم السابع والعشرين من رجب المبارك، يوم مبعث النبيّ الأعظم ﷺ، ووصف الحدث، وأخبر عنه، فضلًا عن تقريره، في ضوء الكشف عمّا فعله المبعث المعظّم من تغيير الحال، والأخلاق، والنفوس، والمنقلب، قال: «وروح حياة ذلك السبق للأولين والآخرين، في اليوم السابع والعشرين من رجب بالعجب وشرف المنقلب، فاستنشقته عقول كانت هامدة أو بائدة، واستيقظت به قلوب كانت راقدة، وجرى شراب العافية بكأس آرائه العالية في أماكن أسقام الأنام فطردها، وأحاط بجيوش النحوس فشردها، وتهدد نفوس العقول المتهجمة على العقول فأبعدها، حتَّى ألفها بعد الافتراق في الآفاق وعطفها على الوفاق والاتفاق» [1]، فالقوة الإنجازية المباشرة للإخباريات انطوت على وصف الحدث، والإخبار عنه، فضلًا عن تقريره، لذلك قال ابن طاووس: «زِدْنا في الاجتهاد في هذه الصفات والسيرة فيهم بالتقوى والمشورة بها والعمل معهم بالهدى، وترك الرشى قديمًا وحديثًا، لا يخفى ذلك على مَنْ عرفنا، ولم يتمكن أحدٌ في هذه الدولة القاهرة من العترة الطاهرة، كما تمكنا نحن من صدقاتها المتواترة واستجلاب الأدعية الباهرة والفرامين المتضمنة لعدلها ورحمتها المتظاهرة وقد وعدت أنْ – كلّ سنة– أكون متمكنًا على عادتي من عبادتي أعمل فيه ما يهديني الله إليه من الشكر وسعادة دنياي وآخرتي»[2].

ومن النصوص الطاووسيّة التي نلمح فيها أفعالًا كلاميةً مباشرةً مقتصرةً على دلالةِ الصيغةِ نفسِها (الدلالة الحقيقية)، قولُهُ في وصيةٍ لابنهِ «ومتى اشتبه عليك شيء من نتائج العقول، فالْزِمْ الصّومَ، والخلوة، والتذلل للقادر على كلِّ مأمولٍ فإنَّك تجده ﷻ كاشفًا لك ما اشتبه عليك وباعثًا إلى عقلك وقلبك من أنوار هدايته ما يفتح أبوابَ

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣/ ٢٦٩.

(٢) م. ن: ٣/ ١١٧، ١١٨. الفرامين: كلمة تركيّة بمعنى الكتب الموقعة.

الصوابِ لديك» [1]، فدلالة فعل الأمر (فالزم الصوم) دلالة حقيقية (الوجوب)، وهو فعل انجازي تأثيري.

إلْزِم الصّوم ← إنشاء طلبيّ ← دلالة حقيقية(الوجوب) ← فعل إنجازيّ تأثيريّ

ومن المتون الطاووسيّة الأخلاقيّة التي تُحقّقُ فعلًا كلاميًّا إنجازيًا مباشرًا، في ضوء تَصور دلاليّ يتمثل في مراعاة حالة المتكلم، ومنزلتة بالنسبة للمخاطب، تأمل بيان ابن طاووس الحلّيّ حال الرسول الأعظمﷺ، مع النفر المؤمن الذين ما انفكوا يدعون اللهﷻ غداة وعشيّا لايفترون، استيحاءً من قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[الكهف: ٢٨]، قال ابن طاووس «إنّ ظاهر هذه الآية يقتضي تعظيم الدعاء لله بالغداة والعشي وتعظيم الذين يعملون ذلك خالصًا لوجه الله تعالى فإن مقام الرسالة من أبلغ غايات الجلالة فإذا أمر الله تعالى رسوله وهو السلطان الأعظمﷺ أن يصّبر نفسه الشريفة المشغولة بالله مع الدعاة بالعشيّ والغداة» [2].

ويظهر شرط الاستعلاء في الخطاب التوجيهيّ من لدن اللهﷻ لصفيّه ومختاره النبيّ الأعظمﷺ، في ظل توجيهه نحو سلوك معين، والتأثير فيه، وفي ذلك إنجاز وإنعام في الصّبر والثبات مع الثُلّة المؤمنة، وهذا أمرٌ تأثيريّ إنجازيّ النص أمام محمَّدﷺ ومن تبعه، فهم مدعوّن يوميًا لتسديد خُطى الأقربين في سلوكهم العقدي، والأخلاقيّ، والاجتماعيّ، وسيظلُّ النبيُّ محمَّدٌﷺ، والمؤمنون الصادقون المخلصون صادقين مع أنفسهم.

وعود على بَدْء، فإنّ الخطاب الإنشائي المؤدى بصيغة الأمر الصريح (افْعَلْ) (اصْبِر) جاء بدلالته الرئيسة (الطلب والوجوب)، فالفاعل النبيّﷺ، والفعل التأثيري الإنجازي (اصْبِرْ) قد أدّىّ هذه الدلالة المباشرة.

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٧٢، ٧٣.

(٢) سعد السعود: ٢٣٩.

الإنشاء الطلبي(الأمر) اصْبِرْ ← الدلالة الرئيسة المركزية ← الطلب والوجوب

وتأسيسًا على ذلك فإنّ الخطاب بحسب قول ابن طاووس الحلّيّ وتصوره وفهمه يُعْلي من شأن النبيّ ﷺ، وشأن أصحابه المُخلِصين ممّن عَرَفوا الله ﷻ حقّ معرفته، بَلْه ذريّته الذين انقطعوا لعبادته، وذابوا في ذاته ﷻ، فالقرب الإلهيّ، والتواصل مع الله ﷻ بالدعاء والمناجاة جسر حقيقيّ للظفر بالسعادتين الدنيويّة والآخروية.

ويرى الدكتور سعد كموني أنّ الآيّة الكريمة تُشكِّل مظهر الخلق الدائم، إذ تنطوي على جملة الأفعال الواجبة في هذا المقام (اصْبِرْ، لا تَعدُ، لا تُطع)، فالنص يسمحُ لنا أنْ نقارب مقاصده وندلف إلى دلالاته انطلاقًا من واقعنا اللغويّ على أنْ لا يكون ذلك على حساب نظامه اللغويّ، فالتأويل يقتضي؛ أن كون ذلكْ لا يكون ذلك على حساب نظامه اللغويّ، فالتأويل يقتضي أنْ نخرج بالمفردة من فلكها في النصّ إلى فلكها الاجتماعي لكي نكشف المعين الذي أزخرها، ثمّ نرقبها بعد ذلك في كيمياء النصّ كيف تتفاعل مع سواها [1].

أشار ابن طاووس الحِلّيّ إلى ما يحدثه الفعل المبني للمجهول من قوة إنجاز وتأثير بوصفه فعلًا كلاميًّا قاهرًا، ففي بيان تفسير قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، قال: «ومجيء إخباره ﷻ على الفعل المبنيّ للمجهول للدلالة على الجلال والعظمة، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلّا بفعل قاهر لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أنّه غيره» [2].

(١) ينظر: الخطاب القرآني القرآن مرجعيته للخطاب النهضوي: ١٥١، ١٥٢.
(٢) سعد السعود: ٢٥٠، ٢٥١.

ولم يكتفِ بذلك إذ بيَّنَ أنّ بناء الأفعال (قَالَ، غَاضَ، قَضَى) للمجهول أَسْهَم في تفخيم الأمر وتضخيمه، من أجل تصوير حال الانتقام من هؤلاء الظالمين، قال: «ومنها (وقيل)، ولم يقلْ ﷻ: (قُلْتُ)، أو (قُلْنَا)، فلعلّ المراد أنّه لمّا كان هذا الأمر لايقدر عليه سواه كان لفظ (قيل)، مثل (قُلْتُ) أو (قُلْتَ لْنَا)، ولعلّ المراد تفخيم الأمر، وتعظيم القدر على عادة الملوك في لغة التغليب والقهر، أو لعلّ المراد: أنّه لما كان الحال حال انتقام كان الخبر بها باللّفظ (قيل) أليق بوصف كامل الرحمة، والإنعام، أو لعلّ المراد أنّ هذا ممّا يزيده ﷻ عظمة ولاجلالة إذا قال: قُلْتُ»[1].

ويبدو أنّ الاقتصاد اللغويّ في بنية الفعل المبنيّ للمجهول، وقُوّة بنيته وما يلازم هذا البناء من دلالات (العظمة، السرعة، والتعجب، والتوكيد، والإنجاز، والتأثير) هو أوفق للسياق المقاميّ التداوليّ [2]، وهذا ما اسْتَدْعى ابن طاووس إلى التعامل مع هذا الفعل تعاملًا تداوليًا واصفًا إيّاه بـ(الفعل القادر القاهر)، ويمكن بيان إنجازيّة هذه الأفعال وتأشيرها بالمخطط الآتي:

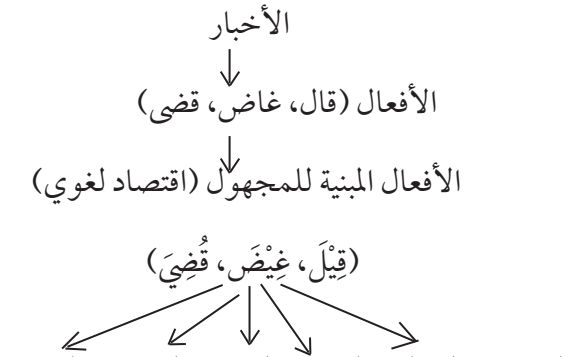

(١) سعد السعود: ٢٥١.

(٢) ينظر: البعد التداوليّ للمبني للمجهول في القرآن الكريم: ١٩٩.

وتتجلَّى تقنيّة السياق، ولاسيّما باستثمار القرينة المنفصلة، في تحديد الفعل الكلاميّ المباشر في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وبيّن ابن طاووس وهم أبي علي الجبائي في عدم اقتناص الدلالة المرادة للفعل الكلامي (ساجدين)، إذ حدّدها بـ(خاضعين)، فجعل خضوعهم له سجودًا؛ لأنّ الخضوع في اللغة السجود من الخاضع للمخضوع له، ورأى أنَّ «الجُبّائي قد غفل عن آخر القصة أو ما كان يحفظ القرآن؛ لأنّ يوسف لما سجد له أبواه وأخوته قال: هذا تأويل رؤياي من قبلُ قد جعلها ربّي حقًّا ففسّر هذا السجود المعهود بذلك السجود، فلو كان ذلك خضوعًا من غير سجود ما كان يقول عليه السلام: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[يوسف: ١٠٠]»[1].

فالفعل الكلاميّ الإنجازيّ لـ(ساجدين) هو السجود المطلق سجود التعظيم والإجلال له عليه السلام، بدلالة السياق (القرينة المنفصلة)، قوله تعالى: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ﴾، وقد نقد ابن طاووس الجُبّائيّ؛ لأنّه لم يشغل هذه التقنية من جهة، أو أنّه ما كان يحفظ القرآن من جهة أخرى، ولعلّ القول الثانيّ يُنبيء أنَّ ابن طاووس كان من الذين يحفظون القرآن الكريم، فمن لوازم عملية التفسير ولواحقها عند من يقوم بهذه المهمة حفظه كتاب الله عزّ وجلّ - كما يرى ابنُ طاووسٍ الحلّيّ .

ويتجلَّى الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ في بيان حال المسارعين إلى الخيرات، السابقين إليها، قال: «قال الفرَّاء: قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] يبادرون بالأعمال، (هم لها سابقون)، يقول: إليها سابقون، وقد يقال: وهم لها سابقون، أي: سبقت لهم السعادة... أقول: إذا احتمل اللفظ الحقيقة فما الذي يحمل على تفسيره بالمجاز؟، فإنّ قوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ هم المعلوم من الحال

(١) سعد السعود: ٤٠٩، ٤١٠.

بالضرورة؛ لأنَّهم سبقوا أعمالهم بالمعرفة، أو بالذي كلّفهم إيّاها، وبالرسول الذي دلّهم عليها، وبمعرفة تلك الأعمال الصالحة، وكانوا سابقين لها، وهي متأخرة عن سبقهم، وهو أبلغ في مدحهم» [(١)].

فالجملة الإسمية المكوَّنة من المبتدأ (أولئك) اسم إشارة الدال على البعيد، والخبر (يُسارعون) الجملة الفعليَّة المضارعيَّة تنجز فعلًا كلاميًا مباشرًا بحسب رؤية مركبة إيمانيّة إصلاحيّة تعبيرية هذه المهمة سبقتها معرفة إنتاجية بعواقب المسارعة إلى الخيرات والتسابق للظفر بها، ومن هنا إنمازت هذه المسارعة بمعرفة قَبْلِيّة، وهيّ أسُّ الأعمال، وأصلها وهو ماعُرف عند الفقهاء في مباحثهم من (فقه الأخلاق) بنية العمل [(٢)].

في بيان قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ردّ ابن طاووس على مَنْ قال: إنّ معنى إنّي مهاجرٌ كلُّ مَن خرج من داره، أو قطع سبيلًا فقد هاجر، قال: «كان ينبغي أنْ يذكر معنى المهاجرة إلى الله تعالى؛ لأنَّ الله حاضر في المواقع الذي هاجر منه إلى الموضع الذي هاجر إليه، ولعلّ المراد بالمهاجرة إلى الله تعالى الانقطاع إليه بالكلّيّة عن كلِّ شاغلٍ والتجرّد له، وكان إبراهيم كذلك في الوطن الأوَّل لكن ظاهر حال المخالط للناس، أو المبتلى بهم مع اشتغاله بالله تعالى وامتثاله لأمره أنّه يكون من جملة طاعاته اشتغاله بالناس في الأول أو بغير الناس من أسباب الطاعة فلعلّه أراد أنْ يكون المهاجرة إلى مجرد الاشتغال بالله تعالى بغير واسطة من ساير الأشياء، وأمّا قوله كلُّ مَن خرج من داره فقد هاجر فبعيد من عرف الشرع وعرف العادة؛ لأنّ الخارج من داره مجتازًا من بلد إلى بلد لا يسمى مهاجرًا، بَلْ متى قصد المهاجرة والإقامة به» [(٣)].

(١) سعد السعود: ٦٠٧، وينظر: معاني القرآن: ٢/ ٢٣٨.

(٢) ينظر: كشف الغطاء عن وجوه مراسم الاهتداء: ٥٣٠، والأخلاق: ١٥.

(٣) سعد السعود: ٤٨٥.

ويُستفاد من متن ابن طاووس الحِلّيّ أنّ استبعاده الدلالة الحسيّة للهجرة بمعنى الخروج من الدار، وقطع السبيل قائمة؛ كونها لا تنسجم مع الإيمان الحقيقي، ومتطلبات العقيدة الراسخة؛ لذا رأى أنّ المراد بحسب القوة الإنجازية المستلزمة أنّ المهاجرة إلى الله ﷻ تعني الانقطاع إلى الله ﷻ كليّة، وتأسيسًا عليه ينعطف المعنى باتجاه الدلالة المعنوية؛ لأنّ المجال التداوليّ يأبى ربط المهاجرة في الآية بالانتقال من بلد إلى آخر.

الفصل الثالث

المبحث الثاني

الأفعال الكلاميَّة غير المباشرة

إنّ وظيفةَ اللّغة لا تقتصر على تقرير الوقائع، أو وصفها لكنّ للّغة وظائفَ عديدة كالأمر والاستفهام والنهيّ والتمنيّ والشكر والتهنئة والقسم والتحذير... وغيرها، وليست اللّغة حسابًا منطقيًا دقيقًا لكلِّ كلمةٍ فيها معنى محدَّد، ولكلِّ جملةٍ معنى ثابت، إذ لا تنتقل من جملة إلّا ما يلزم عنها من جمل مراعيًا قواعدَ الاستدلال المنطقي، بل الكلمة تتعدد معانيها بتعدد استعمالنا لها في الحياة اليوميَّة، وتتعدَّد معنى الجمل بحسب السياقات التي ترد فيها فالمعنى هو الاستعمال [1].

هذا الفَهْم في توجيه وظيفة الخطاب بوصفه عملية إجرائية غايتها الإبلاغ والاتصال والإقناع، جعلت ابن طاووس يستثمر البعدَ التداوليّ للخطاب؛ لأنّه آلية كاشفة عن الاستعمال من جهة، ومصوّرة للحال والمقام من جهة أخرى، وبتواشُج هذين العنصرين يتمُّ إصابة الدلالة المرادة بَلْهَ القصديّة أيضًا.

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] ردّ ابن طاووس على الفرّاء في بيان حال أصحاب فرعون المؤمنين الناجين، قال: «قد كانوا في شغل من أن ينظروا مستورين بما اكتنفهم من البحر أن يَرَوْا فرعون وغرقه، ولكنّه في الكلام كقولك: قد ضُرِبْتَ وأهلك ينظرون فما أتَوكَ

(١) ينظر: الاستلزام الحواري في سورة البقرة في القرآن الكريم (دراسة وصفية تحليلية تداولية): ٦٧.

ولا أغاثوك؛ يقول: منهم قريب بمرأىً ومَسْمَعٍ (...) وإذا كان قد عرف أصحاب موسى عليه السلام أنّ فلق البحر لنجاتهم وهلاك فرعون وأصحابه، فكيف لا يكونون متفرغين لنظرهم ومسرورين بهلاكهم، كما لو قيل لإنسان: ادْخُلْ هذه الدار، ليدخل عدوك وراءك فإذا خرجت من الدار وقعت الدار على عدوك، فإنّه يكون مسرورًا ومتفرغًا لنظر هلاك عدوه ويقال أيضًا: إنّ أصحاب فرعون لمّا نزلوا خلف أصحاب موسى عليه السلام جعل طرف البحر والماء الذي بينهم كالشباك الذي ينظر منه بعضهم إلى بعضها، فعلى هذه الرواية كانوا ناظرين لهلاكهم ومسرورين به، ويقال: وإنْ كان هلاك فرعون وأصحابه بعد أن صار موسى عليه السلام وأصحابه على ساحل البحر وأيقنوا بالسلامة، فَكَيْف لا يكونون ناظرين إليهم ومشغولين بالسرور بانطباق البحر عليهم؟ وهل يكون لهم عند تلك الحال، وفي ذلك الوقت شغل إلّا مشاهدتهم، ونظرهم كيف يهلكون»[1].

يتبيَّن في ضوء بيان الفّراء وردّ ابن طاووس عليه، أنَّ الفرَّاء قَدْ أجرى التعبير عن الأخبار على مقتضى الظاهر، بأنَّهم قريبون يرون ويسمعون ومن باب العلم لا من باب الرؤية والسمع، في حين يرى ابن طاووس أنّ الخبر جاء على خلاف مقتضى الظاهر، وهو (تحريك الهمّة والشعور بالفرح والسرور) بالنجاة ورؤية عاقبة الظالمين وهذا لَعمري من صميم البحث التداوليّ؛ وذلك استجابة ومراعاة لموقف السامع النفسي ومقامه، ممَّا يضطرّ المتكلم إلى تعديل الكلام والتصرف فيه بما يتلاءم مع الموقف الجديد ويجعل الكلام يؤدي الوظيفة التواصلية المنوطة به[2].

وتأسيسًا لمراعاة حال أصحاب موسى عليه السلام المؤمنين بعد أنْ أنجاهم الله عز وجل وأيقنوا السلامة أراد الله عز وجل أن يحرك همتهم ويُشْعِرَهم بالحسنى والزيادة، أنّهم ظفروا بالنجاة

(١) سعد السعود:٥٩٥، ٥٩٦، وينظر: معاني القرآن: ١/ ٣٦.

(٢) التداولية عند العلماء العرب: ٩٥.

الدنيوي من جهة وبمعاينتهم عاقبة هؤلاء وهلاكهم فَشَعروا بالنجاة الآخروي، والمصير المحمود وهو مناط الأمر، ومَحَزُّ الخاتمة والعاقبة، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

إذن في قانون الخبر قد يخرج الكلام على خلاف مقتضيات الأحوال، فيخرج عن قصد من دلالته الرئيسة إلى أغراض مختلفة تستفاد من السياق، وهذا ما يكون في اللغة الإبداعيَّة، إذ يعمد المبدع إلى الخروج عن الأصل، والعدول عنه فيشكِّل البنية اللّغوية لكلامه على خلاف مقتضى الظاهر، مراعيًا في ذلك أمورًا اعتبارية يتطلبها السياق، فتنشأ بلحاظ ذلك أفعالًا كلامية غير مباشرة تستلزم من سياقات الكلام[1].

و يتجلَّى الفعل الكلاميّ غير المباشر في الجملة الخبريَّة في بيان تفسير قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٠ – ١٤]، قال ابن طاووس رادًّا على الجبائيّ الذي يرى أنّ الله عزّ وجلّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله والمؤمنين بأن يدعوه من أجل قتل الخرّاصين وأن يذلّهم ويهلكهم بوساطة المؤمنين أو بعذاب من عنده[2]، قال: «ما نجد لهذا التأويل مطابقة للآية، أو مناسبة لها، وهل أمر للنبي صلى الله عليه وآله وللمؤمنين بالدعاء؟ أو هل ترى للخراصين من الصفات التي ذكرها الجبائيُّ صفة واحدة في الآية على التعين؟ وهل تضمَّنت غير التهديد من الله تعالى للخراصين الكذابين بلفظ الدعاء عليهم منه تعالى؟»[3].

إنَّ ما يستوقفنا في المتن الطاووسيّ أنّ الخبر المؤدّى بالجملة المبنيّة للمجهول: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ قد خرج من حقيقته إلى سياق إنتاجيّ إنجازيّ تأثيريّ تداوليّ (التهديد) في

(١) مظاهر التداولية في مفتاح العلوم: ١٣٧.

(٢) سعد السعود: ٤٤٣، وينظر: مجمع البيان: ٩/ ١٥٣.

(٣) سعد السعود: ٤٤٣.

ظلِّ الدعاء عليهم ومقتضى هذا البناء يولّد هذا السياق، فالسكوت عن الفاعل لفظ الجلالة (الله) قد أعطى تعجيلًا قويًا، زِدْ على ذلك تهديدًا ووعيدًا وتعجّبًا، ويبدو أنّ معاينة السياق وتوظيفه كان له الأثر في استظهار هذا الفعل الكلاميّ غير المباشر.

والـذي يبدو أنَّ ابن طـاووس لم يخرج عمّا ذكـره الجُبّائي من استيحاء الفعل التهديديّ التداوليّ، إلّا أنّه يرى التوسيع في استدراج الدّلالات من دون التقييد بالدعاء على الخرّاصين إنْ ذلّةً أو هلاكًا، وفي ما يأتي مخطَّط يبيِّن هذه الرؤية:

الخبر ← قُتِل الخراصون ← الصدق (الفعل الكلاميّ المباشر) ← التهديد (الفعل الكلاميّ غير المباشر)

ويزهرُ الفعل الكلاميّ غيرُ المباشر في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ (السياق الإنتاجيّ التوليديّ (سوء العاقبة والمآل) في بيان حال أعمال الذين كفروا وأفعالهم غير الأخلاقيَّة، مبينًا عاقبتهم المخزية وسوء مآلهم في ظلّ قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً﴾ [الفرقان: ٢٣] قال: «قال الرّمانيّ: حقيقة قَدِمْنا هنا عَمِدْنا إلى ما عَمِلوا و (قَدِمْنا) أبلغُ منه؛ لأنّه يدلّ على أنّه عاملهم معاملة القادم من سفره؛ لأنّه من أجل إمهاله لهم لمعاملة الغائب عنهم ثُمَّ قَدِم فرآهم على خلاف ما أمرهم (...)، ويحتمل في الآية في النُّكت، ما لم يذكره الرُّمانيّ وهو أنّ الله ﷻ لمّا شبّه أعمالهم فيما قدّمناه، مثل هذا السراب الذي يُرَى ظاهره لم يَبْقَ بُدّ من أنْ يشاهدوا معنى أعمالهم في القيامة (...)، إنّ الذي يشاهدونه من أعمالهم بمحضرهم ومشاهدتهم وهم ينظرون هباءً منثورًا تالفًا لا أصلَ له، فإنّ إتلاف ما يعتقده الإنسان ملكًا له ونافعًا له بمحضره ومشاهدته أوقع من عذابه»[1].

وتأسيسًا على معاينة النص، يمكننا الاستنتاج إنّ الخطاب القرآنيّ خرج على مقتضى الظاهر مع مراعاة حال المخاطب يعد إنجازًا لأفعال كلاميَّة غير مباشرة؛ لأنّ الخطاب

(١) سعد السعود: ٥٦٥، وينظر: النكت في إعجاز القرآن: ٨٦، ٨٧.

حينها قد استشرف نفسيّة متلقيّه وراعى الحال غير الظاهرة في المقام؛ ليصل إلى إخراج كلامه على مقتضى تلك الحال وهذا «ما يدلُّ على مراعاةٍ لأوضاع غير لسانيّة لا تظهر على مستوى البنية السطحية للكلام، وإنّما يتم الوصول إليها على مستوى البنية العميقة ممّا يعني أنّ هناك علاقة متينة بين قصد المتكلّم ومقام المتلقّي ونفسيته (...) وهو ما تركّزُ عليه اللسانيات التداوليّة في أبحاثها»[1].

وعود على بدء فإنَّ الخطاب القُرآني كَشَفَ مشاعر هؤلاء الكافرين ونَفْسِيَّتَهم وهم يرون بأمّ أعينهم كيف تتهاوى أعمالهم وتتطاير كذرّات الرماد؟ وهو مِصْداق عظيم على سوء عاقبتهم ومآلهم المُخْزي.

من الجمل الخبريّة التي جاءت في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ بدلالة الأمر الذي خرج إلى الدعاء، دعاؤه المعروف (دعاء العبرات)، قال: «وبالمراحم والمكارم التي لا يعلم غيرك محلها (...) أنْ تُصلّي على محمَّد وآل محمَّدﷺ؛ وأنْ تُعَجّلَ قضاء كلّ حاجةٍ لمن يريد تقديم حاجاته قبل حاجاتنا وذكر مهماته قبل مهماتنا وأنْ تَجْعَلَ حوائجنا تابعة لإرادته وإرادتك بإجابتك (...) وأن تُعجّلَ قضاء جميع ما ذَكَرْتَه (...) وأنْ تَجْعَلَ هذه التوسّلات من أسباب تكميلها وتسهيلها وتعجيلها وأنْ تملأ قلوبنا من معرفتك وهيبتك وعظمتك وحرمتك (...) وأنْ تُلْهِمَنا كلّما تريد منّا وتَرْضى به عنّا وأنْ تُكاشِفَنا بجلالك (...)، وأنْ تُدَبِّرَنا في الكثير والقليل بتدبيرك الحسن الجميل، وأنْ تَحْفَظنا ومنْ يعنينا أمره بما حفظت كل من حفظته وتسعدنا بكل ما أسعدته وأنْ تَمُدَنا من الأعمار بأطولها ومن الأعمال بأفضلها وأنْ تنصرَنا على كلِّ مَن يؤذينا أو يمكن أنْ يؤذينا نصرًا أنت أهله وأنْ تَذُلَهم لنا ذلا هم أهله وأنْ تُدِيْلَنا منهم إدالة أنت أهلها وأنْ تزيحهم بانتصارنا عليهم من الآثام (...) وأنْ تلمحَ أهل الإساءة إلى مَن يريد ذكره قبل ذكرنا وتعظيم قدره على قدرنا» [2].

(١) مظاهر التداولية في مفتاح العلوم: ١٤٣.

(٢) مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٣٢٩، ٣٣٠.

فالجملة الخبرية المؤديّة بـ(أنْ) الناصبة والفعل االمضارع، نحو: (أنْ تُصلّيَ)، و (أنْ تُعَجّلَ)، و (وأنْ تَجْعَل)، و(أنْ تُلْهِمَنا) و (أنْ تُدَبِّرَنا)، و (أنْ تملأ)، و (أنْ تُدَبِّرَنا)، و (أنْ تَحْفَظنا)، و (وأنْ تَمُدَنا)، و (أنْ تنصرَنا)، و (أنْ تَذُلَّهم)، و (أنْ تُدِيْلَنا)، و (تُزيحَهم)، خبرية المَبْنَى إنشائية المعنى، والتقدير (صَلِّ، وعَجِّلْ، و اجْعَلْ، وامْلأْ، وألْهِمْ، وكاشِفْ، ودبِّرْ، واحْفَظْ، ومُدَّ...)، ويرى الأصوليّون أنّ التعبير بالجملة الخبريّة في مقام الطلب والإيقاع آكد من الوجوب المستفاد من مثل صيغ الأمر: (فعل الأمر الصريح، والفعل المضارع المقرون بـ(لام الأمر) واسم فعل الأمر، والمصدر النائب مناب فعله) [1].

وتأسيًا على ما سبق فإنَّ هذه الأفعال الكلاميّة المتمثّلة في الجملة الفعليّة المكوَّنة من محمول الفعل (صلّ، و عَجّلْ... وغيرها) وموضوعة الفاعل المسكون عن لفظ الجلالة الله، الدال على الذات الإلهية تمثل أفعالًا إسناديّة وإحاليّة، ودلاليّة، فضلًا عن ذلك الفعل الإنجازيّ الذي تتشكّل حمولته الدلاليّة، منْ قوة إنجازيّة حرفية وهي الأمر والطلب، وقوة إنجازيّة مستلزمة تتمثَّلُ في الدعاء وطلب الإعانة والاستجابة.

ونستشرف أفعالًا كلاميةً غير مباشرة في الجملة الخبرية، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، قال ابن طاووس: «فإن ظاهر الآية تقتضي أنَّ التلاوة توجب و جلّ قلوبهم، وزيادة إيمانهم وهو يعرف وكلّ عارفٍ أنَّ كلام السلطان العظيم الشأن إذا سمع بالقلوب والآذان أرهب للسامع، واقتضى خوفه قبل أن يتدبره وخاصة إذا كان ظاهر لفظه تهديدًا أو وعيدًا، على أنَّ في القرآن ما لا يحتاج سامعه إلى تدبر وتفكر من الألفاظ المحكمة التي يُفهم باطنها من ظاهرها، أقول: بل لو أنصف عبد الجبار قال: أنَّ متى شرع سامع القرآن في التفكير والتدبر الذي يشغله عن لفظ التلاوة

(١) ينظر: العُدّةُ في أصول الفقه: ١/ ١٦٥، ١٦٦، وشرح في علم الأصول (شرح الآخوند للكفاية بقلم تلميذه الخوئيني): ٢٠٤، ٢٠٥.

صار إلى حال ربَّما زال الخوف عنه في كثير من الآيات والتلاوات»[1]، فقوله تعالى: «﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] خبر خرج من دلالته الحقيقة وهما: إفادة الخبر، ولازم الفائدة إلى سياق إنتاجيّ توليديّ (التهديد والتعظيم) فالجملة الفعليَّة المؤدية بالبناء للمجهول (ذُكِرَ الله) والجملة الشرطية الأمّ ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أعطت بُعْدًا تداوليًا إنجازيًا مستلزمًا التهديد والتعظيم ويبدو أنّ السياق بمعاينتنا المتواضعة لذيل الخطاب القُرآنيّ ألفينا فيه ما يُشَكّلُ هذا الفعل الإنجازيّ التأثيريّ وهو قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤] المبدوء باسم الإشارة (أولئك) الذي يدلّ على البعد المكانيّ ومن ثمّ يعطي دلالة أخرى (التعظيم).

وقياسًا على ذلك فإنّ الفعل الكلاميّ على حدّ تعبير (أوستين)، هو: «نواة مركزيّة في الكثير من الأعمال التداوليّة، وفحواه أنّ كلَّ ملفوظٍ ينهض على نظام شكليّ دلاليّ إنجازيّ تأثيريّ» [2].

أوَّلًا: الأمر

طلب الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام وهو أسلوب إنشائيّ طلبيّ مليءٌ بالدلالة الإيحائية، وله أربع صيغ: فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر [3]، وقد لاحظ البلاغيون أنّ الأمرَ قد يخرج عن دلالته الأصلية الحقيقية وهي:الإيجاب والإلزام إلى معانٍ أخر (سياقات إنتاجية توليدية) تفهم وتستنبط من سياق الكلام وقرائن الأحوال [4].

(١) سعد السعود:٥٦٥، وينظر: متشابه القرآن: ١/ ٣١٢، ٣١٣.
(٢) التداولية عند العلماء العرب: ٤٠.
(٣) ينظر: مفتاح العلوم: ١٥٢، الطراز: ٣/ ٢٨٢.
(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ١٥٢.

وقال في وصف أهوال يوم عاشوراء: «يا له من يوم كسفت فيه شموس الإسلام والمسلمين، وخسفت به بدور الطاهرين،(...) وقال لسان حال الرسول الداعيّ لكلِّ سامعٍ وواعٍ، الساعين إلى سفك دمه الشريف بسوء المساعي: إذا لم تجاوزونا على الإحسان، ولم تعترفوا لنا بحق العتق من الهوان ومن عذاب النيران، ولم تذكروا لنا بسط أيديكم على ملوك الأزمان، وما فتحنا عليكم من أبواب الرضوان والجنان، فارجعوا معنا إلى حكم المروءة والحياء وعوائد الكرم في الجاهلية الجهلاء» [1]، وقبل أنْ نُحلل الفعل الكلامي المتضمن في (فارجعوا)، لابُدّ من الإشارة إلى أنّ الخطاب الطاووسيّ، جاء على لسان الإمام الحسين عليه السلام، بأنّنا لم نتجاوز الإحسان معكم، وأطلقنا سراحكم يوم فتح مكة، مذكِّرا إيّاهم بقول جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله: **(اذهبوا فانتم الطلقاء)**؛ من أجل التقريب التداوليّ، فهم مُسْلِمة الفتح الذين نالهم عفو النبيّ صلى الله عليه وآله وصفحه يوم فتح مكة: «**يا معشر قريش، ويا أهل مكة ما ترون أنّي فاعلٌ بكم**، قالوا: خيرًا، أخٌ كريم، وابنُ أخٍ كريم، ثمّ قال: **اذهبوا فأنتم الطلقاء**» [2]، هذه الرحمة الوسيعة من الخطيب بالقرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤]، لم يقابلها المحاربون لذريّة سيِّد المرسلين بالجزاء، فقد أوغلوا بدماء الذريّة الطاهرة قتلًا وتمثيلًا «فوطئوا ظهرًا كان لهم ظهرًا ونصرًا»[3]، زدْ على ذلك دعوتهم إلى الرجوع إلى مناقب العرب الأصلية من مروءة، وكرم وعفو وإحسان، وبيان الفعل الكلامي: (فارجعوا)، يتكوَّن من فعل إسنادي (جملة فعلية)، مكوَّنة من محمول فعل (ارجع)، وموضوعه الفاعل (الضمير المتصل واو الجماعة)، والفعل الإحالي: إحالةٌ إلى هؤلاء المنحرفين الضالين الذين لا يرجون لله وقارًا في ذرية المصطفى صلى الله عليه وآله، والفعل الدلاليّ يتكون من القضية التي تتمثل في أمر الإمام الحسين عليه السلام

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣/ ٥٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك تاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٧، وينظر: الكامل في التاريخ: ٢/ ٢٥٢.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣/ ٦٢.

هؤلاء في الرجوع إلى خصال العرب الذائعة الصيت قبل الإسلام كي يرعووا، وتكون لهم تذكرة، زدْ على ذلك نقدح بالاستلزام المنطقيّ؛ لأنّ سرد هذه الخصال والشمائل من صفحٍ وعفوٍ وإحسانٍ فيها تعبيرٌ عن قيم الإسلام العظيمة من جهة، والتذكير بأضدادها (القيم السيئة).

أمّا فيّما يتصل بالفعل الإنجازي، فتتجسَّد في الحمولة التي تترشحُ من فعل الأمر (فارجعوا)، إذ يأمر الإمام الحسين عليه السلام تذكيرًا وتنبيهًا هؤلاء القتلة الظلمة من استذكار صنيع جدِّه بهم من جهة، واستلهام فضائل العرب الأصلاء، وشمائلهم من جهة أخرى.

ومن السياقات الإنتاجية التوليدية التي ترشحت من سياق الأمر في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ سياق الترغيب، قال ابن طاووس في بيان فضيلة شهر رمضان وما يتحصَّله الصائم من فضائل وملكات أخلاقيّة: «واعلم أنَّ شهر الصيام مثل دار ضيافة فتحت للأنام، فيها من سائر أصناف الإكرام والأنعام، ومن ذخائر خلع الأمان والرضوان، وإطلاق كثير من الأُسراء بالعصيان، وتواقيع بممالك وولايات ربانيات حاضرات ومستقبلات، ومراتب عاليات ومواهب غاليات، وطي بساط الغضب والعتاب والعقاب، والإقبال على صلح أهل الجفاء لرب الأرباب.فينبغي أن يكون نهوض المسلم العارف المصدق بهذه المواهب إلى دخول دار الضيافة بها على فوائد تلك المطالب بالنشاط والإقبال والسرور وانشراح الصدور» [1]، وبيان ذلك أنّ فعل الأمر (اعلم) خرج من دلالته الأصلية (الوجوب والإلـزام) إلى سياق انتاجي (الترغيب بالمغفرة ونيل السعادة)، ويتضح الفعل الكلاميّ الإنجازيّ التأثيري في ضوء المخطط الآتي:

الأمر (صيغة اعلم) ← إنشاء طلبيّ ← سياق إنتاجي (الترغيب بالمغفرة)

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١/ ٧٠.

ومن السياقات الإنتاجية التوليدية التي ترشَّحت من أسلوب الأمر في الخطاب الأخلاقي الطاووسيّ بوصفها أفعالًا كلاميَّة غير مباشرةٍ، سياق النصح والإرشاد، قال في وقت الوداع لشهر رمضان: «فاجتهد في وقت الوداع على إصلاح السريرة، فالإنسان على نفسه بصيرة، وتخيَّر لوقت وداع الفضل الذي كان في شهر رمضان اصلحْ أوقاتك في حسن صحبته، وجميل ضيافته ومعاملته، من آخر ليلة منه، كما رويناه، فإن فاتك الوداع في آخر ليلة، ففي أواخر نهار المفارقة له والانفصال عنه، فمتى وجدت في تلك الليلة أو ذلك اليوم نفسك على حال صالحة في صحبة شهر رمضان فودِّعه في ذلك الأوان، وداعَ أهل الصفا والوفاء، الذين يعرفون حق الضيف العظيم الإحسان، واقضِ من حقِّ التأسف على مفارقته وبعده، بقدر ما فاتك من شرف ضيافته، وفوائد رفده، وأطلق من ذخائر دموع الوداع ما جرت به عوائد الأحبة إذا تفرقوا بعد الاجتماع»[1]، فالفعل الكلاميّ (اجتهد) يكون من فعل إسنادي يتمثل من الجملة الفعلية الأمرية المكوَّنة من محمول الفعل (اجتهد)، وموضوعه الرئيس الفاعل المستتر (الصائم)، وفعل إحالي (إحالة إلى الصائم) عن طريق الإشارة إليه بالضمير(أنت) وفعل دلاليّ الذي يتشكّلُ من القضية التي تتمَّثل في أمر الصائم بوداع هذا الشهر بإصلاح السريرة والنقاء والصفاء، وتتشكّل القضيةُ من الاقتضاء (تهذيب النفس بعد انقضاء هذا الشهر)، والاستلزام المنطقي (أمر الصائم بتهذيب النفس وتصحيح المسار).

ويظهر الفعل الإنجازي في ضوء الجملة الفعلية (اجتهد) التي تتكَّون حمولتها الدلالية في أمرين، الأوَّل: قوة إنجازية حرفية تتمثل في الأمر، والآخر: قوة إنجازية مستلزمة تتمثل في النصح والإرشاد.

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١/ ٤٢١.

فظاهر الخطاب الطاووسيّ يدلُّ على أمر الصائم بتهذيب النفس، ورفع الأدران والحجب وهو فعل إنجازي مباشر (الأمر)، وفعل لغوي غير مباشر يفهم من سياق الجملة وقرائن الأحوال ويتمثل في فعل النصح والإرشاد.

قال ابن طاووس في بيان حال الكافرين الظالمين، حينما تركوا الحقّ وركنوا إلى الكفر والإنحراف، وقد وصف الحقﷻ حالهم، وعاقبتهم، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، قال ابن طاووس: «يقال: أَبْعَدَ بُعدًا وبَعَدًا إذا أرادوا البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك، ولذلك اختص بدعاء السوء» [(١)]، فقد جاء الخطاب (وقيل بُعْدًا) المؤدى بالجملة المبنية للمجهول الخبرية بنية، الإنشائية دلالة، فَنَلْمح الأمر الذي خرج من دلالته الرئيسة المحورية (الطلب والوجوب) إلى الدلالة التأثرية الإنجازيّة (الدعاء) عليهم بالهلاك والخسران، وتشتدُّ القيمة الدلالية في تضافر الفعل المبني للمجهول (قيل)، مع المصدر النائب مناب فعله (بُعدًا) من أجل توليد سياق الدعاء السريع بمعية الدلالات التعجب والتأكيد والاقتصاد، وفيما يأتي مخططًا يبين ذلك:

الأمر ← بنية (بعـــدًا) ← المصدر النائب مناب فعله ← سياق انتاجي توليدي (الدعاء)

قلنا من قبل: إنّ الإنشاء، يكون مجـرّدًا من المرجع الخارجيّ، وتنحصر دائرته في البناء اللغوي ذاته؛ فتتحقق الفائدة الدلاليّة ابتداءً من دون الرجوع إلى الواقع الخارجي، فهو يُلقى إلى المتلقيّ ليستدعي مطلوبًا ما، لم يكن حاصلًا وقت الطلب [(٢)]، ومن ثمّ فهو لا يحتمل الصدق أو الكذب؛ لكونه لا يلقيّ معلومة للمخاطب.

(١) سعد السعود: ٢٥٠.

(٢) ينظر: البلاغة والأسلوبية عند السكاكيّ: ١٩١.

ثانيًا: النهي

طلب الكف عن فعلٍ على وجه الاستعلاء وصيغته (لا تفعل)[1]، وهذا الأسلوب واحد من الأساليب الإنشائية الطلبية التي حفل بها الخطاب الأخلاقي الطاووسيّ، وتتجلى الخصائص الأسلوبية في هذا الملحظ الأسلوبي في علاقة الخطاب بالسياق أو مقتضى المقام.

وقد يخرج النهي إلى سياقات إنتاجية توليدية تفهم من السياق وقرائن الحال، وهذا الخروج يشتمل على قيمة تعبيرية إيحائية من جهة، ومقاربة تداولية من جهة أخرى.

وسنقلي بعض الخطابات الأخلاقيَّة الطاووسيَّة التي ورد فيها هذا الأسلوب مبينين الفعل الكلامي المؤدى بصيغة (لا تفعل) بوصفه فعلًا إنجازيًّا، سواء أكان مباشرًا أم غيرَ مباشرٍ، الذي يعنينا هنا الفعل الكلامي غير المباشر، قال ابن طاووس في بيان استقبال شهر رمضان المبارك: «أقول: فلا تكن أيّها الإنسان ممّن نزل به ضيف غني عنه، وما نزل به ضيف منذ سنة أشرف منه وقد حضره للإنعام عليه، وحمل إليه معه تحف السعادات، وشرف العنايات، وما لا يبلغه وصف المقال من الآمال والإقبال، فأساء مجاورة هذا الضيف الكريم، وجفاه وهون به، وعامل معه معاملة المضيف اللئيم، فانصرف الكريم ذاما لضيافته، وبقي الذي نزل به في فضيحة تقصيره وسوء مجاورته، أو في عار تأسفه وندامته. فكن إمّا مُحسنًا في الضيافة والمعرفة بحقوق ما وصل به هذا الضيف من السعادة والرحمة، والرأفة والأمن من المخافة، أو كن لا له ولا عليه، فلا تصاحبه بالكراهة وسوء الأدب عليه، وإنّما تهلك بأعمالك السخيفة نفسك الضعيفة، وتشهرها بالفضائح والنقصان، في ديوان الملوك والأعيان، الذين ظفروا بالأمان والرضوان»[2].

(١) ينظر: على سبيل المثال مفتاح العلوم: ٣٢٠، والطراز: ٣/ ٢٧٤، والإيضاح في علوم البلاغة العربية: ٨٥.

(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١/ ٤٢١.

ويمكن بيان هذه المقاربة التداوليَّة في ضوء المخطط الآتي:

أسلوب الطلب ← النهي ← لا تكن ← فعل إنجازي ← تنبيه وتحذير.

فالفعل الكلاميّ (فلا تكن) فعل إسنادي يتمثل في الجملة الفعليَّة المكوَّنة من محمول الفعل (تكن)، وموضوعه الفاعل المستتر (المستقبِل لشهر رمضان)، والفعل الإحالي (إحالة إلى الشخص المستقبِل المكلّف بالصيام بالضمير أنت)، والفعل الدلاليّ المكوَّن من القضية التي تتمثل في تنبيه الشخص المكلف أو المستقبل لهذا الشهر من الكشف عن أمره عن طريق توخّي الحذر من ترك صيام هذا الشهر الفضيل، وتتكوّن القضية من اقتضاء صيام شهر رمضان المبارك، واستلزام منطقي (النهي عن ترك صيام هذا الشهر)، والفعل الإنجازيّ تتكون حمولته الدلالية من قوة إنجازية حرفية هي (النهي)، وقوة إنجازية مستلزمة تتمثل في تحذير الشخص المكلف باستقبال هذا الشهر الفضيل صيامًا.

فهذه الجملة (فلا تكنْ) يسايرها فعلان لغويان، فعلٌ لغويّ مباشر تطابق فيه قوته الإنجازية معناه الحرفي المتمثل في فعل النهي الذي نستدلُّ عليه في ضوء القرائن البنيويَّة (لا الناهية) والفعل المضارع (تكن) غير أنّ الجملة بلحاظ السياق المقامي الذي وردت فيه لا يقصد منها إنجاز (فعل النهي)، وإنّما أنجز في ضوئها (فعل التحذير)، الذي نستدلُّ عليه من سياق الحال الذي يمثل فعلًا لغويًّا غير مباشر.

ونقدح بسياق الوعظ والإرشـاد في المتن الأخلاقيّ الـطـاووسيّ حينما وعظ المخاطَب وأرشده إلى إجهاد النفس، والعمل الكثير، والشغل العظيم في طاعة الله ﷻ ورضوانه، قال: «ولا تستكثرنَّ لنفسك شيئًا في دنياك ولو كان أضعاف ما يحتاج إليه فمنازل دار المقامة وسيعة تحتاج إلى قماش كثير، والمقام هناك دائم يحتاج إلى استعداد كبير، وحيث قد ذكرنا ما أردنا ذكره من الصلوات في جميع ليالي الأسبوع وأيامه بهذه

الروايات فنحن الآن ذاكرون بما يفتحه الله ﷻ علينا من الإمكان ما يختار ذكره من عمل: إمّا دعاء أو صلوات للحاجات أو غير ذلك مما نجده في الروايات عن الأبرار أو حديث باختيار يوم من أيام الأسبوع للأسفار»[1]، فالفعل الكلاميّ (لاتَسْتكثرَنَّ)، والفعل الإسنادي يتمثل في الجملة الفعليَّة المكوَّنة من محمول فعل النهيّ (لاتَسْتكثرَنّ)، وموضوعه الفاعل المستتر (العبد)، والفعل الإحاليّ (إحالة إلى العبد المكلّف من طريق الإشارة إليه بالضمير المستتر (أنت)، وفعلٌ دلاليّ يتشكل من القضية التي تتمثّل في نهي ابن طاووس العبدَ المكلف في المباهاة بالعبادات والاطمئنان بها، وتتكوّن من أمرين، الأوَّل: الاقتضاء (اقتضاء القيام بالأعمال الكثيرة والمباهاة بها تفاخرًا وعجبًا، من دون لحاظ أنّ دار المقام (الجنة) بحاجة إلى الذوبان في ذات الله ﷻ والوصول إلى أعلى مراقيّ التقوى والسعي في مرضاة الله، والآخر: استلزام منطقيّ، إذ نهى ابن طاووس عن العُجُب بالأعمال مهما كُثرت وعظمت.

ويتجلَّى الفعل الإنجازي في الجملة الفعلية (لاتَسْتكثرَنّ) التي تتشكَّل حمولتها الدلاليَّة من قوة إنجازيّة حرفيّة، هي: النهي، وقوة إنجازيّة مستلزمة تتمثل في الوعظ والإرشاد، فالمتن الأخلاقيّ الطاووسيّ أنجز فعلين لغويين، فعلٌ لغويّ مباشر يتمثل في نهي ابن طاووس المخاطَب عن العُجُب، والتفاخر، والتباهي بالأعمال الصالحة في الدنيا، ونستدل على فعل النهي في ضوء القرائن البنيوية، نحو: (لا) الناهية، والفعل المضارع المنهيّ، وإنّما أُنجز فعل الوعظ والإرشاد الذي يمثل لنا فعلًا لغويًا (غير مباشر).

فابن طاووس يرشد مخاطبه من طريق نهيه عن العُجُب والفخر بالأعمال؛ لأنّ دار المقامة (الجنة) بحاجة إلى السعيّ والجهد وترويض النفس.

(١) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ١٠٩.

ومن المواضع التي ورد فيها النهي بوصفه فعلًا كلاميًا إنجازيًا غير مباشر قول ابن طاووس الحلّيّ: «وإنْ احْتجْتَ إلى سفر (...) فلا تسافرْ بالطبع والغفلة والأطماع الدنيويّة فتكون مخاطرًا مع الله ﷻ ومهونًا لجلالته الإلهيّة ومضيعًا زمان أسفارِك في غير ما ينفعك لدار قرارك» [1].

فالفعل الكلاميّ (فلا تسافرْ)، يتكون من (فعل إسناديّ) يتمَّثل في الجملة الفعليَّة المكوَّنة من محمول الفعل (لا تُسافرْ)، وموضوعه الفاعل المستتر (المخاطَبْ)، و(فعل إحاليّ) إحالة إلى (المخاطَب) من طريق الإشارة إليه بالضمير المضمر (أنت) و (فعل دلاليّ)، الذي يتكون من القضية المتمثّلة في نهي ابن طاووس الحلّيّ عن السفر المذموم (سفر المعصية والغفلة والأطماع الدنيوية)، وتشكّلُ هذه القضية من اقتضاء إمكانية سفر الغفلة والمعصية، (واستلزام منطقيّ) نهي ابن طاووس المخاطَب عن هذا السفر (سفر الشرّ والغوايّة)، و(فعل إنجازي) يتجسَّد في هذه الجملة الفعلية، التي تشكّلُ من (قوة إنجازية حرفية)، هي النهيّ (لا تسافرْ)، (قوة إنجازية مستلزمة) تتمثّل في التحذير والتهديد، فظاهر قول ابن طاووس يدلّ على نهيه عن سفر الغفلة والمعصية والأطماع الدنيويّة، فهو سفر الشيطان والضلال لا يعود على صاحبه إلّا بالندم والبعد عن الله ﷻ.

ثالثًا: الاستفهام

طلب الفهم من الآخرين من أجل الفهم والاستعلام والاستخبار [2]، وهو أسلوب إنشائي طلبي مهم له قيمته الإيحائيَّة والأسلوبيَّة في بنية النص وما يضفيه من أثر جماليّ على الصورة التي يظهر فيها، ولاريبَ «أنّ الاستفهام أوفر أساليب الكلام معاني وأوسعها تصرفًا وأكثرها في مواقف الإنفعال ورودًا ولذا نرى أساليبه تتوالى، في

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٧٧.

(٢) ينظر: على سبيل المثال مفتاح العلوم: ١٥٠، والطراز: ٣/ ٢٨٦.

مواطن التأثر وحيث يراد التأثير وهيج الشعور للاستمالة والإقناع وإذا صحّ القول: إنّ للكلام قمة عليا في البلاغة كان أسلوب الاستفهام محتلًا أعلى مكان في تلك القمة» [1].

قد يخرج الاستفهام بوصفه فعلًا كلاميًا عن حقيقته (طلب الفهم والاستخبار) إلى معانٍ مجازية تفهم من السياق وقرائن الحال وهذا فهم البلاغيين أجمع [2]، والذي يبدو أنّ خروج الاستفهام من دلالته المركزية (الحقيقية) إلى سياقات إنتاجية وتوليدية تحصلت بفعل سياق الكلام ودرجه، وهذا ما تنبه عليه التداوليون فذكروا الأفعال الكلاميَّة الإنجازيَّة والتأثيريَّة انسجامًا مع ما يحدثه السياق من تفاعلات خطابية.

وآن الأوان أن نستثمر النصوص الطاووسيّة في استجلاء السياقات الإنتاجيَّة والتوليديَّة التي ترشَّحت من النصوص ولاسيّما في خطاباته الأخلاقية المتضمِّنة لأسلوب الاستفهام، قال ابن طاووس مستنكرًا الذين لا يرجون لحرمة دم الإنسان وقارًا فالإنسان ذو كرامةٍ لا يمكن أنْ يباح دمه وماله – وانْ كان ذا عقيدةٍ مخالفةٍ فاسدةٍ– ومستنكرًا ما يفعله ذوو الأفكار المنحرفة والضّالة في زمنه، والحال في زماننا هذا من إزهاق دماء المسلمين وغيرهم بحجة عقيدتهم المخالفة، قال: «كيف كان الله ﷻ يبيح دمه وماله وما أحسن به إليه وما مضى عليه من الزمان بعد بلوغ رشاده ما يكفيه لتعلمه من أستاذه ومن ملازمته وتردده والله ﷻ أرحم من الخلق كلّهم بعباده وما أباح دمه إلّا وقد اكتفى منه بما فطره عليه وبما يسعه بأقل زمان بعد إرشاده لاعتقاده»[3]، فالاستفهام في الخطاب الأخلاقيّ خرج من دلالته المباشرة (طلب الفهم) إلى دلالة غير مباشرة (سياق الاستنكار).

(١) فن البلاغة: ١٣٧.

(٢) ينظر: على سبيل المثال مفتاح العلوم: ١٤٩، والطراز: ٥٣٢، والإيضاح في علوم البلاغة العربية: ١/ ١٣٧.

(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٥٣.

ومن السياقات الإنتاجية التداولية التي خرج إليها الاستفهام في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، سياق التقرير، وهو فعلٌ انجازيٌّ تأثيريٌّ، قال مبينًا مرجعية المعرفة الإلهية: «فهل ترى ياولدي المعرفة بالله إلّا من الله وبالله وأنّه ﷻ هو الذي هدى للإيمان بمقتضى القرآن وأنّه هو صاحب المنّة في التعريف وأنّه لولا فضله ورحمته ما زكّى منْ أحدٍ في التكليف»[1]، ولا يخفى أنّ قول ابن طاووس من روائع الكلام، وأمّات البيان... فأجمِلْ بقوله: (المعرفة بالله الّا من الله وبالله) وأنّه ﷻ هدى للإيمان بمقتضى القرآن.

ومن السياقات الإنتاجيَّة التداوليَّة التي خرج اليها الاستفهام في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ (سياق التعجب) الذي صرّح به ابن طاووس، قال في بيان كرامات السَّيِّدة مريم عليها السلام: «وبلغت مريم إلى كرامات وسعادات حتَّى أنَّ النبيَّ المُعظّم في وقتها زكريا يدخل عليها في المحراب فيجد عندها طعامًا يأتيها من سلطان يوم الحساب بغير حساب ويفهم من صورة الحال أنَّ زكريا ما كان يأتيه مثل ذلك الطعام؛ لأنّه عليه السلام قال أنى لك هذا؟ على سبيل التعجب والاستفهام وهو أقرب منها إلى صفات الكمال»[2]، فالاستفهام خرج من قوته الإنجازية المباشرة (طلب الفهم والاستخبار) إلى قوة إنجازية مستلزمة (التعجب) وهو إظهار الدهشة والانبهار.

ومن السياقات الإنتاجيَّة التداوليَّة التي خرج إليها الاستفهام من دلالته الحقيقية في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ سياق (التحذير)، قال ابن طاووس محذرًا المخاطَب ممّن لا يخاف وعيد الله ﷻ وتبكيته، قال: «كيف صرت عند وعيد الله ﷻ وتهديده قويًا لا تقبل تحذيرًا ولا تخويفًا وكأنّي بك أنت تقول: إنّك تتكل على رحمة الله وجوده وهذا منك بهتان واستخفاف بوعيده، ويحك أنت تعلم من نفسك أنّك عند الذنوب ما يخطر بقلبك إنَّك تفعلها لأجل رحمة علّام الغيوب»[3].

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٦٥.

(٢) م. ن: ٧٣، ٧٤.

(٣) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ١١٨.

فالفعل الكلاميّ (كيف صرت) يتكوَّن من فعل إسنادي جملة فعليَّة مكوَّنة من محمول فعل (صرتَ)، وموضوعه الفاعل المستتر (العبد)، وفعل إحالي إحالة إلى العبد عن طريق الإشارة إليه بالضمير المستتر (أنت) فضلًا عن (قويّا) والضمير في (تقبل)، والكاف في (فإنّك)، و (فكأنّك)، وفعلٌ دلاليّ يتشكل من القضية التي تظهر في جحود العبد وعصيانه وعدم خوفه من وعيد الله ﷻ وناره، وتتكوَّن القضية من أمرين الأوَّل: الاقتضاء، أي اقتضاء جحود العبد ربّه وعدم الخوف من وعيده وناره، والآخر: استلزام منطقي في لوم العبد وتحذيره لجحوده وإصراره على الذنب.

ويتجلَّى الفعل الإنجازيّ في قوتين، قوة إنجازيَّة حرفية (الاستفهام بكيف)، وقوة إنجازيَّة مستلزمة (تحذير وتوبيخ ولوم وعتاب).

يصوِّر لنا هذا الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ العبد المصر على العصيان تكبرًا وتعاليًا فهو ظالمٌ لنفسه بكفره وعصيانه، وإغفاله قدرة الله ﷻ، وعظمته ووعيده وناره، موبخًا له من طريق سؤاله الذي وجهه إليه: كيف صرت؟ إذ يُمثّل الاستفهام هنا فعلًا لغويًا مباشرًا نستدلُّ عليه حرفيًا بقرائن بنيويّة، هي: أداة الاستفهام (كيف)، غير أنّ الجملة في السياق التي وردت فيه لا يقصد بها إنجاز فعل السؤال، وإنّما أنجز بها فعل التحذير والتوبيخ.

وقد يتولَّد من الاستفهام غرض تواصليّ تداوليّ وهو (التقرير)، قال ابن طاووس: «أفلا ترى أنّ العقول كانت مع أصحابها قبل إرسال الله ﷻ جدّك محمَّدًا صلوات الله عليه إليهم كانوا عاكفين على عبادة الأصنام والأحجار والأخشاب يضحك الشيطان بها عليهم وبلغوا إلى أخس وأدبر من الدواب؛ لأنَّ الدابة لو تركت بغير سائق ولا قائد ما مشت إلّا إلى ما يعتقد فيه نفعًا بسبب من الأسباب والذين عبدوا الأصنام ما كانت نافعة لهم ولا دافعة عنهم وهي مساوية لسائر الأحجار والأخشاب حتَّى تفضَّل الله ﷻ

عليهم بجدك محمَّدﷺ فأيقظ العقول من رقدتها وكشف عنها غطاء جهالتها فأبصرتْ ما كان مستورًا عنها»[1].

فالفعل الكلاميّ (أفلا ترى)، يتشكّل من (فعل إسناديّ) مكوَّن من محمول الفعل (ترى)، وموضوعه الفاعل المستتر (ولده محمَّد)، وفعل إحاليّ إحالة إلى ولده (محمَّد) من طريق الإشارة إليه بالضمير المستتر (أنت) في الفعل (تَرى)، (فعل دلاليّ)، وتتشكَّل من القضية التي تتمثل في تقرير وإقرار ولده على التأمل والتصور العقليّ في انتقال حال العرب من عبادة الأصنام والأخشاب إلى عبادة اللهﷻ، بفضل اللهﷻ حينما أرسل محمَّدًاﷺ فأنقذ البشريّة من الظلمات إلى النور، ويظهر الفعل الإنجازي في ضوء تشكّل حمولته الدلاليّة من: قوة إنجازيّة حرفيّة تتمثل في الاستفهام المنفيّ، وقوة إنجازيّة مستلزمة تتمثَّل في التقرير والإذعان.

ويصرُخ السياق الإنتاجي (التعظيم) في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ في أسلوب الاستفهام، في وصيته لابنه متسائلًا عن عظمة اللهﷻ وقدرته في إنزال الماء وفتق العيون ما تعجز عن فتقها قوة العالمين، «ثم تذكر يا ولدي محمَّد ذكرك اللهﷻ بما يريد من مراحمه وعرفك بفضل مكارمه كيف أجرى الماء الذي تحتاج إليه من العيون ومن تحت الأرضين وفتقها بقدرته وفيها ماء هو بين صخر أصمّ يعجز عن فتقه قوة العالمين، ثم كيف أنزل ما أنزله من السحاب المسخر بين السماء والأرض وجعل السحاب كالمنخل لينزل بنقط متفرقة سهلة النزول من ذلك العلى ولو جعله جاريًا من الغمام مثل جريه في البحار والأنهار كان قد أهلك بني آدم وأتلف ما خلق لهم من النبات والأشجار وخرب ما بنوه من الديار، وكيف لم تخلط النقطة في طريق نزولها بمصادمة الهواء، وكيف جعله في وقت دون وقت بحسب الحاجات وجعله مُباحًا مطلقًا للعزيز والذليل في سائر

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٨٠.

الأوقات لما علم أنّه من أهم الضرورات لئلا يمنعه الملوك الظالمون عن المحتاجين إليه، وكلُّ عدو عن عدوه، ويفسد تدبير الدنيا، ويموت من منع منه بالمغالبة عليه»[1]، فالفعل الكلاميّ: كيف أجرى الماء، ثمّ كيف أنزل ما أنزله والفعل الإسناديّ مكوَّن من محمول الفعل (أجرى)، و(أنزل)، ومن موضوعه الأساس الفاعل (الله ﷻ)، والفعل الإحاليّ: إحالة إلى الله ﷻ الذات الإلهية في ضوء الإحالة إليه بـ (الضمير) هو، والفعل الدلاليّ مكون من القضية التي تتمثل في قدرة الله ﷻ في انزال الماء من السحاب، وفتق العيون، وانزله نزولًا دقيقًا بقدر معلوم ليس كجريان البحار والأنهار، وتتشكّل القضية من:

١. الاقتضاء: اقتضاء وجود خلّاق عظيم، وقادر كبير.

٢. استلزام منطقيّ: إنزال الماء واستخراجه من لدن الله ﷻ دليل على قدرته، وعظمته ﷻ.

ويتجلَّى (الفعل الإنجازيّ) في حمولته الدلاليَّة المكوّنة من(قوة إنجازيّة) حرفيّة تتمثل في (الاستفهام – السؤال) بـ (كَيْف) وقوة إنجازية مستلزمة تتمثّل في التعظيم والتفخيم.

رابعًا: النداء

للنداء علاقة متينة بمفهوم الإنشاء بوصفه مفهومًا يتجاوز مجاله الأعمال الطلبيّة، ويختلف عنها بوجه من الوجوه؛ بسبب تضمّن النداء دلالة التنبيه والإصغاء من جهة، ودلالة إقبال المخاطَب ودعوته من جهة أخرى، والنداء يمثل صورة لافتة، وأمرًا مفيدًا في دعم فكرة إنتاج النص[2]، وقد اضطمّ النصّ الطاووسّي على هذا الخطاب الإنشائي

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٩٥.

(٢) ينظر: السياقات الإنتاجيّة للخطاب الإنشائي في نهج البلاغة أسلوب النداء أنموذجًا: ١٥٠، ١٥١.

الندائي التنبيهي بلحاظ النداء والمنادى، سواء ورد هذا الأسلوب بحرف النداء مذكورًا على مستوى السطح أم مضمرًا على مستوى العمق.

قال ابن طاووس في وصيته لابنه حين لبسَ اللباس الجديد: «فيحسن أن تقول يا ولدي محمَّد، عند لبس الثياب الجديدة: اللّهم إن كنت تعلم أن فيها شيئا من المحرمات أو الشبهات فأنت المالك لأصل الحقوق والمالك لمن انتقلت إليه فأسألك أن تجعل لكلِّ صاحبٍ حقًّ فيها عوضًا من فضلك يسدّ عني باب عدلك وألحقني فيها بمقام من ألبست خلعًا طاهرةً من كلِّ حقٍ وشبهة باطنة وظاهرة، وأن تكون هذه ثيابي من خلع السعادات الباهرة في الدنيا والآخرة» (١).

الفعل الكلاميّ (اللهمّ إنْ كنت تعلم) يتكوَّن من فعل إسنادي: يتمثل في الجملة الفعلية (اللهمّ إنْ كنت تعلم) المكوَّنة من محمول الفعل النائب مناب (حرف النداء) المحذوف، (يالله)، والأصل أدعو أو أنادي أو أنبّه، والفعل (كان)، ومن موضوع رئيس يتمثل في فاعل (الله) المنادى، والضمير المتصل (تاء المخاطَب في كنت»، والضمير المستتر في (تعلم) وهو الله ﷻ، وفعل إحالي إحالة إلى الله ﷻ بالإشارة اليه سواء ظاهرًا (يا اللهُ) أو بالضمير المتصل (تَ)، والضمير المضمر (أنت) في تعلم، وفعل دلاليّ يتكون من القضية التي تتمثل في الدعاء والخشوع وطلب الاستجابة من الخالق العظيم ﷻ، وتسلل القضية من:

أ. **الاقتضاء**: اقتضاء الاستجابة من الله ﷻ في تطهير الثوب.

ب. **استلزام منطقيّ**: التأكيد على قدرة الله ﷻ في إحقاق الحق وتطهير النفوس والثياب، ويتكون (الفعل الإنجازي) من قوة إنجازية حرفية هي (النداء)، وقوة إنجازيه مستلزمة: تتمثل في الدعاء لله ﷻ، والتضرع له وطلب الطهارة ورفع الشبهات، والدعاء بجعل الخلع طاهراتٍ من كلِّ حقٍّ وشبهة باطنة وظاهرة.

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٩٧.

وقد يتولّد من النداء في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ غرض تواصلي تداوليّ إنجازيّ وهو (المدح والفخر)، قال ابن طاووس في دعاء خاصّ به: «ورأيت في المنام مَن يعلمني دعاءً يصلح لأيام الغيبة، وهذه ألفاظه يا من فضّل إبراهيم وآل إسرائيل على العالمين باختياره، وأظهر في ملكوت السماوات والأرض عزّة اقتداره، وأودع محمَّدًا ﷺ وأهلَ بيته غرائب اسراره، ﷺ، واجعلني من أعوان حجّتك على عبادك وأنصاره» [1]، فجملة (يامَنْ فضل ابراهيم...) تمثل قوة إنجازيّة حرفية تتمثل بالنداء، وقوة إنجازيّة مستلزمة: هي الدعاء فالنداء (يامنْ...) بمثابة طلب جواز العبور إلى مدح محمَّد ﷺ، وأهل بيته، فقد استطاع هذا الأسلوب أنْ يطبع المدح لهم، فضلًا عن ذلك هو جواز عبور إلى الأمر في قوله: (واجعلني من أعوان حجّتك على عبادك وأنصاره).

من هنا نخلص إلى أنّ الدعاء الطاووسيّ واكبه قوتان إنجازيتان، الأولى: الفعل المنجز بأسلوب النداء المدلول عليه حرفيّا بقرائن بنيويّة وهي حرف النداء (يا) وبنية النداء، والأخرى: قوة إنجازيّة هي فعل الدعاء والمدح فجاء عقبان هذا الابتهاج والمدح لآل ابراهيم، الدعاء الخالص بإيداع محمَّد وآل محمَّد غرائب الأسرار، زِدْ على ذلك دعوتَه الخالصة بأنْ يكون من أنصارهم وأعوانهم، ممّا فتح النداء بُعدًا إيمانيًا وولائيًّا يريده حقًا وصدقًا.

تقسيمات سيرل

ومن لواحق هذا الفصل الأفعال الكلاميّة في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ ولوازمِهِ الإشارة إلى تقسيمات (سيرل) التي تعّدُ إضافات لتداوليّة أوستن، وهي:

أوّلًا: التعبيريات

جهد (سيرل) وأسهم في تطوير نظرية الأفعال الكلاميّة بتصنيفه الأفعال الكلامية على خمسة أصناف ابتعد في ضوئها عن تصنيف أستاذه (أوستن) ومنها الأفعال التعبيرية

(١) مهج الدعوات ومنهج العنايات: ٣١٢، ٣١٣.

التي تمثل غرضًا إنجازيًّا في التعبير عن حالة (سايكولوجية) نفسيَّة تعبيرًا يتماشى ويتماهى مع شرط الإخلاص، وليس لهذه الجهة اتجاه مطابقة، إذ لا يقصد بها مطابقة العالم للكلمات، أو مطابقة الكلمات للعالم بل المقصود فيها صدق القضية، ويدخل في هذا الصنف الأفعال من مثل: (شكر، اعتذر، عزّى، هنّأ،...) [1] ومن الخطابات الأخلاقيَّة الطاووسيَّة التي نلمح فيها بُعدًا تداوليًا موظفًا بهذه الكيفية، قوله في الاعتذار عن قبوله الروايات التي طعن فيها من جهة راويها، سواء أكان الطعن من غير معصوم أم من المعصوم، قال: «أقول ومن العذر في نقل حديث في رواية من ينقل الطعن عليه إنَّني وجدتُ ذلك الطعن عن غير معصوم وعن معصوم لم يثبت إسناد الطعن إليه، فإنَّ الطعنَ يحتاجُ إلى شهادة ثابتة مرضية في الشريعة المحمَّديَّةﷺ أو طريق يكون عذرًا واضحًا عند الجلالة الإلهيَّة، أقول ومِن الأعذار إنَّني وجدت أنَّ الإنسان قد يغضب على واحد في الأزمان فيقول عنه في حال غضبه غير ما كان إمّا على عمد أو نسيان ثم يشيع ذلك حتَّى يعتقد أو يظن كثير من السامعين إنَّ ذلك حقٌّ، وإنّه على اليقين، ثم ينكشف بعد هذا لبعض من يستكشف عنه أنَّه ما كان شيء من ذلك قد وقع منه وربَّما اعترف الذي قال في حال غضبه بأنَّه أخطأ في الطعن والمقال» [2].

ثانيًا: التنبيهات

وهي أفعالٌ كلاميةٌ إنجازيةٌ تصريحيةٌ صرّح فيها بالفعل المُنجز وهي تحدِّد مفاتيح الإنشاء وتختلف عن الجمل الخبريَّة (التقريريَّة) التي تحتمل الصدق والكذب [3]، ومن التنبيهات التي اضطمّ عليها الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ ما ذكره لولده من التنبيه على

(١) ينظر: التداوليّة (البعد الثالث من سميوطيقا موريس حتَّى اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة): ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) فلاح السائل في عمل اليوم والليلة: ٤٨.

(٣) الاستلزام الحواري في التداول اللسانيّ: ٧٩، ٨٠.

معرفة الله ﷻ والتشريف بذلك التعريف، قال: «إنّك تجد كُتب الله ﷻ السالفة والقرآن الشريف مملوء من التنبيهات على الدلالات على معرفة مولاهم ومالك دنياهم (...) وترى علوم سيِّدنا خاتم الأنبياء وعلوم مَن سلف من الأنبياء ﷺ وعليهم، على سبيل كتب الله ﷻ المنزلة عليهم في التنبيه اللطيف والتشريف والتكليف» [1].

ومن الأفعال الكلاميَّة الإنجازيَّة التصريحيَّة ذات التأثير (التحذير)، قوله محذِرًا ولده في استبطاء إجابة الله ﷻ واتهام رحمته: «إيّاك أن تستبطيء إجابته وأنْ تتهم رحمته فإنّ العبدَ ما يخلو من تقصير في مراقبة مولاه ويكفيه أنّه يعظم ما صغر، ويصغر ما عظم من دنياه وأخراه، ويكفيه أنّه يغضب لنفسه ولمنْ يعز عليه أكثر ما يغضب لله ﷻ المُحسن إليه ويكفيه أنّه ما هو راضٍ بتدبير مالكه ﷻ بالكلية وأنّه يعارضه بخاطره وقلبه وعقله معارضة المماثل أو الشريك أو العبد السيّء العبودية» [2].

ثالثًا: التوجيهات (التحذيرات)

ونلمح أفعالًا كلاميّة مباشرةً في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ فيه بعد تداوليّ تحذيريّ، قال ابنُ طاووس مُحذرًا من تضييع الوقت، والتغافُل عن العمل: «إيّاكَ والكسلَ عن اغتنام أيام المهل والتغافل عن العمل، والموت وقد توجَّه إليك، وهو قادم لا محالةَ عليك ويقطعك عن صالح الأعمال، ويكون اسمك بين أسماء الغافلين الخائبين في الآمال، فإنْ كنتَ تجدُ من نفسك نشاطًا وإقبالًا، وإلّا فذِّكرها وحذِّرها وخوِّفها وعظِّمها فعالًا ومقالًا» [3]، فالفعل الكلاميّ: (إيّاكَ والكسلَ) فعل إسناديّ يتمثل في الجملة الفعليَّة (احذر إيّاك والكسلَ)، وموضوعه المفعول به (إيّاكَ) والمخاطَب (العبد)،

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٤٨، ٤٩.

(٢) م. ن: ٧٣.

(٣) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٤٤.

وفعلٌ إحاليّ (إحالة إلى العبد من طريق الإشارة إليه بالضمير المنفصل (إيّاكَ)، وفعلٌ دلاليّ يتشكّلُ من القضية التي تتمثّل في تحذير ابن طاووس العبدَ عن التغافل ونسيان مراقبة الله ﷻ، وهذا الفعل الدلاليّ يتكوَّن من أمرين، الأوَّل: الاقتضاء (اقتضاء عدم التغافل ولزوم معرفة أنّ اللهَ رقيبٌ محاسبٌ)، والآخر: استلزام منطقي (تحذير ابن طاووس عن الغفلة والسهو والكسل).

ويتجلَّى الفعل الإنجازي المتمثل بالجملة الفعليَّة التي تتشكَّل حمولتها الدلاليّة في قوة إنجازية حرفية، هي: إيّاكَ والكسلَ، وقوة إنجازيّة مستلزمة تتمثل في التحذير والتنبيه، فالقول ينجز فعلين لغويين، الأوَّل: فعلٌ لغويّ مباشر: إيّاك والكسل، يعمل في التحذير الضمير المنفصل المقدَّم وجوبًا، والآخر: الغاية منه (فعل لغويّ إنجازيّ) أُحذّرُك الكسلَ.

ويظهر أنّ القرينة السياقيَّة المقاليَّة قد ساعدت في استظهار الفعل الإنجازيّ (التنبيه والتحذير) بتلاحق الأفعال الأمريَّة، وتعاقبها في النسق الطاووسيّ، (فذكّرها، وحذّرها، وخوّفها، وعظّمها).

رابعًا: الإخباريات (التقريرات)

ومن الإخباريات (التقريرات) في الخطاب الأخلاقي الطاووسيّ دعاؤه للضّالين والجاحدين بالهداية، وهو منهج أخلاقيّ عظيم البيان عالي المضمون قلَّما نجد نظيرًا له في خطابات الأخلاقيّين ما خلا الرسل والأنبياء والأئمة المعصومين، قال: «أقول: وكنت في ليلة جليلة من شهر رمضان بعد تصنيف هذا الكتاب بزمان، وانا أدعو في السحر لمن يجب أو يحسن تقديم الدعاء له، ولي ولمن يليق بالتوفيق أن أدعو له، فورد على خاطري أنّ الجاحدين لله ﷻ ولنعمه والمستخفين بحرمته، والمبدلين لحكمه في عباده وخليقته، ينبغي أنْ يبدأ بالدعاء لهم بالهداية من ضلالتهم، فإنّ جنايتهم على الربوبية،

والحكمة الإلهيَّة، والجلالة النبويَّة أشدُّ من جناية العارفين بالله وبالرسول صلوات الله عليه وآله.فيقتضي تعظيم الله وتعظيم جلاله وتعظيم رسولهﷺ وحقوق هدايته بمقاله وفعاله، أن يقدم الدعاء بهداية مَن هو أعظم ضررًا وأشد خطرًا، حيث لم يقدر أن يزال ذلك بالجهاد، ومنعهم من الإلحاد والفساد.أقول: فدعوت لكلِّ ضالٍ عن الله بالهداية إليه، ولكلِّ ضالٍ عن الرسول بالرجوع اليه، ولكلّ ضالٍّ عن الحق بالاعتراف به والاعتماد عليه.ثم دعوت لأهل التوفيق والتحقيق بالثبوت على توفيقهم، والزيادة في تحقيقهم»[1].

فنلمح التقرير الإنسانيّ الطاووسيّ الواضح، في الدعاء الصادق والخالص للهﷻ في هداية المنحرفين وإرجاعهم إلى ساحة الحقّ والرشاد، وكذلك تشجيع المؤمنين على البقاء على إيمانهم، والدعوة الخالصة بالثبات إلى منهجهم.

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة:١/ ٣٨٥.

الفصل الرابع

الاستلزام الحواريّ والحِجاج في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحِلِّيّ

الفصل الرابع

مدخل

ستكون المقاربة التداوليّة باستشراف مبدأ الاستلزام الحواريّ القائم على إرادة المتكلّم إيصال المعاني والدلالات بوعي أكثر من الألفاظ والعبارات نفسها، وإحساسه العميق أنّ سامعه، ومتلقيه قادرٌ على استظهار واستيحاء دلالات مستلزمة لم تظهر على البنية السطحيّة، ومَبدأ الحجاج التداوليّ المستند على تقريب الصور والحقائق، وإيصال الأفكار من أجل الوصول إلى أقصى غايات التقريب التداوليّ.

ومن هنا، فإنّ هذا الفصل سيتناوش هذين البُعدَين التداوليِّين التقريبِّيين رغبةً وحرصًا في استيحاء المعاني والدلالات المتنوعات، واستجلائها في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، الذي انطوى على تطبيقاتٍ وشواهد.

ولمّا كان ابن طاووس الحِلِّيّ عارفًا تربويّا عاملًا، جاء خطابُهُ الأخلاقيّ مشحونًا بقواعد هذين البعدين (الاستلزام الحواريّ) و (الحِجاج)؛ لأنَّ الخطاب الأخلاقيّ التهذيبيّ - قطعًا - يستلزم، ويتطلّبُ قدرًا كبيرًا، وحيزًا وسيعًا من الاستلزامات الحواريّة وأنماط الحِجاج وأنساقه.

الفصل الرابع

المبحث الأوَّل

الاستلزام الحواريّ

إنّ قراءة الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحِلّيّ لا بُدَّ من إدراج البُعد التداوليّ للعصر الذي عاش فيه، فالأثر الوعظيّ والإرشاديّ والتهذيبيّ لا يتحقّق في أدب ابن طاووس وتراثه فحسب، ولكنْ يتحقَّق على مستوى التواصل والإقناع والامتاع بين المُنتِج للخطاب الأخلاقيّ، وبين المُتلقيّ لهذا الخطاب.

يُعدّ الاستلزام الحواريّ آليةً من آليات الخطاب، فهو يُقدّم تفسيرًا لقدرةِ المتكلم على أنْ يعيَ أكثر ممّا يقول: أي أكثر ممّا تؤديه العبارات المستعملة، فاستعمال جملة(ناولني الكتاب من فضلك) – على سبيل المثال – المنجزة في مقام محدَّد يخرج معناها من الطلب (الأمر) إلى معنى الالتماس وهو ما تفيده القرينة(من فضلك)[1].

ومن أهم التعريفات الحديثة التي قُدِّمت بخصوص الاستلزام الحواريّ:

١. المعنى التابع للدلالة الأصلية للعبارة.

٢. ما يرمي إليه المتكلم بشكلٍ غير مباشر، جاعلًا مستعمِلَه يتجاوز المعنى الظاهري لكلامه إلى معنى آخر [2].

إنّ اللغة المتداولة بتأثير أهداف تواصُلّية محدَّدة، فقد نستعمل جملة ما قاصدين معنى جملة أخرى، ومن ثمَّ يتمُّ الانتقال من معنى إلى معنى غير صريح، أو (مستلزم حواري)، ومن هنا، فإنّ الاستلزام الحواري من أهم المفاهيم التي تقوم عليها التداوليات.

(١) الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١٩.

(٢) ينظر: م. ن: ١٨.

ويقوم الاستلزام الحواريّ على ثلاثة مرتكزات:

أ – معنى الجملة المتلفظ بها من متكلم في علاقته بمستمع.

ب – المقام الذي تنجز فيه الجملة.

ج – مبدأ التعاون بين المتكلم والسامع [1].

لقد عرف المبدأ التداوليّ الأوَّل للتحاور باسم (مبدأ التعاون) وورد نصُّ هذا المبدأ في اللسانيات عند الفيلسوف الأمريكي (بول كرايس) إذ ذكره أوَّل مرّة في دروسه المدوَّنة بعنوان محاضرات في التحاور ومفاده: أنّ على أطراف الحوار أنْ تتعاون فيما بينها لتحصيل المطلوب، بمعنى أنّه يوجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف من الحوار الذي دخلا فيه إنْ سابقًا وإنْ حاضرًا [2]، ويقوم مبدأ التعاون عند (كرايس) على قواعد أساسيَّة يفترض أنْ يحترمها المخاطبون؛ لإنجاح التواصل بينهم، أي بين المتكلمين والمخاطبين، وهو مبدأ حواري تداوليّ عام يشتمل على أربعة مبادىء فرعية، هيّ:

١. مَبدأ الكَمّ، اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من دون أنْ تزيد عليه أو تنقص منه.

٢. مبدأ الكيف، لا تقل ما تعتقد أنّه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه.

٣. مبدأ المناسبة (العلاقة)، اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

٤. مبدأ الطريقة (الصيغة)، كُن واضحًا ومحّددًا، فتجنَّب الغموض، وتجنَّب اللبس، وأوجز، ورتّب كلامك[3].

(١) الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١٧، ١٨.

(٢) ينظر: مفهوم التخاطب بين مقتضى التبليغ ومقتضى التهذيب: ٤٣، ٤٤.

(٣) ينظر: الاستلزام الحواريّ في سورة البقرة دراسة تحليلية تداولية: ٦٥ والتخييل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقاربة تداولية: ٣٢، والاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١٦.

والاستلزام الحواريّ هو أحدُ مجالات التداوليّة المهمة التي اهتم بها بول غرايس حينما ألقى محاضراته في جامعة هارفرد سنة (١٩٦٧م) منطلقًا من فكرة: «أنّ الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون وقد يقصدون عكس ما يقولون (...) فأراد أن يقيم معبرًا بين ما يحمله القول من صريح وما يحمله القول من معنى متضمِّن ممَّا نشأ عنه فكرة الاستلزام الحواري» (١).

ومن تطبيقات هذا المبدأ التي نقتنصها من الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، والتي يتوَّجب على المشاركين في الحديث أنْ يحترموا مبدأ التعاون التي يفترض فيه المتكلم أنّ المستمع يدرك المعنى المستلزم، وأنّ المستمِعَ (المخاطَب) قادرٌ على الاستنتاج، انطلاقًا من الافتراض القائم على مسلمة الملائمة، وكونه عارفًا بالعبارات الإحالية، ما جاء في وصية ابن طاووس لابنه، قال: «ثمّ تذكر يا ولدي محمَّد أغناك الله ﷻ بتذكاره وأنواره وجعل إيثارك متابعًا لإيثاره أنّ الوقت الذي شرَّفك فيه بالعقل وما هو له أهل، وبعث إليك حفظة ملائكته تحتاج إلى أن تعرف أعداء مولاك وأعدائك الذين يريدون أن يحولوا بينك وبين نعمته وعنايته ويشغلونك عن شرف مراقبته وعن هيبته وعظمته، فمنهم الشيطان الذي أهلك نفسه وحسد الذين يرجى لهم السلامة وقصدهم بالعداوة، وقد جعل الله ﷻ لك منه حصونًا منيعةً ودروعًا وسيعةً فلا تفارقها. منها: الإخلاص في طاعة رب العالمين (...)، ومنها: الإيمان والتوكل على الله ﷻ» (٢).

إنّ ابن طاووس كان يعي أنّ المستمِع (المتلقي) عارفًا بأعداء الله ﷻ وأعداء الإنسان (الشياطين)، فالمعنى المستلزم الذي يمكن تقديره هو عداوة الشيطان لله ﷻ، والانسان؛ لأنّه يحول بين العبد وربّه، ويمكن بيان هذا التعاون في

(١) الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي:٩، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٢٣.

(٢) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٩٢.

ضوء المخطط الآتي:

المتكلِّم (ابن طاووس) ← أعداء الله واعداء الانسان ← العداوة والبغضاء ← المعنى المستلزم

البعد والفصل بين رغبة العبد في عبادة الله ←

وفي قوله «وجعل اللهَ لك حصونًا منيعةً ودروعًا وسيعةً فلا تفارقها...»، يتجلَّى مبدأ التعاون، في افتراض ابن طاووس الحلّيّ معرفة ولده المعنى المستلزم للحصون والدروع، وأنّه قادر على استنتاج الدلالات في ضوء الافتراضات القائمة على مُسَلَمة الملائمة، وقد ذكر ابن طاووس ثِيْمَتين لهذه الحصون المنيعة والدروع الوسيعة، وهما: الإيمان، والأخلاق؛ لأنّه عرف أنّ السامع قادر على استظهار مجموعة من التنبيهات، ويمكن بيان هذا التعاون في ضوء المخطّط الآتي:

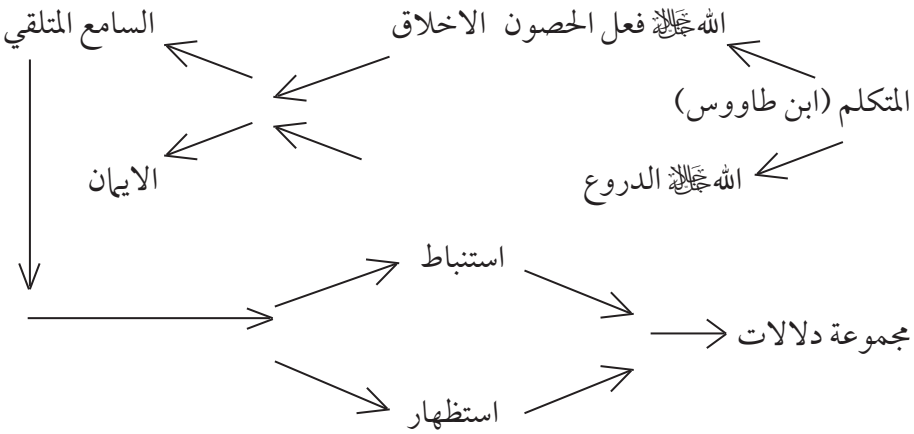

ويتجلَّى هذا المبدأ في حشد من الخطابات الأخلاقيّة الطاووسيّة، إذ ذكر ابن طاووس واعظًا ولده بالتقوى ومراقبة اللهﷻ أنّ الموت ملاقينا في أيِّ لحظةٍ، لا يعرف زمانًا ولا مكانًا، وهو محيط بنا، والآيات والدلالات كلُّها ترمز إليه، قال: «جرى لي مع

من ينسب إلى العلم، فإنّه حضر عندي يومًا، وأنا جالس على تراب أرض بستان، فقال: كيف أنت؟ فقلت له: كيف يكون من على رأسه جنازة ميت وعلى أكتافه جنازة ميت وعلى سائر جسمه أموات محيطون به، وفي رجليه جسد ميت، وحوله أموات من سائر جهاته وبعض جسده قد مات قبل ممات جسده؟ فقال كيف هذا فما أرى عندك ميتا؟، فقلت له: ألست تعلم أنَّ عمامتي من كتّان وقد كان حيًّا لمّا اخضرّ نباتًا في الأرض فيبس ومات وهذه صدرتي من قطن حيّ أخضر فيبس أيضًا ومات، وهذه (لالجتي [1]) قد كانت من حيوان فمات وهذا حولي نبات قد كان أخضر فيبس ومات وهذا البياض في شعر رأسي وشعر وجهي قد كان حيًا بسواده فلما صار أبيض فقد مات وكلُّ جارحة لا استعملها فيما خلقت له من الطاعات فقد صارت في حكم الأموات فتعجب من هذه العظة وصحيح المقالات» [2]، ويبدو في ضوء هذا المتن الأخلاقيّ الطاووسّي الوعظيّ أنّ ابن طاووس قد كشف حقيقة رحلة الإنسان، التي مصيرها التوقف (الموت) في ظل تَعْداد مجموعة من الآيات والعلامات التي تدلّ على تناقص عمر الإنسان، فهو يموت في كلّ لحظة، وقوله هذا يدلّ على أنّه عارف أنّ السامع سيستلزم دلالاتٍ ومعاني من صوره ورموزه.

فالمتكلم يجعل علاقة منطقية بين الكلام الظاهري الصريح، والمعنى غير المباشر جاعلًا الكلام الظاهريّ بمثابة المقدمة التي تقوده إلى النتيجة الحتمية، وهو الكلام غير المباشر؛ لأنّ علوم اللغة منبثقة من فكرٍ علميّ قوامه المنطق[3].

فالعلاقة بين الكلام الصريح وغير الصريح يقتضيها العقل، ويقود المتلقيّ إلى وجودها وتحديدها، و يتجلَّى ذلك من وصية ابن طاووس إلى ابنه في تحذيره من ذوي

(١) اللاكة: النِّعالُ.

(٢) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٩٨.

(٣) اللغة العربية والعولمة في ضوء النحو العربيّ والمنطق الرياضيّ:١٢٣.

الرذائل (أعوان الظلمة)، قال: «ومتى رأيت من أهل عقيدتك وعقيدة آبائك الطاهرين مَنْ تعتقد له شرفًا بولاية ومعونة أحد من الظالمين فينبغي أنْ تعرف أنَّه مسكينٌ مريضُ القلب سقيم الدين يحتاج إلى مَنْ يحمله إلى المستشفى ويعالجه تارةً بالإحسان وتارةً بالهوان حتَّى يفيق من سكرته ويعرف قدر مصيبته» [1]، يتضمّن هذا النص كثيرًا من الاستلزامات الحواريّة على النحو الآتي:

– وعظ وإرشاد، وتنبيهه على أنّ هؤلاء قد انحرفوا عن البوصلة الحقيقية (العقيدة الراسخة) ومالوا إلى الظالمين.

– تحذير ابنه من ذوي الرذائل، ولاسيّما أعوان الظلمة.

– عدم اليأس من أفعال هؤلاء، ولزوم هدايتهم وارجاعهم إلى عقولهم من أجل الوقوف على المحجَّة البيضاء والصراط القويم.

– التهكم من أعوان الظلمة، لفعلهم القبيح، واستقبالهم بوجه مكفهر حتَّى يعرفوا أنَّهم مخطئون مذنبون.

حقًّا وصدقًا أنّ مقامات الكلام تكون بحسب مقاصد المتكلم وأغراضه، وهذا ما فطن إليه عبدالقاهر الجرجانيّ (ت ٤٧١هـ) إذ أشار إلى أنَّ الخطاب الصادر من المتكلم يجب أنْ يكون مراعيًا لمقامات الحال، وقرائن الأحوال، فالمعاني النفسية ومعاينة الأحوال تتعانق مع تتابع الكلام، ونظمه [2]، وقد تنبَّه السكاكيُّ (ت ٦٢٦هـ) إلى هذا التعامل ليبوحَ بالفكرة التي انطوى عليها كتابه (مفتاح العلوم)، قال: «مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدّ يباين مقام

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١١٦.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٤١.

الهزل»[1]، فضلًا عن ذلك،لا بدّ من الإحساس بالسياق النصيّ التداوليّ بوصفه تقنيّة مهمة تُسهم في التعبير عن المقاصد والأغراض التواصلية التي أُنجزت للتعبير عنها، نحو الشكّ والشكاية والتهنئة والوعد والوعيد والمدح والذم والرغيب والترهيب.

وهذا الاستيعاب لمقامات الكلام بحسب مقاصد المتكلم وأغراضه، والإحساس بالسياق التداولي نتحسَّسه في بيان ابن طاووس الحِلّيّ قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨] قال: «أرى كان المهم من الآية ما تعرض له؛ لأنَّ كل ما ينبغي أنْ يذكر كيف ورد لفظ (الوعد) في موضع (الوعيد) والوعد حقيقة لما ينفع الموعود به ويسره؟(...) أقول: لعلَّ المُراد أنَّه لمّا كان هذا القول من الله تعالى لهم في الحياة الدنيا ليردعهم بذلك عن الكفر والنفاق فقد صار نفعًا لهم باطنًا وسعادة لهم إنْ قبلوها باطنًا وظاهرًا؛ لأنّ الوعيدَ إذا أخرجه صاحبه ليخرج من يوعده ممَّا يستحقُّ به الوعيد إلى ما يستحقّ به الوعد، فقد صار باطنه وعدًا، وإن كان ظاهره وعيدًا»[2].

تأسيسًا على ما سبق يمكن القول: إنّ (الوعد) الذي يفيد السرور والجزاء الحَسَن، جاء في مقام (الوعيد) والثقل على النفس فكان العدول عنه إلى ما هو أقوى منه دلالة وأشدُّ وطأة على المتلقّي فمقصد العدول – بحسب قول ابن طاووس – يرمي إلى ترسيخ الوعيد والجزاء العظيم (السلبي) لهؤلاء (المنافقين والمنافقات والكفار) ليطبعَ سلوكهم التواصلي التداولي.

ونلمح هذا الفهم والتصور لهذه الظاهرة في بيان ابن طاووس الحِلّيّ في خطابه الأخلاقيّ، تأمَّل معنا ردّه على الفراء في تأويل قوله تعالى:﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ

(١) مفتاح العلوم: ٢٥٦.

(٢) سعد السعود: ٥٧٩.

﴿أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] قال الفرّاء: «وقوله: من جاء بالحسنة: بلا إله إلّا الله، والسيئة: الشِّرك»[١]، قال ابن طاووس: «أقول: هذا تأويل غريب غير مطابق للمعقول والمنقول؛ لأنَّ لفظ (لا إلهَ إلّا اللهُ) يقع من الصادق والمنافق، ولأنّ اليهود تقول: لا إلهَ إلّا الله وكلُّ فرق الإسلام يقول ذلك (...) أقول: وقد رأيتُ النقل متظاهرًا أنّ الحسنة معرفة الله ورسولهﷺ ومعرفة الذين يقومون مقامه وهذا مطابق للمعقول والمنقول وللبشارة؛ لأنّ أهل هذه الصفات ناجون على اختلاف الفرق، واختلاف التأويلات»[٢]. ومن هنا فإنّ ابن طاووس قد تجاوز المعنى المباشر لكلمة (الحسنة) بـ(لفظ لا إله إلّا الله)، والسيئة بلفظ (الشرك) إلى معانٍ مستلزمة معاني ثوانٍ مستفادة من السياق واللوازم الخطابيّة، وتفاعلاتها، فضلًا عن ذلك فإنّ سياق الحال والمقام جعله يَفْطِنُ إلى المعاني المستلزمة وهذا ما يوافق الواقع ويتناغم معه في يومنا فكم حركات وجبهات وفرق تحمل هذه الراية راية (لا إله إلّا الله) وهي تَمْرق في الدين وتهدم الإسلام كـ(القاعدة، وجبهة النصرة، وتنظيم داعش) وغيرها!!!.

ويظهر أنّ الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ لم يقتصر على الإبلاغ والتواصل فحسب بل تضمن مجموعة من القواعد الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة بخلاف نظرة التداوليِّين الذين ركّزوا على الجانب التبليغيّ في الخطاب، وتناسوا قوانين أخرى اجتماعية وأخلاقيّة ولم يلتفتوا إلى الجانب التهذيبيّ والإرشادي الذي نقطع أنّه الأصلُ في خروج العبارات عن إفادة المعاني الحقيقية والمباشرة، وهذا ما وجدناه في أدب ابن طاووس الحِليّ ولاسيّما خطابه الأخلاقيّ الذي جاء مشحونًا بالمعانيّ الحقيقية المباشرة، والمعانيّ غير الحقيقية (غير المباشرة) التي تنتظم في سياقات إنتاجيّة توليدية.

(١) معاني القرآن: ١/ ٣٦٧.

(٢) سعد السعود: ٥٩٨، ٥٩٩.

ونقدح أنّ الخطاب الدينيّ نوعان؛ أحدهما: خطابٌ يسلك مسلك النقد والاستدلال بالعقل، والآخر: يسلك مسلك الوعظ والإرشاد، ويجب الحكم على الخطاب الإسلاميّ بمدى وفائه بمقتضيات المقام الذي يتحدّد بنوعيّة الآخر، فهناك الآخر الذي يفهم الخطاب النقدي أو الاستدلاليّ ولا يتحمل إلَّا مسؤولية هذا الفهم العقليّ، وهو على نوعين الذي يشارك المتكلم الثقافة، ولا يشاركه العقيدة، والآخر الذي لا يشاركه العقيدة والثقافة، وهناك الآخر الذي يفهم الخطاب الوعظيّ أو الاستشهاديّ (ويتحمل مسؤولية هذا الفهم النصيّ،وهو على نوعين: الآخر الذي يشارك المتكلم الثقافة والعقيدة ويشاركه العمل بالعقيدة، والآخر الذي يشاركه الثقافة والعقيدة ولا يشاركه العمل بالعقيدة، وبناءً على هذا التقسيم للآخرين يتبيَّن أنّ الخطاب الوعظيّ أخصّ والخطاب النقديّ أعمّ، إذ يزيد عليه قيد العمل، وفي هذا دليل قاطع على أنّ الخطاب الأوَّل خلافًا للرأي الشائع أعلى رتبة من الثاني، فلا يخاطب الآخر وعظًا أو استشهادًا حتى يخاطب نقدًا أو استدلالًا مع العلم بأنّ الإنسان لا ينفك يمارس الاستدلال في عامة شؤون الحياة عامَّة، فمَن يتحمل مسؤولية فهم الخطاب الاستشهادي (هو الخطاب القائم على النصوص الدينيَّة الأخلاقيَّة) أجدر به أنْ يتحمل مسؤولية فهم الخطاب الاستدلاليّ[1].

إنّ ما اقترحه (كرايس) بخصوص مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه يركز بالأساس في الجانب التبليغي في الخطاب متغافلًا قوانين أخرى إجتماعية وأخلاقية، إذ لم ينتبه على أنّ الجانب التهذيبيّ والإرشاديّ قد يكون هو الأصل في خروج العبارات عن إفادة المعانيّ الحقيقيّة والمباشرة، فالجانب التبليغيّ وحده في الخطاب لا يكشف عن الدلالات المرجوة والمعاني المبتغاة فلابدّ من الالتفات إلى المبادئ الأخلاقيّة والإرشاديّة

(١) ينظر: الخطاب الإسلاميّ إلى أين؟ (حوارات وحيد تاجا مقدمة بقلم الدكتور طه عبدالرحمن): ٢٥، ٢٦.

التي تحيط بالخطاب بل هي التي أوجدته ولاسيّما في الخطابات ذات الأفعال الكلاميّة التداولية القائمة على استلزامات حواريّة.

والمتأمل في الخطابات الأخلاقيَّة الطاووسيّة يرَى التواشُج والتعانُق بين الجانبين (التبليغيّ التواصليّ)، و (التهذيبيّ الإرشاديّ) وهذا ما تنبهنا عليه في ظِّل وقوفنا على أدبه وهو ملمحٌ جدير بالتأمل والدرس في أبحاث الخطاب من جهة، والبحث في المنهج التداوليّ بوصفة منهجًا لسانيًا حديثًا من جهة أخرى.

ويرى الفيلسوف المغربي (طه عبدالرحمن) أنّ مبدأ التهذيب هو المبدأ التداولي الذي ينبني عليه الحوار، وينبني هذا المبدأ على التزام المتكلم والمخاطب في تعاونهما؛ من أجل تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام من ضوابط التهذيب فضلًا عن ضوابط التبليغ، وقد فرّع هذا المبدأ إلى ثلاث قواعد: قاعدة التعفف، وقاعدة التشكيك، وقاعدة التودد[1].

وسقنا هذا التقديم من أجل تكشيف معاينتنا المتواضعة لبيان ابن طاووس الحِلّيّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢] قال: «وكذا يقول كثير من المفسرين: إذا قرأ النبيّ أو الرسول ألقى الشيطان في أمنيته (وهو مُستبعَد من أوصاف المرسلين والنبيين؛ لأنّه ﷻ قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ فكيف تقبل العقول أنَّ المراد ما ذكره المفسرون من أنّ كلَّ رسولٍ وكلَّ نبي يدخل الشيطان عليه في قراءته وإنَّه ما يسلم منهم واحد من الشيطان؟ وإنَّما لعلّ المراد أنّه ما كان رسول ولا نبي إلّا ويتمنى صلاح قومه، واتّباعهم لآياتنا فيلقي الشيطان أمنيته أمانيّ له يخالف أمنيته فينسخ الله تعالى أماني الشيطان بكثرة الحجج والآيات

(١) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: ٤٦، ٤٧.

ويحكم الله آياته وبيّناته ويظهره للنبي والرسول على الشيطان أو نحو هذا التأويل ممَّا يليق بتعظيم الأنبياء وخذلان الشيطان»[1].

وتأسيسًا على معرفة الرسل والأنبياء باللهﷻ فإنّ الواجب يحتّم أن يكونوا بعيدين عن وساوس الشيطان، وأمانيّه الباطلة، وحاشا للرسل والأنبياء أن يتلبّسوا بأمانيّ الشيطان، ومن هنا يستلزم الخطاب دلالة تتواشج وتتناغم مع قاعدة التأدب التداولي في خضوعهم السلوكي، ولكونه متواصلًا مع شروعهم بالعمل، وفراغهم منه.

وتراهن قاعدة التعاون أيضًا على مقاربة المعنى أو الدلالة، ولكن ليس المعنى الحرفي المباشر الذي تؤسسه الجملة في ضوء العلاقات التركيبيَّة والدلالة التي تقدمها الألفاظ، بَلْ تراهن على المعنى الضمنيّ أو الرسالة المتضمّنة التي يتضمَّنها الملفوظ من دون أنْ يشير اليها مباشرة، وهي رسالة يؤسسها المتكلِّم عبر نسقية خاصة يتوحّد فيها اللساني بالسياقي والاجتماعي، ويدركها المتلقيّ عبر نسقية شبيهة نسبيًا بنسقية المتكلم وتشكّل هذا الميثاق التواصلي بينهما، والذي يسهم في عملية التواصل ونجاحها[2].

و يتجلَّى مبدأ الاستلزام الحواري في ردّه على الرمانيّ في(نكته)، في مسألة حذف الجواب وهو أبلغ من الذكر، قال: «ومنه حذف الأجوبة وهو أبلغ من الذكر وما جاء منه في القرآن كثير، كقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] فكأنّه قيل: لكان هذا القُرآن»[3]، قال ابن طاووس الحلّيّ: «ولعلّ حذف الجواب ههنا إن كان يمكن أنّ الله تعالى لو قال: لكان هذا القرآن، كان قد وقع هذا الأمر الذي أخبر به في تسيير الجبال وتقطيع الأرض وكلام الموتى،

(١) سعد السعود: ٥٧٦.

(٢) التخييل وبناء الأنساق الدلالية نحو مقاربة تداولية: ٢٩، ٣٠.

(٣) النكت في إعجاز القرآن: الرماني: ٧٠.

وكان يحصل بذكر الجواب وقوع هذا التقدير ولم تقتض الحكمة ذلك، أو لعلّ المراد أنّ الله تعالى لو قال الجواب كان كلُّ مَنْ قرأ هذه الآية مِن الأولياء بجوابها الذي يذكره الله يتهيأ له أن يسيّر بهما الجبال، ويقطع الأرض ويحيي الموتى فأمسك الله تعالى عن ذكر الجواب؛ لما يكون فيه من الأسباب التي يليق ذكرها عندهﷻ بالصواب»[1].

والذي يبدو أنّ ابن طاووس قد ألمح إلى أنّ حذف الجواب جاء لأمرين: الأوَّل: حكمة اللهﷻ التي تقتضي عدم التصريح بالجواب، فجاء الخطاب على هذه الهيأة تاركًا مهمة التوسيع وإظهار الجواب إلى استدلالات مباشرةً انطلاقًا من مراعاة المتكلم للقواعد. والآخر: التوقف عن ذكر الجواب منعًا من ذكر وجوه لا يليق ذكرها من غيره من جهة، وأنّها من مختصاته من جهة أخرى.

إنَّ أوَّل ما يستوقفنا في هذه الآية المباركة أنّ موضوع حذف الجواب يدخل في أمثلة للاستلزام الحواري الناتج عن (خرق قاعدة الكَمْ) بلحاظ عدم تقديم المعلومات اللازمة وهذا لا يمكن إرجاعه إلى قصور في الخطاب، والمخاطِبِ؛ بل يستلزم جملة من الدلالات والطرائق البيانيَّة تعرف باسم التعريض أو التلويح[2].

من المواضع التي عمدنا إلى معاينتها، والتي تتجلَّى فيها ظاهرة الاستلزام الحواريِّ في مجال التشبيه فإنّنا نجد تحوّلًا من المعنى إلى معنى المعنى، أو نوعًا من الانتقال إلى المعنى الثاني المستلزم فتتضح الرؤية الدلالية والتداولية [3].

قال ابن طاووس في بيان تعقيبه على الرمانيّ في نكته: «فمن ذلك قولهﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩]، فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسّة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا

(١) سعد السعود: ٥٦٢، ٥٦٣.

(٢) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: ١١٤.

(٣) ينظر: مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكيّ: ٢٠٠.

في بُطْلان المتوهم مع شدّة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قيل: يَحْسبه الرائي ماءً، ثمّ يظهر أنّه على خلاف ما قَدَّر لكان بليغًا، وأبلغ منه لفظ القرآن؛ لأنّ الظمآن أشدُّ حرصًا عليه وتعلّق قلبًا به، ثمّ بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار – نعوذ بالله من هذه الحال»[1].

وقد فطن ابن طاووس الحلّيُّ إلى استلزام حواري آخر، يختلف عمَّا تنبه عليه الرمانيُّ، قال:«ولعلّ في التشبيه غير ما ذكره الرمانيّ؛ لأنّ الله تعالى لو قال: كسراب بروضة، أو لم يذكر بقيعة ما كان التشبيه على المبالغة التي ذكرها؛ لأنّه لما كانت أجساد الكفار الذين يعملون أعمالا كالسراب كالسعة في الجواب الخالية من النبات واستعمال فوائد الألباب صارت كالسعة حقيقة ولعلَّ معنى التشبيه أنْ يحسبه الظمآن ماءً أنَّ الكفار لما ادعوا في الحياة أنَّ أعمالهم تنفعهم وحكى الله تعالى عنهم في القيمة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون يدلُّ على أنّهم يعولون على أعمالهم التي صاروا يعتقدونها أنّها تخلصهم من الأهوال والهوان كما حسب الظمآنُ السرابَ يزيلُ ما عنده من الظمأ فحصلَ في الخيبة وذهاب الحياة والتلف بالعيان، وكذلك خاف الكفار في أعمالهم وحصلوا في تلك النفوس عذاب الطغيان» [2].

وهذه الدلالةُ الجديدةُ الناتجةُ هي الدلالة المستلزمة من ذلك التفاعل، وتقابل في الدرس التداولي الحديث ما يسمى بالمعنى المستلزم، أو القوة الإنجازيَّة المستلزمة من علاقة المشابهة والاختلاف معًا في التشبيه، وتفاعلهما بحيث لا يكون هناك تطابق كليٌّ في المشابهة، نتيجة وجود عناصر المشابهة والاختلاف، لإحداث ناتج دلاليّ جديد يتجاوز مستوى الدلالات الوضعية (أصل المعنى) وينزاح عنها إلى الدلالات الاستلزامية الجديدة، وهذا ما يتضح في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾، كيف

(١) سعد السعود: ٥٦٤، وينظر: النكت في إعجاز القرآن: ٨١، ٨٢.

(٢) سعد السعود: ٥٦٤.

وُصفت أعمالُهم القبيحةُ والسيئةُ بصفة مضافة إلى صفتها؟ وهي صفة القبح والسوء إلى صفة الهباء والاندثار والتلاشيّ، فتتجاوز الكلمة دلالتها الوضعية إلى معنى آخر يومي بالهلاك والخسران؛ لأنّه يستحيل عقلًا أنْ تكون الأعمال سرابًا.

ومن النصوص الأخلاقيَّة الطاووسيّة التي تواخي قواعد التعاون (الكرايسّية)، قوله: «قد نبهّناك على صفة المستغفرين، وروينا لك حديث مولانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وتأدب بغاية الإمكان، وكُنْ صادقًا بقولك إنّك تتوب توبة عبد ذليل، فليظهر الذلُّ على سؤالك وعلى لسانِ حالك وقلت: خاضع، وليكن الخضوع على وجه مقالك وفعالك...» [1]، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، قال ابن طاووس في بيان المراد من أولي الأمر محتجًا على قول الزمخشريّ: «أي: ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة. وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح اللهَّ الأمر بطاعة أولى الأمر بما لا يبقى معه شكّ، وهو أن أمرهم أوَّلًا بأداء الأمانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخرًا بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل، وأمراء الجور لا يؤدّون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئًا إلى كتاب ولا إلى سنة، إنَّما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند اللهَّ ورسوله، وأحق أسمائهم: اللصوص المتغلبة» [2].

وهذا التحاجُّ الذي بلغ مبلغه، قال ابن طاووس: «أقول: فإذا كان الأمر عنده كما أشار إليه واعتمدت عليه من أنَّ العطف بأولي الأمر على الله ورسوله يقتضي من تساوي من عطف عليهم فهل يبقى لك مندوحة عمَّا تقوله الإماميَّة في كمال صفات أولي الأمر كما كانت صفات رسول الله صلى الله عليه وآله كاملة في العصمة والأمن من وقوع معصيته

(١) فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة: ٣٥٥، ٣٥٦.
(٢) الكشاف: ١/ ٥٧٧.

باطنة أو ظاهرة وإلّا جاز عنده أن يطاع غير المعصوم فيما أطاع الله فيه ويعصى فيما عصى الله فيه جاز لأمراء الجور ان يقولوا له: أطيعونا فيما أطعنا الله فيه، وأعصونا فيما عصينا الله فيه، فاذن لا يبقى له مخرج على ما فسر هذه الآية إلّا القول والاعتقاد لمذهب الإماميَّة»[1].

ولا يخفى أنّ قول ابن طاووس الحلّيّ توجّه إلى قول الزمخشري مُطْلِعًا إيّاه على ما يفتقده ويعرفه، مطالبًا إيّاه بمشاركته اعتقاداته ومعارفه وهذه الحواريّة والحجاجيّة يكمن فيها البعد التداوليّ، القائم على التعاون، واتخاذ القرارات[2].

وباختصار قدّم لنا المتن الطاووسيّ بيانَ حقيقةِ أولى الأمر، فضلًا عمّا أشار إليه الزمخشريُّ من صفات التكامل ولاسيّما أداء الأمانات وإقامة العدل، والرجوع إلى الكتاب والسنة، وأنّ أمراء الجور ابتعدوا عن الكتاب فهم اللصوص المتغلبة.

إنّ صفات التكامل الإيمانيّ المثالية المتكاملة كأنّها صفات رسول الله ﷺ، من هنا فإنّهم معصومون، فإطاعتهم واجبةٌ، إنّ القواعد الحجاجيّة الإقناعيّة التي قدّمها المتن الطاووسيّ، تمّت من طريق عملية التحاور بالطريقة المُثلى القائمة على التعاون والعقلانيّة والفعالية.

(١) سعد السعود: ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) في أصول الحوار وتجديد الكلام: ٣٧.

الفصل الرابع

المبحث الثاني

الحِجاج

الحِجَاج مصدر مادة (ح ج ج)، التي لها أصول أربعة، أقربها لمادتنا (القَصْد)، قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): «ومُمكنٌ أَنْ يكونَ الْحُجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهَا تُقْصَدُ، أَوْ بِهَا يُقْصَدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ، يُقَالُ حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَجَجْتُهُ أَيْ غَلَبتهُ بِالْحُجَّةِ، وَذَلكَ الظَّفَرُ يَكونُ عِندَ الْخُصومةِ، وَالْجَمْعُ حُجَجٌ. وَالْمَصْدرُ الْحِجَاجُ»[1].

ويبدو أنّ الراغب الأصفهانيّ قد اقترب من إصابة دلالات مادة (ح ج ج) تداوليًا بلحاظ الاستعمال، والسياق المقاليّ والمقاميّ، قال: «والحُجَّة: الدلالة المبيّنة للمحجّة، أي: المقصد المستقيم الذي يقتضي صحة أحد النقيضين.

قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠]، فجعل ما يحتجّ بها الذين ظلموا مستثنى من الحجّة وإنْ لم يكن حجّة، ويجوز أنّه سمّى ما يحتجون به حجّة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، فسمّى الداحضة حجّة، وقوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، أي: لا احتجاج لظهور البيان، والمُحاجَّة: أن يطلب كلُّ واحدٍ أن يردّ الآخر عن حجّته ومحجّته، قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ

(١) مقاييس اللغة (مادة حجج): ٢/ ٣٠.

قَوْمُهُۥٓ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٨٠]، ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ ﴾ [آل عمران: ٦١]» (١).

ولم يخرج المعنى الاصطلاحيّ لمفهوم (الحِجاج)، عن دلالته اللغويّة، مواجهة الآخر بوساطة الأدلة والبراهين من أجل الظفر بالغلبة، والحِجاج أيضًا كلُّ منطوقٍ موجَّه إلى الآخر؛ لإفهامه دعوى مخصوصة يحقُّ له الاعتراض عليها(٢).

شرع القرآن الكريم المحاججة وجعل لها حدودًا وضوابطَ، إذ ما من رسولٍ أو نبيّ إلّا وقد ناظر قومه وحاججهم وجادلهم في اثبات صحة ما يدعو إليه فهو «مسرح عليه تتحاور الذوات، وتتجادلُ، ويُحاجّ بعضها بعضًا» (٣). وحاجج الرسول الكريم ﷺ بأمر من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] وأمر الله ﷻ بمجادلة أهل الكتاب بالتي أحسن قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]؛ لأنَّ الغِلظة في المحاججة تؤدي إلى نفور الخصم، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكون القرآن خطابًا يقتضي أنّه إقناع وتأثير.

ويرى الدكتور صابر الحبّاشة إنّ اندراج الحِجَاج في المباحث التداوليّة أمرٌ قد جرى في عرف الباحثين، ويُعدّ الحِجَاج بابًا رئيسًا في المباحث التداوليّة، إذ كانت المقارنة والمقاربة ضربًا من التنبيه إلى نقاط التقاطع أو نقاط التباعد بين الرؤية والتطبيق التراثيين،

(١) مفردات الراغب مع ملاحظات العاملي (مادة حجّ): ١/ ٢٣٣.
(٢) ينظر: الكليات: ٤٠٥، ٤٠٦.
(٣) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٢٢٦.

والرؤية والتطبيق الحديثين المنتسبين إلى التقاليد التداولية، ومن هنا حاز الحِجاج منزلة في التداوليّة بوصفه أحد أهم أركان التداوليّة إلى جانب نظرية الأعمال اللغويّة [١].

إنّ أخذ الحِجَاج في الحسبان في الدراسات التداوليّة هي خصّيصة للسنوات الثمانين من القرن العشرين، تشهد على ذلك البيبلوغرافيا، وتوضحه المفاهيم، إذ يجمعُ (كرايس) بين المنطق والحِجاج، وقد عاد (ديكرو) واصفًا آليات اللغة الحجاجيّة، قائلًا بنظريّة السلالم الحِجَاجيّة[٢].

نهج ابن طاووس في حِجاجه نهج القرآن الكريم فقد أراد القرآن من المسلم ألَّا يتعصب لرأي تبنّاه مسبقًا، وألَّا يستهجن الرأي الآخر، بَلْ يقول لخصومه: نحن نتحاور، وإنْ كان أحدُ الطرفين على هدى والآخر على ضلال؛ ولم يحق المحق مسبقًّا، ولم يعيّن المبطل ويطلب من المسلمين أنْ يتحلُّوا بأعلى درجات الأخلاق وضبط النفس مع أعتى خصومهم، ولا تجدنَّ منصفًا في الحوار بعيدًا عن التعصب كالقرآن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، فالخطاب القويّ ليس هو الخطاب الاستبداديّ، والخطاب المنفرد الذي يتقاسمه لا يتقاسمه الأفراد ولا يحظى بتصديق عام هو خطاب ضعيف، والخطاب القويّ هو الذي يُنتهى إليه بمقابلة حجاج بحجاج تمامًا، فالحقيقة الإجماعية التي تحقّق كلّ خطاب، تعني أنّ تكافؤ الأحوال يجب أنْ يفهم لا على الإطلاق، فالخطاب الأوَّل لايكون قويّا إلّا إذا حاز الإجماع الكوني بالإقناع والحجاج [٣].

في ضوء ذلك أراد ابن طاووس بناء نَسق أخلاقيّ من أجل أن يقترب من الآخر بقدرٍ كبير؛ لوضع الانسان على المسار الصحيح نحو القمم الكبرى التي هي عنوان

(١) ينظر: التداولية والحجاج مداخل ونصوص: ٧.

(٢) ينظر: م. ن: ٢٠، ٢١.

(٣) ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظريّة وتطبيقية في البلاغة الجديدة: ٤٤.

التلاقي، والتحاور بين الثقافات والكيانات، والشعوب والأمم، فكان على دراية ووعي أنَّ قيمة أخلاقية واحدة في مكانها الصحيح قادرةٌ على أن تحرّك التأريخ بأكمله بَلْهَ أخلاقية المجتمع الإسلامي.

واستثمر ابن طاووس المكنز الأخلاقي العظيم، ومنبت الفضائل والشمائل عند أجداده عليهم السلام ولاسّيما جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، والأئمة المعصومون عليهم السلام، إذ لا يهدف بحجاجه الانتقام من خصومه أو الانتصار عليهم أو سحقهم لذلك؛ بل كان يتعامل مع الآخرين بالأخلاق والهدوء والإنسانية والأخوة والاحترام، وبذلك أمكنه التأثير في الآخرين.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ حِجاج ابن طاووس كان يظهر عليه الطابع الولائي، فعلى الرغم من تشعّب ثقافته فإنّنا نجد الطابع الولائيّ في خطابه، فكان ابنُ طاووس ولائيًا مدافعًا عن ولاية أجداده وإمامتهم، وداعيًا لهم، محتسبًا رضا الله جل جلاله يوم الورود، رُوي عن الإمام جعفر الصادق عن أبيه الباقر عليهما السلام، قال: «**من أعاننا بلسانه على عدونا أنطقه الله بحجّته يوم موقفه بين يديه عز وجل**» (١).

لقد أنضج ابن طاووس الحِلّيّ الخطاب الأخلاقيّ بلحاظ أنّ الاخلاقَ والعلمَ يتوصَّل إليهما بالجهد الاستكشافي نفسه، ويستدلُّ عليهما بالطرائق البرهانيَّة نفسها، بل «إذا ارتكب شخص فعلًا لا أخلاقيًا فهو جاهل بالمعنى نفسِه الذي يكون به الشخص الذي يرتكب أخطاءً في الهندسة جاهلًا» (٢).

وممّا ورد من حجاجه أنّ الخليفة المستنصر لم يكف عن مناشدته لتولي منصب الإفتاء ونقابة الطالبيِّين، إلّا أنَّه أبى الموافقة أو القبول ممَّا اضطره إلى الاستعانة بأحد المقربين

(١) أمالي الشيخ االمفيد: ٣٣ رقم ٧.

(٢) نشأة الفلسفة العلمية: ٦٣.

لـ(رضيّ الدين ابن طاووس) وخلصائه لإقناعه بالقبول، وجرت بين الاثنين محاورة دلّت على قدرة بالغة، و محاججة قلّ نظيرها في الاعتذار تشهد لـ(ابن طاووس) بعلوّ كعبه في المحاججة، والمجادلة والنقاش اذ وازن بينه وبين الشريفين الرضيّ والمرتضى اللذين توليّا نقابة الطالبيِّين حين قال له صديقه: إمّا أنْ تقول أنَّ الرضيّ والمرتضى كانا ظالمين أو تعذرهما فتدخل في مثل ما دخلا فيه، فلم يوافقه رضيّ الدين بأنْ قال: «أولئك كان زمانهم زمان بني بويه والملوك شيعة وهم مشغولون بالخلفاء والخلفاء بهم مشغولون، فتمَّ للرضيّ والمرتضى ما أرادا من رضاء الله جل جلاله» [1].

لاحظ معنا القدرة البالغة، وحسن الاعتذار الذي اقتضته التقية التي كان يؤثرها في مثل هذه المواقف؛ إذ قال بعد ذلك: إنّي قلتُ بذلك على سبيل التأدب معهما وإلّا فلستُ براضٍ عليهما، ولا على فعلهما، وليسا معصومين حتَّى يكون فعلُهما حجةً، فهما داخلانِ تحت من يُردّ عليه مثل هذه الأفعال [2]، ويمكن استعراض أصناف الحجج، وأشكالها التي تزخر بها النصوص الأخلاقيّة الطاووسيّة، ومنها:

أوَّلًا: قياس التمثيل:

استعمل ابن طاووس هذا الشكل من الحجاج لتقريب الصورة وإيضاح الفكرة، ويقصد به «إلحاق أحد الشيئين بالآخر، وذلك بأنْ يقيس المستدل الأمر الذي يدّعيه على أمر معروف عند من يخاطب، أو على أمر بديهي لا تنكره العقول ويبيّن الجهة الجامعة بينهما» [3]، فمن ذلك ما ورد في حجاجه مع فقيه من فقهاء المستنصرية، يقول: «قُلْتُ له يا فلان ما تقول لو أنَّ فرسًا لك ضاعت منك وتوصلت في ردِّها إليّ أو فرسًا لي ضاعت

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١١٢.

(٢) ينظر: والسراج الوهاج: ٣١.

(٣) مناهج الجدل في القرآن: ٧٢.

مني وتوصلت في ردِّها إليك أمّا كان ذلك حسنًا أو واجبًا فقال بلى، فقلت له: قد ضاع الهدى إمّا مني وإمّا منك والمصلحة أنْ ننصف من أنفسنا وننظر ممّن ضاع الهدى فنرده عليه، فقال نعم: فقلت له: لا أحتجُّ بما ينقله أصحابي؛ لأنّهم متهمون عندك ولا تحتج بما ينقله أصحابك؛ لأنّهم متهمون عندي أو على عقيدتي، ولكن نحتجّ بالقرآن، أو بالمجمع عليه من أصحابي وأصحابك، أو بما رواه أصحابي لك وبما رواه أصحابك لي، فقال: هذا إنصاف...» [1]، ومن حجاجه التمثيلي للتقريب التداوليّ قوله: «إنَّ مَنْ دخل بستانًا لا يقدر على التّطْواف في سائرِ أقطاره والأكل من جميع أثماره فجاءه الفارس من كلِّ شجرةٍ بثمرة وبعض أغصانها النضرة فيكون قد خفَّف عنه من تعب التطواف وأكرمه بما جمع بين يديه من الثمار والأطراف» [2].

وممّا ورد على هذه الشاكلة من الحجاج قوله في اثبات غيبة الإمام الحجةﷺ: «وقلت لهم: وأمّا ما أخذتم عليه من طول غيبة المهديعليه السلام فأنتم تعلمون أنّه لو حضر رجل وقال: أمشي على الماء ببغداد فإنّه يجتمع لمشاهدته لعلَّ كلّ مَن يقدر على ذلك منهم فإذا مشى على الماء وتعجّب الناس منه فجاء آخر قبل أن يتفرقوا وقال أيضًا: أنا أمشي على الماء فإنّ التعجب منه يكون أقل من ذلك فمشى على الماء فإنّ بعض الحاضرين ربَّما يتفرقون ويقلُّ تعجبهم فإذا جاء ثالث وقال: أنا أيضًا أمشي على الماء فربَّما لا يقف للنظر إليه إلّا قليل فإذا مشى على الماء سقط التعجب من ذلك، فإن جاء رابع وذكر أنّه يمشي أيضًا على الماء فرُبّما لا يبقى أحد ينظر إليه ولا يتعجب منه، وهذه حالة المهديعليه السلام لأنّكم رويتم أنّ إدريس حي موجود في السماء منذ زمانه إلى الآن، ورويتم أنّ الخضر حيٌّ موجود مذ زمان موسىعليه السلام أو قبله إلى الآن، ورويتم أنّ عيسى حيٌّ موجود في السماء

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٧٦.

(٢) سعد السعود: ٤.

وأنه يرجع إلى الأرض مع المهدي عليه السلام، فهذه ثلاثة نفر من البشر قد طالت أعمارهم، وسقطَ التعجبُ بهم من طول أعمارهم فهلَّا كان لمحمَّد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وآله أسوةٌ بواحدٍ منهم أن يكون مِنْ عترته آية الله جل جلاله في أمته يطول عمر واحد من ذريته» [1].

ومن الصور الحِجاجية التمثيلِّية التي باشرها ابن طاووس الحلّيّ استعماله أمثلة مشهورة من أجل الوصول إلى أقصى غايات التقريب التداوليّ وملاطفته، من ذلك استعماله مثل (إيّاك أعني واسمعي يا جاره) [2] ففي معرض تفسيره قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢] قال: «ولعلّ المراد معاتبة مَن كان على الصفة التي تضمَّنها السورة على معنى (إيّاك أعني واسمعي يا جاره) وعلى معنى قوله تعالى في آيات كثيرة يخاطب به النبيّ، والمراد بها أمته دون أن تكون هذه المعاتبة للنبي صلى الله عليه وآله؛ لأنّ النبيّ إنّما كان يدعو المشرك بالله بأمر الله إلى طاعة الله وإنّما كان يعبس لأجل ما يمنعه من طاعة الله وأين تقع المعاتبة على من هذه صفته وإلّا فأين وصف النبي الكامل من قول الله جل جلاله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:٥ - ١٠]؟ فهل هذا أقيم عنه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤] وهل كان النبي أبدًا يتصدَّى للأغنياء ويتلهَّى عن أهل الخشية من الفقراء والله تعالى يقول عنه: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[التوبة:١٢٨]»[3].

---

(١) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٥.

(٢) عجز بيت شعري أجري مجرى المثل من قول الشاعر في مجمع الأمثال للميداني: ١/ ٥٠.

يابنت خير البدو والحضارة ... كيف ترين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطاره ... إياك اعني واسمعي يا جاره

(٣) سعد السعود: ٢٤٩.

ثانيًا: حجَّة المقارنة

واستعمل ابن طاووس هذا الشكل من الحِجاج، لإلزام معارضيه بحجّته، ويُقصد بها «الاحتجاج لشيء أو لشخص أو لقيمة أو لرأي، باعتماد أفضليته على طرف ثان من جنسه أو قبيله» (١)، ومن ذلك قوله «وقلت لبعض الحنابلة أيّما أفضل آباؤك وسلفك الذين كانوا قبل أحمد بن حنبل إلى عهد النبيّ ﷺ أو آباؤك وسلفك الذين كانوا بعد أحمد ابن حنبل، فإنَّه لا بُدَّ أنْ يقول أنَّ سلفه المتقدمين على أحمد بن حنبل أفضل لأجل قربهم إلى الصدر الأوَّل ومن عهد النبي ﷺ فقلت: إذا كان سلفك الذين كانوا قبل أحمد بن حنبل، أفضل فلأي حالٍ عدلت عن عقائدهم وعوائدهم إلى سلفك المتأخرين عن أحمد ابن حنبل وما كان الأوائل حنابلة؛ لأنّ أحمد بن حنبل ما كان قد ولد ولا كان مذكورًا عندهم فلزمته الحجّة وانكشفت له المحجّة، والحمدُ للّهِ ربِّ العالمين» (٢).

ثالثًا: حجّة التعريف

استعمل ابن طاووس هذه الوسيلة من وسائل الإقناع وتقوم على التعريف بنسبه الشريف لإلقاء الحجّة، قال: «ثم حضرت عند صديق لنا وكان أستاذ دار وقلت له: تستأذن لي الخليفة في أن اخرج أنا وآخرون ونأخذ معنا من يعرف لغة التتار ونلقاهم ونحدثهم...لعلَّ الله ﷻ يدفعهم بقول أو فعل أو حيلة عن هذه الديار، فقال: نخاف تكسرون حرمة الديوان ويعتقدون إنّكم رسل من عندنا، فقلت: أرسلوا معنا مَنْ تختارون، ومتى ذكرناكم أو قلنا إنّنا عنكم حملوا رؤوسنا إليكم وأنجاكم ذلك وأنتم معذورون، ونحن إنّما نقول: إنّنا أولاد هذه الدعوة النبويَّة والمملكة المحمديَّة، وقد جئنا نحدثكم عن ملتنا وديننا فإن قبلتم وإلَّا فقد أُعذرنا... فقام وأجلسني في موضع منفرد وأشار إليه، وظاهر الحال أنّه أنهى ذلك إلى المستنصر...ثم أطال وطلبني من

(١) دراسات في الحجاج: ١٢٣.

(٢) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٨٢.

الموضع المنفرد وقال ما معناه: إذا دعت الحاجة إلى مثل هذا أذنا لكم؛ لانّ القوم الذين قد أغاروا ما لهم مُتقدم تقصدونه وتخاطبونه، وهؤلاء سرايا متفرقة وغارات غير متفقة»[1]، وممّا يظهر في عبارات ابن طاووس أنّه كان رابط الجأش ساكنًا في خطابه متمهلًا في كلامه هادئًا في منطقه، ممّا تولدت لديه الثقة والثبات فضلًا عن ذلك تلفظ سليم ووعيّ بالأفعال الكلاميّة، كلُّ هذه الإضاءات والشذرات وإقامة الحجّة جعلت التتار يستجيبون ويُذعنون.

رابعًا: الحِجاج الترجيحي (إلزام الحجَّة)

استعمل ابن طاووس هذا الشكل من الحِجاج لإلزام معارضيه بحُجَّته، والغاية من هذا المسلك اختيار أفضل الاحتمالين، سواء تعلق الأمر به، أو بغيره، بعد إجراء الموازنة التي أساسها القيم وما تتفاضل بها الأشياء بحسب الغاية والنتيجة المتوخاة[2]، قال:«وحضرني يا ولدي محمَّد حفظك الله ﷻ لصلاح آبائك وأطال في بقائك نقيبا، أتى رجلًا حنبليًا وقال هذا صديقنا ويجب أن يكون على مذهبنا فحدثه، فقلت: ما تقول إذا حضرت القيامة وقال: لك محمَّد ﷺ، لأيِّ حالٍ تركت كافة علماء الإسلام، واخترت أحمد بن حنبل إمامًا من دونهم هل معك آية من كتاب الله بذلك أو خبر عني بذلك، فإن كان المسلمون ما كانوا يعرفون الصحيح حتَّى جاء أحمد ابن حنبل وصار إمامًا فعمّن روى أحمد بن حنبل عقيدته وعلمه، وإنْ كانوا يعرفون الصحيح وهم أصل عقيدة أحمد ابن حنبل فَهلّا كان السلف قبله أئمة لك وله؟، فقال: هذا لا جواب لي عنه لمحمد ﷺ فقلت له إذا كان لا بُدّ لك من عالم من الأمة تقلده فالزم أهل بيت نبيك عليهم السلام فإنّ أهل كلّ أحدٍ أعرف بعقيدته وأسراره من الأجانب فتاب، ورجع»[3].

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٤٧، ١٤٨.

(٢) ينظر: المنطق الفطريّ في القرآن الكريم: ١٠٧.

(٣) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٥٥.

خامسًا: الحجَّة الخبريَّة (الحجَّة النقلية)

في ضوء استقراء تراث ابن طاووس الحِلّيّ نجد أنّه قد أفاد من القصص والوقائع من أجل التقريب التداولي، فضلًا عن ذلك ربط المقدمات بالنتائج والعلل بالمعلولات، وهـذا مبدأ مهم في التواصل والتحاور، واستعمل ابن طـاووس شكلًا آخر من أشكال الحجاج وهو ما يُدْعَى بالحجة الخبريَّة (الحجة النقلية)، قال ابن وهب الكوفيّ (ت٣٣٥هـ): «وأمّا الأمثال والقصص فإنّ الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال ويبيّنون للناس تعرّف الأحوال بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبًا، وأقرب مذهبًا، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الاسراء: ٨٩] (...) وإنّما فعلت العلماء ذلك؛ لأنّ الخبر في نفسه إذا كان ممكننًا فهو يحتاج إلى ما يدلّ على صحته والمثل مقرون بالحجة، ولذلك جعلته القدماء أكثر آدابًا وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسنة الطير والوحش، وإنّما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها» [(١)].

تستند هذه الحجة إلى الأحداث التاريخيَّة المشتركة بين أشخاص عدة أو بين جميع الناس، ليتخذ منها - ابن طاووس - دليلًا لما يدعيه المتكلم من أطروحات، وهي بذلك ترتكز على بنيات ووقائع خارجيَّة، واقعة في الماضي بما يختزنه من تجارب إنسانية وأحداث تاريخيَّة، ذات قيم مجتمعية، تحظى باحترام الأفراد واهتماماتهم [(٢)].

ويبدو أنَّ ابن طاووس قد سعى جاهدًا من أجل تقريب المجالات التداولية للحصول على أكبر قدر من تفاعلات التواصل والإبلاغ بينه وبين متلقيه، فقد وصف أهل الكهف أنَّهم مماليك قال: «واعلم يا ولدي محمَّد حفظك الله ﷻ عن الخذلان

(١) البرهان في وجوه البيان: ١٤٥، ١٤٦.

(٢) ينظر: عندما نتواصل نتغير- مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج: ٩٤.

وصانك بخلع الإحسان والأمان أنَّ أهل الكهف كانوا مماليك لا يفقهون وسحرة فرعون كانوا سكارى بالكفر ما يعتقد ناظرهم أنَّهم كانوا يفيقون فتداركهم الله ﷻ برحمة من رحماته الجميلة؛ فأمسوا عارفين به مخلصين من أهل المقامات الجليلة وقد عرف كلُّ خبيرٍ أنَّ امرأة فرعون ومريم بنت عمران وأم موسى عليهم السلام نساء ذوات ضعف عن الكشف توليهُنَّ الله ﷻ بيد اللطف والعطف حتَّى فارقت زوجة فرعون ملك زوجها ودولته وحقَّرته وهوَّنت عقوبته وبلغت مريم إلى كرامات وسعادات حتَّى أنّ النبيّ المعظَّم في وقتها زكريا يدخل عليها في المحراب فيجد عندها طعامًا يأتيها من سلطان يوم الحساب بغير حساب، ويفهم من صورة الحال أنَّ زكريا ما كان يأتيه مثل ذلك الطعام؛ لأنّه عليه السلام قال:(أنّى لكِ هذا؟) على سبيل التعجب والاستفهام، وهو أقرب منها إلى صفات الكمال، وهذه أم موسى يوحي الله تعالى إليها بغيرِ واسطةٍ من الرجال حتَّى يهون عليها رمي ولدها ومهجة فؤادها في البحر والأهوال» [1].

وقد استعمل ابن طاووس هذه الحجّة من أجل التقريب التداوليّ، وترسيخ الصور والمشاهدات بوصفها أدوات قريبة للحس والعقل، قال ابن طاووس: «وكفى سلفك الطاهرين حجَّة على المخالفين وحجَّة للموافقين التابعين عليهم يوم المباهلة مباهلة المسلمين للكافرين وكان ذلك اليوم من أعظم الأيام عند جدك محمَّد سيِّد المرسلين صلوات الله عليه وآله، (ومعجزاته) وكشف الحجَّة للسامعين ولمن يبلغهم إلى يوم الدين، فإنَّ كلَّ مَن عرف تلك الأصول عرف عدد الاثني عشر على اليقين وهل كان كمال صفات رب العالمين وكمال صفات رسول المفضل على الأولين والآخرين أن يكون نوابهما غير كاملين معصومين؟ وهما يريدان أن يحفظوا أسرارهما وشريعتهما ويقوموا بأمور الدنيا والآخرة قيامًا مستمرًا بغير تهوين ولا توهين» [2].

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٧٣، ٧٤.

(٢) م. ن: ٥٢.

فأراد ابن طاووس أنْ ينتفع المخاطَبون بالذكريات، وأنْ يفيدوا من العظات «فإنّ لنا تاريخًا إنسانيًا حافلًا فيه لكلِّ عظيمة ذكرى، ولكلِّ مُلمَّةٍ تجربة، وإنّ لنا دستورًا إلهيًا كاملًا فيه لكلِّ مُضِلَّةٍ هُدًى، ولكلِّ قضيةٍ بيّنة، فإذا التمسنا دليلنا من روح السلف، واقتبسنا هدانا من وحيّ الله استقمنا على الطريق التي نهجها الرسولﷺ فتوافينا معًا على الغاية، وانتهينا جميعًا عندها إلى الوحدة» [1].

صرّح ابن طاووس بظهور الحُجة، والنكت في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، قال: «اعْلم أنّ هذه الآية من أقوى الآيات الباهرات على صدق النبيﷺ، وهي كالمباهلة التي جرت مع نصارى نجران كالتّحدّي بالقرآن، بَلْ رُبّما كانت أظهر في الحجَّة والنكت؛ لأنّ بعضهم عند التحدي التجأ إلى البهت وقال لو نشاء لقلنا مثل هذا ولم ينقل ناقل، وما ادّعى عارف فاضل أنّهم تمنوا الموت وباهتوه بذلك عند نزول هذه الآيات» [2].

وقد فطن ابن طاووس الحلّيّ إلى أمر لافت، وهو أنّ الخطاب القرآنيّ في الآية المباركة جاء من أقوى الآيات على صدق النبيّﷺ مستوحيًا حادثة المباهلة المباركة فضلًا عن ذلك آيات التحديّ في القرآن الكريم مقارنة معها، بل قد تكون دلالة الآية أظهر حجّة، ولم يكتفِ بذلك بل أشار إلى أنّها لو وظّفت توظيفًا صادقًا وصحيحًا في الاحتجاج بها على الكافرين، فضلًا عن آية المباهلة التي عجز الأعداء عنها؛ لكان ذلك أقرب مخرجًا، وأوضح منهجًا، وأسرع إلى فهم القلوب والآليات، وأقطع لتأويل أهل الإرتياب [3].

(١) وحي الرسالة: ٢١٢.

(٢) سعد السعود: ٢٤٦.

(٣) م. ن: ٢٤٧.

الفصل الرابع

نخلص أنّ ابن طاووس قَدّم لنا احتجاجًا باستشراف واستثمار واقعة تأريخيّة نستخلص العبر منها، ذات بناء سرديّ يتلاءم مع مقصد النص القرآنيّ فضلًا عن ذلك أراد تذكير المخاطبين عن طريق النمط الحجاجيّ القصصيّ القائم على النمط البرهانيّ باستيحاء معطيات هذه الحادثة العظيمة (المباهلة)، ومقاربتها تداوليّا للواقع المعيش فيه.

واستلهم ابن طاووس من أخبار الأمم الماضية والقرون السالفة الكثيرَ من الحقائق والعبر في رفد خطابه الأخلاقيّ، ومدِّه بها، وقد صرّح بهذه الحقيقة، قال: «ومن وقف على أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية عرف أنّ الضلال كان الأكثرون داخلين فيه، وأن الأقلّ هم الذين ظفروا بطاعة الله ﷻ ومراضيه؛ وقد صدق القرآن في كثير من الآيات: إنَّ الهالك الأكثر وإنَّ الناجي الأقلّ الأصبر، حتَّى قال ﷻ في ذم الأكثر ممّن ذكره من القرون: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وأخبر ﷻ أنَّ الآيات والنذر لا تنفع مع قوم ينكرون في قوله ﷻ: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]» [1]، وممّا يلحق بهذه الفقرة، ويلزمها أنْ نذكر أنّ ابن طاووس قد نقل رسالةً للسيِّد زيد بن علي بن الحسين عليه السلام - زيد الشهيد- (حليف القرآن)، في (الكثرة والقلّة في القرآن الكريم) في مصنَّفه النافع الماتع (سعد السعود)، وقد ضمّنها زيد الشهيد عليه السلام آياتٍ منتقاة مختارات من كتاب الله ﷻ في الكثرة والقلة، تعدّ من تباشير التفسير الموضوعيّ وبداياته في البحث التفسيريّ الإسلاميّ [2].

(١) اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة المؤمنين: ١٢٠.

(٢) سعد السعود: ٥٢٢، ٥٢٩.

سادسًا: احتجاج االتقريب:

ففي بيان دلالة (عهد الله) في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال ابن طاووس رادًّا على مَن قال: إذا كان العهد الإمامة، فقد نالها معاوية بن أبي سفيان ويزيد، وبنو أمية وهم ظالمون، والجواب: «إنَّ عهد الله ﷻ وإمامته ما نالها ظالم ابدًا، وليس من كان ملكًا بالتغلب يكون قد نال عهد الله فإنَّ ملوك الأكاسرة والقياصرة وغيرهم من الكفار، وقد ملكوا أكثر ممَّا ملك كثير من أئمة المسلمين وهم في مقام منازعين لله تعالى ومحاربين فكذا كلُّ ظالمٍ يكون عهد الله وإمامته ممنوعة منه منزَّهة عنه وفيه إشارة ظاهرة إلى أنّ الإمامة تكون من اختيار الله تعالى دون اختيار العباد؛ لإنّ العباد إنّما يختارون على ظاهر الحال ولعلٍّ باطن مَن يختارونه يكون فيه ظلمٌ وكثير من سوء الأعمال فإذا كان الظالم مطلقًا مانعًا من عهد الله تعالى وإمامته فلم يبقَ طريق إلى معرفة التي ينال عهد الله تعالى إلّا بمَن يطّلع على سريرته أو يطلعه الله تعالى على سلامته من الظلم في سره وعلانيته»[1].

لا يخفى أنّ ابن طاووس استعمل طريقةً مِنْ طرائق البيان الحجاجيّ، باستجلاب حجّة تقريبية تؤكّد المعنى لـلأوَّل، فقد ثبتت إمامة الكفرة (الأكـاسرة والقياصرة) وغيرهم، فمن باب أولى تثبت إمامة معاوية بن أبي سفيان ويزيد، فهي إمامة دنيوية باختيار العباد لا يلتفت إليها، مصيرها السقوط والتهافت في ميزان العدل الإلهيّ، والقسطاس الربانيّ، إنّما الاعتبار والارتكاز في الإمامة الحقيقية التي بشّر الله ﷻ بها، (لا ينال عهدي الظالمين)، الإمامة التي ينالها من وصفوا في كتابه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٣ – ٧٦].

(١) سعد السعود: ٤٢٦.

وهذه دلالة واضحة على أنّ الله ﷻ قادر على إناطة الإمامة الحقيقية بمن هو أحق بها، ونقدح بتقنية الإقناع التي وظّفها ابن طاووس في بيانه استحقاق الإمامة لأهلها الحقيقِّيين، وهي: «أن تأتي بمعنى ثمّ تؤكد، بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأوَّل والحجّة على صحته»[1].

سابعًا: المناظرة المتخيلة:

توسَّل ابن طاووس بوسائل مختلفة في الحجِّاج من أجل تقريب الدلالات وجعلها واضحة في ذهن المخاطَب، للوصول إلى الوظيفة التداولية التي ينشدها المخاطِب (المتكلِّم)، وقد تنوَّعت على هيأة صور منها:

أ. السؤال والجواب: وتتمَّثل هذه الصورة في ظلّ طرح السؤال والإجابة عنه من أجل شد المخاطب وإيقاظه وإشراكه في الخطاب، وهي تقنية من تقنيات الحجاج التي ترشَّحت من الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، وتظهر في جوابه عن سؤال ابتدعه من بنات أفكاره، ونسيج خياله ضاربًا في أعماق المنظومة الأخلاقيّة الإنسانيَّة الصحيحة التي تستمدّ من إسداء الحمد والشكر للخالق العظيم ﷻ قال ابن طاووس: «فإذا أنعم الله ﷻ بكسوة عليك فأخل بنفسك مع ربك ﷻ وطهّر جسدك وقلبك من الآثام، ووسخ الذنوب بالتوبة واغسل التوبة وما يزال به دنس العيوب، وقُم قائمًا بين يدي المطلع عليك وخُذِ الثياب من يد حال وجوده ومن لسان حال كرمه وجوده» [2]، كأنّ ابن طاووس يسأل: ماذا تقول لو أنعم الله ﷻ عليك بكسوة؟، فيأتي الجواب بباقة من التشكرات، وطاقة من الاعترافات بحقّ المنعم والمعطي ﷻ، فجاءت على هيأة جمل أمرية: (أخلُ بنفسك، طهّر جسدك، وسخِ الذنوب، اغسلِ التوبة، قمْ قائمًا، خذِ الثياب) وهي أفعال كلاميّة مباشرة تتمثل في الوجوب على سبيل الحتم والإلزام.

(١) كتاب الصناعتين: ٤٣٤.

(٢) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٩٦.

وتتعالى هذه التقنيّة (السؤال والجواب)، فتناغم مشاعرُ ابن طاووس وأحاسيسُهُ فيوجِّه السؤال لعقله وقلبه فيجعلهما عاقلين يسمعان كلامَه ويعيان ما يقوله، قال ابن طاووس: «فلمّا رأيتُ عقلي وقلبي يغفلان وينسيان من حيث لا أدري، ويحصل بذلك ضري وكسري، وجدتهما لأجل ذلك لا يصلحان للاهتداء والاقتداء، وسألتهما بلسان الحال من أين يعرض لهما حصول الداء؟ فقالا: لا ندري ولا طريق لنا إلى مأمول كمال الشفاء إلّا من جانب يعرف من أين طَرَأ علينا أصل هذا البلاء، فاجمع رأيي ورأيهما على مدِّ كف السؤال بلسان الحال إلى كعبة كرم منشئ العقول والقلوب، ومالك الآمال في أن يدخلنا في ظلّ حمى حمايته ويؤهلنا لما هو ﷻ من رحمته، وجدنا منه ﷻ كما أردناه، وزيادات على ما رجوناه، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]»[1].

ومجمل القول إنَّ الحِجاج الأخلاقيّ التداوليّ عند ابن طاووس في ضوء ما عرضناه لا يقف عند حدود الإفهام فقط، بل مؤسسًا على الإقناع، فهو مبنيٌّ على عناصر ثلاثة وهي: وسائل الإقناع أو البراهين، والأسلوب والبناء اللّغوي، وترتيب أجزاء القول، ثمّ هناك عنصر الإلقاء الذي اعتبره الدارسون للخطابة بعد أرسطو ومنهم البلاغيون العرب عنصرًا مستقلًا، ويتضمن الحركة والصوت»[2]، وفي أدناه مخطط يوضّح العلاقة بين هذه العناصر:

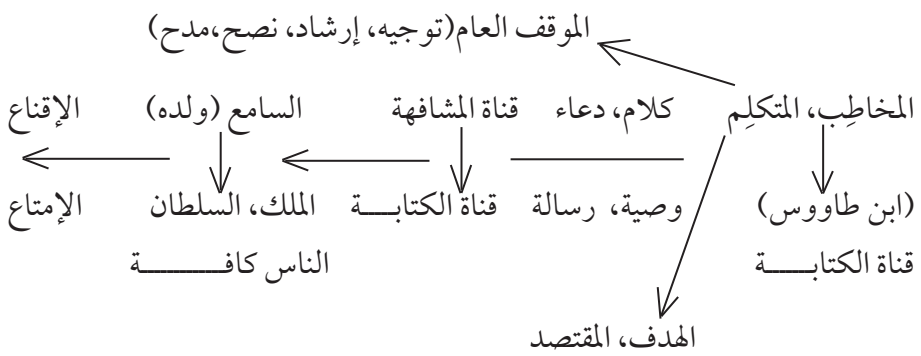

(١) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ٢٢، ٢٣.

(٢) فن الخطابة: ١٨١.

ب: أسلوب الفنقلة (الحوار):

من الوسائل التي توسّل بها ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ من أجل توسيع دائرة البحث، والإحاطة بمدياته وتخومه (أسلوب الفنقلة)، وهيأته: فإنْ قلتَ: قلنا، فإنْ قلتُ: قالوا، فإن قلنا: قالوا... وغيرها، وهذا الضرب من الحجاج يقصد به كذلك البيان والإيضاح وتقريب الصور إلى الإفهام تقريبًا تداوليًا.

تأمَّل معنا خطابه الأخلاقيّ في وصف رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ونقاء قلب الحاج لصاحب البيت ﷻ، قال: «وأمّا الحج إلى الله ﷻ بقصد بيته الحرام أكرمك الله ﷻ يا ولدي بالحجّ على التمام إن شاء الله تعالى، فاعْلَمْ: أن كلّ مَنْ قصد الحج لأجل سواه فقد ضاع قصده وفسد مسراه وإنّما يقصد كلّ مقصود بالله ﷻ ولأجل الله ﷻ ولقد كنّا مرّة يا ولدي في طريق مشهد الحسين عليه السلام؟ وكنَّا متيممين فنحتاج أن نصلي بالنوافل والفرائض بحسب ما هدانا الله ﷻ إليه فصار الرفقاء يستعجلون فقلت لهم: نحن نقصد الحسين عليه السلام لأجل الله ﷻ؟، أو نقصد الله ﷻ لأجل الحسين عليه السلام فقالوا: بل نقصد الحسين لأجل الله تعالى. فقلت لهم: فإذا ضيعنا في طريق الله ﷻ الذي نقصد الحسين عليه السلام لأجله فكيف حالنا عند الحسين عليه السلام وبأي وجه يلقانا هو ويلقانا الله ﷻ عند الحسين عليه السلام إذا تعرضنا لفضله؟ فعرفوا أنّهم غالطون»[1].

ويستبين هذا الأسلوب الحجاجيّ (الفنقلة) في ضوء حكاية ابن طاووس لسؤال طرحه عليه أحد الفقهاء، قال: «ولقد قال لي قائل من الفقهاء: كانت الأئمة عليهم السلام يدخلون على الملوك والخلفاء، فقلت له: ما معناه إنّهم صلوات الله عليهم كانوا يدخلون والقلوب معرضة عمَّن دخلوا عليه ساخطة عليه بقدر ما أراد الله ﷻ من سخطه وإعراضه عنهم، قلت: فهل تجد من نفسك هكذا إذا قضوا لك حاجة أو قربوك

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٤٥.

أو وقع إحسان إليك منهم؟ قال: لا، واعترف بتفاوت الحال وإنَّ دخول الضعفاء ما هو مثل دخول أهل الكمال» (١).

السلالم الحِجاجيَّة

تطرح هذه التقنية تصورًا لعمل المحاججة من حيث هو تلازم بين قبول الحجُّة ونتيجتها، فالغرض من تدرّج الحجج وتراتبيتها ملء الفجوات التي تشكل مجالًا لتسرب الشك وعدم الاطمئنان، فالتركيز على مبدأ التدرج الحجاجي في ضوء هذه السلالم يعطي إيحاءً بقوة الحجج وضعفها في الأساس، ولا ترتبط بالمحتوى وإحالة هذا المحتوى على مرجع محدَّد (٢).

ونلمح في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسي تقنية السلالم الحجاجيَّة، وقوانين التفاضل والتقابل، وتظهر في تدرّج العبارات وانتظامها من أجل التساند الحجاجيّ كافة.

ومِن لواحق السلالم الحجاجية ولوازمها (الروابط الحجاجيَّة) التي تقوي الترابط الحاصل بين البنى النصيَّة، وهي الضمان لوحدة الكل، التي تحقّق الوظيفة الحجاجيّة والترابط داخل النص الحجاجي، وقد تمثّلت بعناصر نحوية في طبيعتها، مثل: الواو، والفاء، ولام التعليل، ولكن، وإذن، وحتَّى (٣)، وتتمثَّل أيضًا بجملة من الأساليب المتضمنة داخل الملفوظ الحجاجيّ كالنفي، والحصر... وغيرها، وتشرق السلالم الحِجاجيّة وتنير في بيان أخلاقية السفر والرحلة، في الخطاب الطاووسيّ فجاء بإسلوب واضح يبدو فيه أثر القوة والجمال وحسن تقرير المعنى في الإفهام رغبة منه في ملاطفة التداوليّة ومغازلتها، القائمة على الإبلاغ والتواصل، ولاسيّما استعماله الروابط

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٤٧.

(٢) الخطاب الأدبي ورهانات التأويل قراءات نصية تداولية حجاجية: ١٦٥.

(٣) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداولية: ١٦٥، واللغة والحجاج: ٧٣، والتداولية والحجاج مداخل ونصوص: ٢٦، ٢٧.

الحِجاجيّة التي تؤكد أنّ النص شبكة من الصلات والعلاقات بين النسقية، وليس مجرد عناصر تتوزع تلقائيًا، نحو (بَلْ، لأنّك، واو العطف) فضلًا عن التكرار (إليه)، قال: «وإنْ احتجت إلى سفر يا ولدي كان الله ﷻ لك حافظًا في سفرك وجميع ما أحسن به إليك وخلفًا لك في كلِّ ما تغيب عنه، ممّا أنعم به عليك فلا تسافر بالطبع والغفلة والأطماع الدنيويَّة فتكون مخاطرًا مع الله ﷻ ومهونا لجلالته الإلهية ومضيعًا زمان أسفارك في غير ما ينفعك لدار قرارك بل يكون قصدك أنّك تتوجه من الله ﷻ؛ لأنّك حيث كنت فأنت بين يديه، وإلى الله ﷻ بالتوكل عليه وبالله ﷻ بالتفويض إليه وإليه ﷻ بالإقبال عليه فيكون سفرك خدمة له وبه وسفرًا إليه وتصير في حماية ورعاية وكفاية ذلك الإخلاص له والتقرب إليه» [1]، فترقي المدارج الحجاجيّة وسلالمها في العبارات يومىء بنتيجة إيجابية يقصد منها تقارب تداوليّ من أجل إقناع المتلقيّ، والدخول في دائرة الصواب والتقوى، فإنّما الدنيا جدارٌ يريدُ أنْ يينقَضَّ، وفي أدناه مخطط بالسلّم الحجاجيّ للعبارات، والروابط الحجاجيّة:

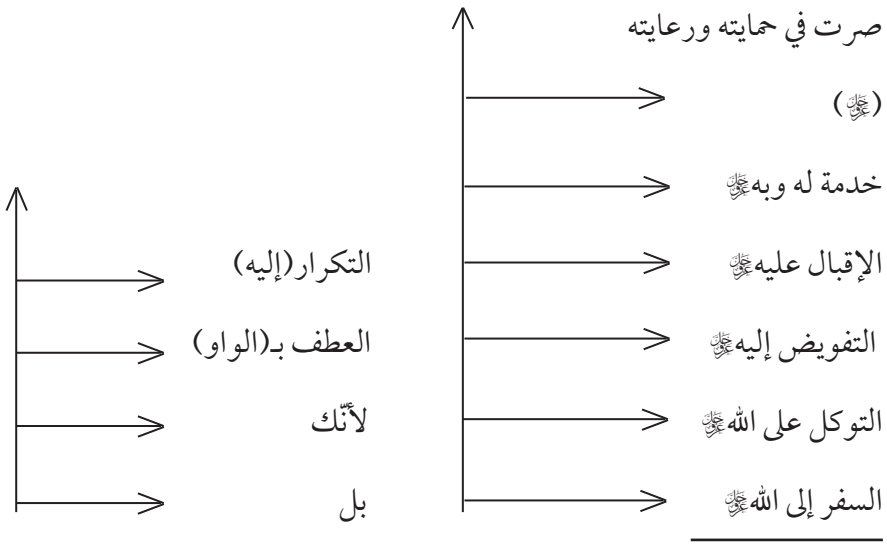

(١) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٢٠.

العبارات الروابط الحجاجيَّة

ومن الروابط الحجاجيَّة التي تُسهم في توثيق العلامة السُّلَّمية التفاضلية بين الملفوظات (أنّ) التي تستثمر استثمارًا حجاجيًّا من أجل التساند والتعانق للوصول إلى النتائج، وقمع الخصوم ففي قوله تعالى في وصف حال أصحاب الكهف(المماليك) الذين عرفوا الله ﷻ حقّ معرفته، وانطووا على القيم والمبادئ الإنسانيَّة الأخلاقيّة السماويّة السامية، حينما تركوا الدنيا وفرّوا إلى السعادة الإلهيّة، قال تعالى: ﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞ ﴾ [الكهف: ١٨]

قال ابن طاووس: «قيل: بعث أصحاب الكهف بعد موتهم الطويل... فإنّه قد قدّم هذا أنّه بعثهم من الرَّقدة، والقُرآن الشريف يتضمّن تصريحًا بأنّه: ﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞ ﴾ومن آيات الله تعالى في بقائهم بغير طعام ولا شراب ولا تغيّر الأجساد، ولا مرض، ولا تأثير الأرض فَهُم مع تقلبهم ذات اليمين، وذات الشمال؛ لأنّ كثرة التقليب في مثل تلك المرّة إذا لم تكن بقدرة القادر لذاته؛ لا بُدّ أن يؤثر في الأجساد الترابيّة، وهو حجّة على منكري البعث» [1]. ولا ريبَ أنَّ الرابط الحجاجيّ (أنّ) قد استمدّ من السياق القرآنيّ قوله تعالى: ﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ ﴾[الكهف: ١٨] وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الكهف: ١٩] وهو يمثل نقطة الارتكاز في الخطاب الطاووسيّ.

ومن التقنيات الحجاجيَّة التي أشرنا لها من قبل (السلالم الحجاجيّة) ويظهر ذلك في صورة (التعاند الحجاجي)؛ فإنّ الملفوظات المتضمنة في العبارات تنتظم انتظامًا سليمًا بنيويًا إلّا أنّها تنساق في تيار عكسيّ وهو ما يسمى بـ(التعاند الحجاجيّ) الزوج العنادي الذي يؤول إلى نتيجة سالبة، نحو: زيد ذكي لكنّه غير مؤتمن، فالتعاند الحجاجيّ

(١) سعد السعود: ٣٢٩.

يولد نتيجة سالبة، ونحو: الجو جميل لكن الوقت متأخر، ففي قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] قال ابن طاووس: «إنّ هذه الآية إذا حملناها على ظاهر ما ذكرتم وأنّ الضمير راجع على القرآن الشريف، فهو أيضًا خلاف دعواكم، وخلاف عقيدتكم؛ لأنّكم تزعمون أنّ الضلال من الله تعالى بغير واسطة القرآن، ولا واسطة من غيره، ومتى جعلتم لغير الله تعالى شركة أو أصلًا في الضلال فقد نقضتم من أنّ الله تعالى فاعل لجميع أفعال العباد، ولكلّ ما وقع منهم من الضلال والفساد»[1]. والضمير عائد على (مثلًا) وهو قول الفراء والزمخشري وغيرهما[2].

ولا يخفى أن ابن طاووس الحلّيّ يرد على أهل الجبر (الجبرية) الذين يزعمون أنّ الله جلّ جلاله أجبر العباد على المعاصي وعاقبهم عليها، وينسون أنّهم ظلموا الله عزّ وجلّ في حكمه، وقد ردّ الله تعالى عليهم قال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤] فمرجعية الضمير بحسب قول المجبّرة تأسيسًا على ظاهر كلامهم هي خلاف أصولهم القائمة على أنّ الله عزّ وجلّ قد أجبر العباد على ارتكاب المعاصي، زِدْ على ذلك أنَّ حجَّتهم الواهية هذه تعود إلى حجّة أوهى، وهي أنّ عود الضمير إليه يقتضي الشركة معه، ومن هنا فقد تعاندت الحجتان، وتأسيسًا على ذلك يمكننا أن نجزم بأن النتيجة سالبة، وأن تنجح دعوتكم أن الله عزّ وجلّ مجبر عباده على المعاصي[3].

---

(١) سعد السعود: ٥٧.

(٢) ينظر: معاني القرآن: ١/ ٢٣،، والكشاف: ١/ ١٤٦.

(٣) ينظر: تحف العقول عن آل الرسول: ٣٣٨- ٣٤٠، والاحتجاج: ٢/ ٤٨٧-٤٨٨.

ومن المواضع التي شكّل الرابط الحجاجيّ (واو العطف) مزية إيجابية في التأثير والإقناع فضلًا عن التقريب التداوليّ بيانه دلالة لفظ (أوّاب) في قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ١٧]، قال: «إنْ قيل إنّ (أوّاب) معناه كثير الرجوع، وقد قال في تفسيره رجّاع عن كلِّ ما يكرَهُ الله إلى ما يحبّ فهو يتطرق من هذا ما يؤخذ على داوود، والجواب: أن كُلّ مَنْ قيل عنه: إنّه رجع عن شيء ممّا يلزم أنّه دخل فيه فإنّ الرجوع الذي يتضمّنه المدح لداوود يقتضى أنْ يكون معصومًا منزهًا عن الدخول فيما يكرهه الله أبدًا - ولو كان رجّاعًا - بمعنى كثير الرجوع عمّا دخل فيه، لكان ذلك متناقضًا لمراد الله ﷻ بمدحه وجواب آخر لعلّ معناه: أنّه ما عرض له غير الله إلّا تركه ورجع إلى الله والعوارض لا تُحْصى للإنسان، وجواب آخر: لعلّه ما عورض له مندوبان أحدهما أرجح من الآخر إلّا ترك المرجوح ورجع إلى الراجح، وجواب آخر لعلّ المراد أنّ داوود لمّا رأى أنّ الله ﷻ لمّا انفرد بتدبيره قبل أنْ يجعل لداوود اختيارًا كان التدبير مُحكمًا، وداوود سليم من وجوه المعاتبات»[1]، إنّ هذه الأجوبة المعطوفات بحرف العطف تعبّر عن تقويمات معياريّة موجبة مادحة، فورودها في الخطاب غالبًا ما يكون مصحوبًا بقصد حِجَاجيّ، ويمكن بيان هذه الأجوبة الطاووسية بالمخطط السلميّ الحجاجي:

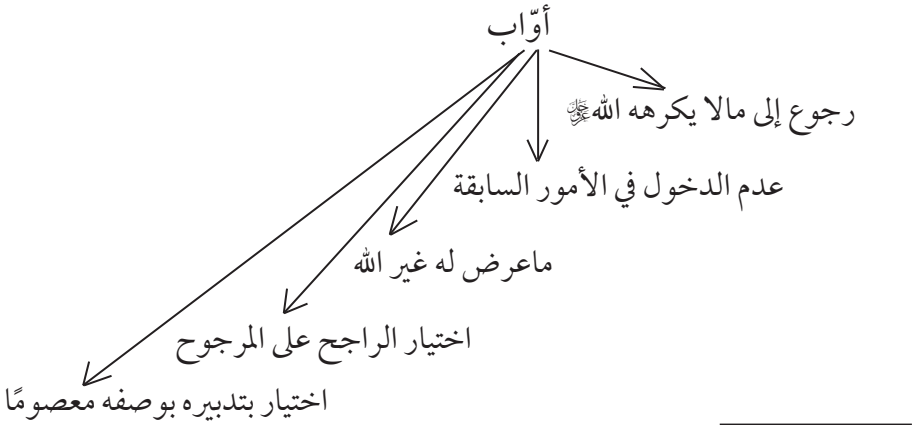

(١) سعد السعود: ٢٥٤، ٢٥٥.

وبهذه العبارات التي وظفت من أجلاء استجلاء الأبعاد التداوليّة في الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ، نختم فقرات الفصل خاصة، والدراسة عامة.

وإنّا نثني على ابن طاووس الحلّيّ في تراثه الأصيل، وأدبه الوافر الذي جعلنا نكتُبُ في خطابه الأخلاقيّ ومظاهره التداوليّة، وهي حسنةٌ طيّبة لـ(ابن طاووس الحلّيّ) أجرها وثوابها عند الله ﷻ، وتعدّ من حسنات تفكيره واستقرائه وإبداعه العقلي.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

الخاتمة

آن أوانُ قطف ثمارِ هذه المسيرة الأخلاقيّة في خطاب عَلَمٍ من أعلام الأخلاق في العالم الإسلاميّ عامَّة، والعراق (مدينة الحلّة الفيحاء) خاصة، السَّيِّد رضيّ الدين بن طاووس الحلّيّ، وقد توصّلت الدراسة في هذا الموضوع الجديد الطريف إلى جملةٍ من النتائج، نخالها نافعة وماتعة وناجعة، وهي:

أوّلًا: ظهر أنّ لمدينة الحلّة – مَحْضَن الأنبياء والأئمة والأولياء والصالحين – السهم الأوفر، والقدح المعلّى في ظهور عدد غير قليل من العلماء والفقهاء ومنهم ابن طاووس الحلّيّ، فالمكان كان وما يزال يضطلع بأثرٍ مهم في تكوين هُوية الكيان الجماعي، وفي التعبير عن المقومات الثقافيَّة، وقد أثرت العوامل البيئية والفضاءات المكانية السامية في المفاهيم الأخلاقيَّة والجماليَّة الطاووسيّة، فضلًا عن اكتساب الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ قيمة أخلاقية خاصة قلّما نجد نظيرًا لها في الثقافة الإنسانيَّة بَلْه الثقافة العربية، فليس ابن طاووس – مهما قِيل في تراثه وأدبه – رجل العراق والحلّة فحسب، ولكنّه رجل الأخلاقية الإنسانية جمعاء.

ثانيًا: أفاد ابنُ طاووس من المرويات الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّهم يمثّلون معدن الحكمة، ومعقل الإيمان، ومغرس العطاء.

ثالثًا: نرى أنّ الخطاب الأخلاقيّ وأبعاده التداولية قد حاز قدرًا وسيعًا في التراث الشيعي؛ لاتصاله بكتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيه الأخلاقي العظيم محمّد صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام وتعاليمهم، فنرى الإشارات الأخلاقيَّة العالية المضمون، والقبسات

الإرشادية والوعظية والنفحات العرفانية، وهذا ما وجدناه جليًّا في خطاب ابن طاووس الأخلاقيّ في مصنَّفاته المختلفة، ولاسيّما في أدعيته ووصاياه ورسائله وغيرها.

رابعًا: ظهر في ضوء الجذور الأخلاقيّة التي استمدّ ابن طاووس الحلّيّ أهم مرتكزات خطابه الأخلاقيّ، فضلًا عن القرآن الكريم، ومرويات أهل البيت عليهم السلام» أنّه أفاد من الخطابات الأخلاقية التي سبقته ولاسيّما الخطاب الأخلاقي الطوسيّ نسبة إلى الشيخ أبي جعفر الطوسيّ، صاحب مجموعة (مِصْباح المتهجد)، والخطاب الأخلاقيّ الورّاميّ نسبة إلى الشيخ الزاهد ورّام بن أبي فراس الأشتري الحلّيّ، صاحب المجموعة الأخلاقيَّة المعروفة بـ(مجموعة ورّام) = (تنبيه الخواطر ونُزْهة النواظر).

خامسًا: يُعدّ الخطاب الأخلاقيّ لدى ابن طاووس الحِلِّيّ خطابًا نظريًا، فهو عندما يذكر الصفات الخلقية الرديئة يعدها عوارض للنفس المريضة أو أعراض مرضها، فضلًا عن بعد صاحبها عن الساحة الإلهية العظيمة.

سادسًا: تبيَّن لنا في ظلّ فتوى ابن طاووس الشهيرة التي فضّل فيها الكافر العادل على المسلم الجائر أنّه قد أعطى للقيمة الأخلاقيّة بعدها التداوليّ، ومرقاتها الإنسانيَّة، فالناس يتفاضلون بأخلاقهم ومبادئهم الإنسانية، ويبدو أنّ جوهر هذه الفتوى، وروحها من القرآن الكريم الذي انتصر للقيم الأخلاقيّة أيّما انتصار، وهذا دليل على ذوبان ابن طاووس في كتاب الله (القرآن الكريم) حفظًا وتدبرًا وفهمًا.

سابعًا: اعتمد ابن طاووس العقل والاستدلال، وطريقة الذوق والحال، وأراد أنْ يجعل أسلوبه، وخطابه الأخلاقيّ روضة تزهر لذوي الألباب والعقول، وكأنّها الرتاج العظيم للوصول إلى المحصول، وقد اتّخذ في كتبه طابعًا منهجيًا دقيقًا، ظهر فيه خطيبًا أخلاقيًا، وتداوليًا منهجيًا.

ثامنًا: ظهر أنّ التداوليّين الذين انبروا لدراسة مبادئ التداوليّة وأبعادها قد ركّزوا في الجانب التبليغيّ في الخطاب، وتناسوا قوانين أخرى اجتماعية وأخلاقيّة ولم يلتفتوا إلى الجانب التهذيبيّ والإرشاديّ الذي نقطع أنّه الأصلُ في خروج العبارات عن إفادة المعاني الحقيقية والمباشرة، وهذا ما وجدناه في أدب ابن طاووس الحلّيّ ولاسيّما خطابه الأخلاقيّ الذي جاء مشحونًا بالمعانيّ الحقيقية المباشرة، والمعانيّ غير الحقيقية (غير المباشرة) التي تنتظم في سياقات إنتاجيّة.

تاسعًا: قَدَم الخطابُ الأخلاقيّ – عند ابن طاووس – زادًا تأويليًّا للمتلقي ذا قيمةٍ عاليةٍ فيه مجموعة من النصائح والفضائل الأخلاقية لا تصدر إلّا من عارف كبير، وذي خلق كريم.

عاشرًا: كان ابنُ طاووس متجهًا نحو وضع أُسس وركائز ثابتة للتواصل والتحاور بوصفهما مقاربتين تداوليتين خاصتين للخطاب الملفوظ، يُمرِّر معرفةً بين المتكلم والسامع ويطمحُ إلى استكشاف الطرائق التي يشتغل بها الخطاب في كليته من أجل تمرير هذه المعرفة التي يحملها.

الحادية عشرة: يبدو في ظل نظرتنا للخطاب الطاووسيّ أنَّه خلط بين الأخلاق والتربية في المعالجات التي وقفنا عليها، وفي موارد معينة يمتدُ الخلط ليشمل الآداب أيضًا، وقد اعتنى عنايةً بالغةً في الأخلاق الأسريَّة إذ حظيت بمرقاة عالية في كتابه (كشف المحجة لثمرة المهجة).

الثانية عشرة: ظهر أنّ أوَّل أثر للإيمان هو أنّه سند للأخلاق، أي أنّ الأخلاق وهي بحدِّ ذاتها من رؤوس الأموال الكبيرة في الحياة، لا يكون لها أساس، وقاعدة بغير الإيمان، إنّ أساس جميع الجذور الأخلاقية ومنطلقها، بَلْ إنّ سلسلة المعنويات برمتها مبنية على الإيمان الديني، أي الإيمان بالله والاعتقاد بوجوده، فكل الفضائل والصفات

التي يقدسها الأفراد والجماعات والشعوب كافة، ويدّعيها حتَّى الذي لا يملكها مبنية جميعًا على مبدأ الإيمان.

الثالثة عشرة: ظهر أنَّ ابن طاووس الحلّيّ من المؤسسين لفقه (الأخلاق) في ضوء ما وقفنا على خطاباته الأخلاقيَّة المبثوثة في كتبه، فقد أعطى للعبادات والمعاملات مدياتها و تخومها الرحاب، كاشفًا النقاب عن أسرارها ودقائقها.

الرابعة عشرة: أراد ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ التبليغ والتواصل والتراحم من أجل محاكاة الواقع، وتقريب الصور وملاطفة المجالات التداولية ومغازلتها، فعناصر التواصل والتفاعل والإبلاغ حاضرة في أفعاله وأقواله، ولا بدّ من تسويد القيم الأخلاقيَّة الإنسانيَّة، وغرس الفضائل والشمائل الإسلاميّة الإنسانيَّة الساميّة في أنحاء الحياة ومفاصلها كافة.

الخامسة عشرة: ظهر أنّ لابن طاووس آراءً حصيفةً في أخلاقيَّة السياسة، وأخلاقية الجهاد، نرجو أن تتاح المناسبة لتسجيلها أنصافًا لهذا الأخلاقيّ الكبير والتربويّ العظيم.

السادسة عشرة: لا غرو أنّ ابن طاووس الحِلِّيّ قد أبعد قسمًا من العلوم ولم يبوّؤها تلك المنزلة الرفيعة التي تستأهلها، ويبدو أنّ ذلك الابتعاد تحركه دوافع تمجيد كلام أهل البيت عليهم السلام»، وأدعيتهم، فكان انتصارًا لجلال الدعاء والوصايا الذي يعلو على جلال علم الكلام، والفقه من أجل نشدان الحقيقة الكونيّة، وتحقيقًا لمقاصد الترغيب والترهيب.

السابعة عشرة: تحصّل أنّ دراسة الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ ومظاهره التداولية تجربة فريدة في التأليف في هذا الجانب، مبينين أسرار هذا الخطاب، والمظاهر التداولية المتعاونة والمتساندة في خطاب ابن طاووس الأخلاقيّ، وفي بحثه عن الحقيقة اليقينيَّة بعقله وقلبه.

الخاتمة

الثامنة عشرة: ظهر أنّ الخطاب الأخلاقيّ الطاووسيّ كان ناجحًا تواصليًا وإبلاغيًا و إقناعيًا، ويبدو أنّ الشروط المؤسساتية (إنْ صحّ التعبير) بوصفه أبًا عظيمًا فقد أنفذ وصاياه لأولاده، وأهل بيته أجمع من جهة، وبوصفه نقيبًا للطالبيين أصبح فعله كلاميًا فعّالًا منجزًا.

التاسعة عشرة: لا جَرَمَ أنّ المخلصينَ من علماء العرب عامة وعلماء العراق والحلّة خاصة أقدرُ على دراسة تراث هذه المدينة المباركة (مدينة الحلة)، متى ما أنضجوا الرأي، وأجمعوا الكلمة من أجل إظهار الصور الحقيقية لها.

التوصيات:

أوّلًا: الدعوة إلى دراسة الخطابات الإخلاقيَّة عند علماء المسلمين ولاسيّما علماء أتباع أهل البيت عليهم السلام؛ لما تضّمنه من عمق في المادة والمعنى، ورؤية ثاقبة في فلسفة الأخلاق؛ لكونها مستقاة من النهر المادّ، والبحر الزخار كتاب العربية الأكبر القرآن الكريم، ومنابع الخلق والحكمة الثقل الأصغر، المصطفى صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار.

ثانيًا: تبصرة المجتمع الإنسانيّ والمؤسسات التربويَّة والتعليميَّة والاجتماعيَّة بلزوم انطوائها على المنظومة الأخلاقيَّة المتكاملة والمثالية فالملاك في صحة ما تقوم به من أدوار ونشاطات وممارسات كلِّها تكون في خدمة الأخلاق، وتعمل على ترسيخ الفضائل والشمائل في المجتمع.

ثالثًا: لزوم دراسة الخطاب الأخلاقيّ عند الشيخ أبي جعفر الطوسيّ ولاسيّما في مجموعته (مصباح المتهجد)، والشيخ الزاهد ورّام بن أبي فراس الحلّيّ في ضوء مجموعته الأخلاقيّة المعروفة بـ (مجموعة ورّام) = (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر)، فقد اشتملتا على خطابات أخلاقيّة عظيمة المضمون، عالية البيان.

رابعًا: دعوة الهيئات والمراكز الثقافية عامة، والباحثين الأكارم إلى مدّ مدينة الحلّة الفيحاء- بما تستطيع -من آثار السَّيِّد ابن طاووس الحلّيّ؛ لتشارك بذلك في إحياء ذكراه و نشر الثقافة الإنسانيَّة من جهة، ولزوم عمل موسوعة تضمّ تراثه وأدبه تسمى بـــ(موسوعة ابن طاووس الحلّيّ).

خامسًا: دعوة المختصين في وزارتي التربية والتعليم العاليّ إلى تضمين بعضٍ من أقوال ابن طاووس الأخلاقيّة ووصاياه وآرائه التربويّة في المناهج الدراسيّة؛ لما له الأثر البالغ في نشر القيم الأصيلة والمثل العليا في مجتمعنا وغرس الفضائل والشمائل الإسلاميّة الإنسانيّة السامية في أنحاء الحياة ومفاصلها كافة.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيِّدنا ومولانا محمّد رسوله المصطفى، وآله المبتعثين لغرس المحامد، ودرء المفاسد، وَرَعي المصالح، وسعادة الغادي والرائح.

كُتِبَ بحلّة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام

ومدينة ولده البكر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

في أواخر شهر جُمادَى الآخر من سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بعد الألف

من الهجرة المباركة الشريفة، صلوات الله جل جلاله على صادعِها ومُهاجِرِها.

الفَهَارِسُ الفَنِّيَّة

الفهارس الفنية

فهرس الآيات

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ ..﴾	البقرة	٢٦	٢٠٩
﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ..﴾	البقرة	٥٠	١٤٣
﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ ...﴾	البقرة	٨٩	٤٥
﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ...﴾	البقرة	١٢٤	٢٠٢
﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ...﴾	البقرة	١٥٠	١٨٩
﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾	البقرة	١٨٨	٣٣
﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ...﴾	آل عمران	٧	١٠١
﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ ﴾	آل عمران	٦١	١٩٠
﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ ﴾	آل عمران	١٤٠	٣٤
﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ...﴾	آل عمران	١٥٩	١٩٠
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ...﴾	النساء	١	٤٨
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ...﴾	النساء	٥٩	١٨٦
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ...﴾	النساء	١٣٥	٩١
﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ...﴾	النساء	١٥٧	٥١
﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ ...﴾	المائدة	٥٥	١٠٢

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ...﴾	المائدة	٣	١٠٢
﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ...﴾	الأنعام	٢٧– ٢٨	٤٥
﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾	الأنعام	٨٠	١٩٠
﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾	الأنعام	١٤٩	١٨٩
﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا...﴾	الأنعام	١٦٠	١٨٠
﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾	الأعراف	٤٣	٥٠، ٢٠٤
﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾	الأعراف	٥٦	٤٩
﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا...﴾	الأعراف	٩٧	٤٨
﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى...﴾	الأعراف	٩٨	٤٨
﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ﴾	الأعراف	١٢١، ١٢٢	٤٨
﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾	الأعراف	١٥٧	١٠٨
﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ...﴾	الأنفال	٢	١٤٨، ١٤٩
﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾	الأنفال	٧٤	١٤٩
﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ...﴾	التوبة	٦٨	١٧٩
﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ...﴾	التوبة	١٢٢	٧٨
﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾	التوبة	١٢٨	١٩٥
﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾	يونس	٢٦	١٤٥

الفهارس الفنية

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ﴾	يونس	٤٤	٢٠٩
﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ...﴾	يونس	٩٨	٥٠
﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾	يونس	١٠١	٢٠١
﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ...﴾	هود	٤٤	١٣٧، ١٥٣
﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾	هود	٤٩	٥٠
﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ ...﴾	هود	٧٤، ٧٥	٩٦
﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ...﴾	يوسف	٣	٥٣
﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ...﴾	يوسف	٤	٥٣
﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ...﴾	يوسف	٨٧	٤٧
﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ...﴾	يوسف	١٠٠	٥١
﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي ...﴾	يوسف	١٠٠	١٣٩
﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾	يوسف	١٠٦	٢٠١
﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٖ﴾	الرعد	٧	١٠٢
﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ...﴾	الرعد	٣١	١٨٣
﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا﴾	إبراهيم	٢٤، ٢٥	١٦
﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ..﴾	الحجر	٥٦	٤٧
﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ...﴾	الحجر	٣٧- ٣٨	٤٨

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ﴾	النحل	٢٦	٧٦
﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾	النحل	٥٣	٤٤
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾	النحل	١٢٥	١٩٠
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ...﴾	الإسراء	٨٩	١٩٠
﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ...﴾	الكهف	١٨	٢٠٨
﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ...﴾	الكهف	١٩	٢٠٨
﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ...﴾	الكهف	٢٨	١٣٦
﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾	الكهف	٤٩	٢٠٩
﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ...﴾	الكهف	٨٢	٥٢
﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن...﴾	طه	٤٠	٥١
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا...﴾	طه	١٣٢	٥٤
﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾	الأنبياء	٢٦	٨٤
﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا...﴾	الأنبياء	٨٧	٥١
﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾	الأنبياء	٨٣ – ٨٤	٥١
﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾	الحج	١٠	٢٠٩
﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	الحج	٣٨	٥٢
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾	الحج	٥٢	١٨٢

الفهارس الفنية

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾	الحج	٦٧	٢٩
﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾	المؤمنون	٢٧	٢٤
﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾	المؤمنون	٦١	١٣٩
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾	النور	٢١	٤٣، ٤٤
﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾	النور	٣٩	٤٤
﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ﴾	النور	٣٩	١٨٤
﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ...﴾	النور	٤٠	٧٦
﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً...﴾	الفرقان	٢٣	١٦٤
﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾	الفرقان	٦٣	٢٤
﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ...﴾	الفرقان	٧٧	٨٥، ١١٨
﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا...﴾	الفرقان	٧٣-٧٦	١٠٢
﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا...﴾	النمل	١٤	٤٤
﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ...﴾	النمل	١٩	٤٩
﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾	النمل	٦٢	٤٨
﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾	النمل	٧٩	٢٩
﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ...﴾	العنكبوت	٢٦	١٤٠
﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	العنكبوت	٤٦	١٩٠
﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾	العنكبوت	٦٩	٤٥
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾	الروم	٣٠	٤٢

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾	سبأ	٢٤	٤٢، ١٩١
﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾	فاطر	٣٩	٩١
﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾	يس	٢٧	٤٨
﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾	الصافات	١٤٧	٤١
﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ...﴾	ص	١٧	٢٢١
﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾	ص	٢٠	٢٤
﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ ...﴾	ص	٤٤	٥١
﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾	ص	٦٧ – ٦٨	٥٩
﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾	الزمر	١٨	١٠٥
﴿رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ ...﴾	غافر	٦٠	٨٥، ١١٩
﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ ...﴾	فصلت	٤٢	٥٣
﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾	الشورى	١٥	١٨٩
﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ ...﴾	الشورى	١٦	١٨٩
﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾	الزخرف	٤٣	٢٩
﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ ...﴾	الجاثية	٢٣	١٠٥
﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ...﴾	الأحقاف	١٦	٦٢
﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ...﴾	الفتح	١ – ٢	٥٨
﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ ...﴾	الفتح	٦	٤٣

الفهارس الفنية

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ...﴾	الحجرات	٧	١٠٥
﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ﴾	الحجرات	١٧	٤٣
﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾	الذاريات	١٠ – ١٤	١٤٥
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ ...﴾	النجم	٣ – ٤	١٩٥
﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾	الحشر	٧	٣٣
﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ...﴾	الممتحنة	٨	٩٦
﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ ...﴾	الجمعة	٦	٢٠٠
﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ ...﴾	التحريم	٨	٥٢
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	القلم	٤	٢٩، ٥٧، ١٥٠
﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا ...﴾	الحاقة	٤٤ – ٤٧	٧٧
﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى ...﴾	النبأ	١ – ٣	٥٩
﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾	النبأ	٣٧	٢٤
﴿تَذَكِّرَةٌ ﴿١١﴾ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾	عبس	١ – ٢	١٩٥
﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ...﴾	عبس	٥ – ١٠	١٩٥
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ...﴾	الشمس	٩ – ١٠	٧٦
﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾	الزلزلة	٢	٦٢

الفهارس الفنية

فهرس الأحاديث

الحديث والأثر	القائل	الصفحة
((اذهبوا فانتم الطلقاء))	النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله	١٥٠
((أصنع الخير الى اهله وإلى غير أهله))	النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله	٩٦
((أقول: ومن حيث انقرض ملك بني العباس))	الإمام الصادق عليه السلام	١٣٤
((إن عند الله منزلة لاتَّنال الا بمسألة ...))	الإمام الصادق عليه السلام	٨٥، ١١٨
((أين الذين زعموا أ نهم الراسخون في العلم ...))	الإمام علي عليه السلام	٦١
((أيها الناس سَلُوني قبل أن تفقدوني، ...))	الإمام علي عليه السلام	٦١
((لا تلتفتوا إلى هؤلاء الخدّاعين ...))	الإمام الهادي عليه السلام	٧٥
((اللّهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون))	النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله	٩٦
((اللّهم افْلُل بذلك عدوهم،...))	الإمام السجاد عليه السلام	٦٣
((مَنْ اختلف إلى المسجد، أصاب إحدى الثمان...))	الإمام علي عليه السلام	٦٧
((من أعاننا بلسانه على عدونا أنطقه الله بحجته ...))	الإمام الصادق عليه السلام	١٩٢
((مَنْ دهمه أمر من سلطان، أو مَنْ عدو...))	الإمام الصادق عليه السلام	٦٧

((من نكد العيش السلطان))	الإمام الصادق عليه السلام	٩١
((وأشعر قلبك الر حمة للرعية))	الإمام علي عليه السلام	٩٦
((والله لو وجدته قد تَزَوج به النساء، وملك به ...))	الإمام علي عليه السلام	٥٩

الفهارس الفنية

فهرس المعصومين عليهم السلام

اسم المعصوم	الصفحة
النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله	١٣، ٢٩، ٣٩، ٤٥، ٤٦، ٥٢، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ٧٨، ٨٦، ٩١، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٨، ١١١، ١١٩، ١٢٠، ١٣٥، ١٣٦، ١٥٠، ١٦١، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨، ١٨٠، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٣، ٢١٧.
الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام	٢٣، ٢٤، ٥٧، ٧٠، ٧٣، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٨٦.
فاطمة عليها السلام	٦٨
الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام	٢١٨
الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام	١١، ١٥، ١٥١، ٢٠٥.
الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام = زين العابدين	٣٩، ٦٣
الإمام عليّ الهادي عليه السلام	٥٩، ٧٥
الإمام المهدي عجل الله فرجه	٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٠

فهرس الأعلام

إبراهيم، النبي ١٤٠
أبو سفيان ٧٦
أبو علي مسكويه ٢٨
أبو القاسم الخوئي ١٩
أبو هاشم الجعفري ٧٥
أبو هلال العسكري ١١٣
أبن الاثير ٧٠
ابن الطقطقي ٩١
ابن الفوطي ٢٣
ابن عبَّاس ٤٢
ابن فارس ١٢١، ١٨٩
ابن وهب الكوفي ١٩٨
أبي عبيدة الحذاء ٧٤
أبي علي الحسن بن محمَّد الطوسيّ، الشيخ المفيد ٢٠، ٦٨
أحمد بن حنبل ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨
أحمد رحيم المنصوري ١١
أحمد الصافي، السيِّد ١١
إدريس النبيّ عليه السلام ١٩٤
إدريس هاني ١٢٨

آدم	٧٣
أوستين	٣٢، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٩، ١٦٤
البحراني	١٩، ٢٢
بدر الزركشي	٢٥
البلخي	٥٨
الجبائي، أبي علي	٥٤، ١٣٩، ١٤٥، ١٤٦
حاتم الجواد	٤٣
حسن الصدر	٢٣
حسين أحمد السوراوي، الشيخ	٢٠
الحسين بن أبي الخطاب	٧٥
حسين جمعة	١١٠
حيدر وتوت الحسيني، السيِّد	١١
الخضر	١٩٤
الخوانساري	٧٠
داوود، النبي	٢٥، ٢١٠
ديكرو	١٩١
الراغب الأصفهانيّ	١٨٩
الرماني	١٤٦، ١٨٣، ١٨٥
زكريا النبي عليه السلام	١٥٩، ١٩٩
الزمخشريّ	١٨٦، ١٨٧، ٢٠٩

الفهارس الفنية

زيد بن علي بن الحسين عليه السلام = زيد الشهيد ٢٠١
سعد كموني ١٣٧
السكاكيّ ١٧٨
سيرل ٣٢، ١٣١، ١٣٣، ١٦٤
شارل موريس ٩، ٣٢
الشريف الرضي ١٩٣
الشريف المرتضى ١٩٣
الشيرازيّ = الملا صدرا ٢٩، ٧٦
صابر الحباشة، دكتور ١٩٠
صاحب عمدة الطالب= ابن عنبة ١٧
صبحي الصالح ٤١
طه عبد الرحمن ٢٦، ٣٤، ١٢٨، ١٨٢
الطهراني ٤٦
عاصم الخياط ٧٤
عبد الجبار ١٤٨
عبد القاهر الجرجاني ١٧٨
عبد الكريم بن طاووس، السيِّد ٢٠
عربي بن مسافر العبادي ٦٨
عزرائيل عليه السلام ٩٤
العلَّامة الحِلِّيّ ١٨، ٢٠

العلَّامة المصطفوي ٢٧

العلوي ١٢١

علي الأعرجي، الدكتور ١١

عليّ بن طاووس الحليّ، رضيّ الدين ١٣، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٣، ٨٥، ٩١، ٨٧، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢١، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٧١، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦

علي بن عيسى الإربلي ٢٠

عمار الهلالي، الشيخ ١١

عياد حمزة الويساوي، الدكتور ١١

عيسى، النبي ٥١، ١٤٩

الفخر الرازي ٢٩

الفرَّاء ٤١، ١٠١، ١٤٣، ١٤٥، ١٨٠، ٢٠٩

الفهارس الفنيّة

فرعون ٤٧، ٥٠، ١٤٣، ١٩٩

القزوينيّ، الخطيب ١٣٢

قشتمر، الأمير ٩٣

كرايس ٣٢، ١٣١، ١٧٤، ١٧٥، ١٨١، ١٩١

الكفعمي، الشيخ ٧١

مالك الأشتر النخعيّ ٧٠

المحدِّث القميّ ١٨

المحدَّث النوريّ ٤٣

محمَّد السند، الشيخ ٦١

محمَّد الطاووس ، أبي عبدالله ١٧

محمَّد باقر الداماد ١٠٠

محمَّد بن أبي القاسم الطبريّ ٦٨

محمَّد بن الحسن الطوسي، أبو جعفر = الشيخ الطوسي = شيخ الطائفة ٢٠، ٢٩، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٧، ٢١٤، ٢١٧

محمَّد بن القاسم الطبري ٢٠

محمَّد بن بابويه، أبو جعفر ٦٦

محمَّد بن علي ابن طاووس ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١٤، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٥، ١٦١، ١٦٣، ١٩٧، ٢٠٧

محمَّد بن محمَّد النعمان، المفيد ٦٦

محمَّد بن نما، الشيخ ١٩

محمَّد بن يعقوب الكلينيّ، الشيخ ٦٦
محمَّد حليم الكروي، الدكتور ١١
محمَّد رضا المظفر، الشيخ ٧٣، ٧٦
محمَّد عابد الجابري ٢٨، ٣٥
محمَّد مهدي النراقي ٥٧
محمود الحمصيّ، سديد الدين ٧٠
المرتضى ٦٧
مريم، السيدة = مريم بنت عمران ١٥٩، ١٩٩
المستنصر بالله ، الخليفة ٩٣، ٩٤، ١٩٢
معاوية ٧٦، ٢٠٢
موسى بن جعفر بن محمَّد ابن أحمد بن الطاووس = والد رضي الدين ١٩
موسى، النبي ٥١، ١٤٤، ١٩٤
نوح ، النبي ٧٣
نيتشه ١٢٨
أم موسى عليها السلام ١٩٩
ورام بن ابي فراس المالكي، الشيخ = جد رضي الدين ١٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٢١٤، ٢١٧، ٢١٨
الوليد بن المغيرة ٣٩

يزيد ٧٦، ٢٠٢
يعقوب عليه السلام، النبي ٥٠، ٥١
يوسف عليه السلام، النبي ٥٠، ٥١، ١٣٩
يونس عليه السلام، النبي ٥١

الفهارس الفنية

فهرس المؤلفات

الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزانة ٢١، ٧٤
الإقبال بالأعمال الحسنة ٢١، ٦٥، ٦٩، ٨٧، ٩٥
إنجيل لوقا ٤٦
إنجيل متي ٤٦
إنجيل مرقس ٤٦
إنجيل يوحنا ٤٦
الإنجيل ٤٦
التحصين في أسرار ما زاد على كتاب اليقين ٢١، ١٠٣
تنبيه الخواطر ونزهة الناظر = مجموعة ورام ٢٠، ٧٠، ٧١، ٧٣، ٢١٤
تهذيب النفس ١٢٠
التوراة ٤٦
جامع السعادات للنراقي ٧٣
جمال الأسبوع بكمال العمل ا لمشروع ٢٢، ٦٥، ٦٦، ٨٧، ١٢٤
الدروع الواقية من الأخطار ٢٢، ٦٥، ٦٦، ٨٧، ١٢٣
سعد السعود ١٣، ٢٢، ٥٤، ٦٥
شعراء الحلّة ١٩
غياث سلطان الورى لسكان الثرى ٧٧
فتح الأبواب بين ذوي الألباب ورب الأرباب ٢٢
فلاح السائل ونجاح ا لمسائل في عمل اليوم والليلة ٢٢، ٦٠، ٦٥، ٦٦، ٨٧
كتاب الأزمنة ١٢٠
كتاب اليقين ٢٠
كشف ا لمحجة لثمرة ا لمهجة ١٨، ٢٢، ٦٥، ٢١٥

محاسبة النفس = محاسبة الملائكة الكرام آخر كل يوم ٢٢، ٧١
المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي ١٩
مسألة في المواسعة والمضايقة ٧٠
المصباح الكبير ٦٥، ٦٨
مصباح المتهجد ٦٥، ٦٩
مهج الدعوات ومنهج العنايات ٢٢، ٦٥، ١١٥
المهمات والتتمات ٦٥، ٧٠
اليقين باختصاص مولانا عليّ أمير المؤمنين عليه السلام بإمرة المؤمنين ٢٢، ١٠٣

فهرس الأماكن والبلدان

باب المشهد	٢٣
بغداد	١٧، ٢٣، ٩٣، ١٩٤
بلاد خراسان	٩٣
بيت المقدس	١١٩
الحلّة	١٣، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٣، ٧٠، ٢١٣، ٢١٧، ٢١٨
العراق	١٧، ٩١، ٢١٣، ٢١٧
غرفة التجارة	٢٣
مدينة سورا	١٧
مرقد أمير المؤمنين عليه السلام	٢٣
المستنصرية	٩٠، ١٩٣
المسجد الحرام = مكة	٩٣، ٥٠، ١١٩، ١٥٠
مسجد النبيّ	٧٥، ١١٩
نجران	٢٠٠
النجف الأشرف	١٩
وادي السلام	٢٣

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

❖ الاتّصال اللسانيّ وآلياته التداوليّة في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، ساميّة بن يامْنَه، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١٢م.

❖ الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي الطبرسيّ (من علماء القرن السادس الهجريّ) تحقيق: إبراهيم البهادري ومحمَّد هادي، ط٣، دار الأسرة، إيران، ١٤٢٤ هـ.

❖ الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمَّد بن سالم الثعلبيّ الآمدي (ت٦٣١هـ)، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، (د.ت).

❖ أحلام اليقظة مع فيلسوف المتألهين، محمَّد رضا المظفر، تحقيق: الدكتور محمَّد جواد الطريحيّ، ط١، دار الضياء، النجف الأشرف، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٩م.

❖ إحياء علوم الدين، أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزَّالي (ت ٥٠٥ هـ) ط١، دار المعرفة، بيروت، (د. ت).

❖ الأخلاق، عبدالله شبر (ت ١٢٤٢هـ)، ط١، دار الكتاب الإسلاميّ، بيروت، (د. ت).

❖ أخلاقنا في حاجة إلى فلسفة أخلاق بديلة: إدريس هاني، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٩ م.

❖ أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

❖ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤ م.

❖ الاستلزام الحواريّ في التداول اللسانيّ، العياشيّ أدراوي، ط١، دار الأمان، المغرب، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

❖ الاستلزام الحواري في سورة البقرة (دراسة وصفية تحليلية تداولية)، حَجَر نورما وحيدة، جامعة مولانا مالك ابراهيم، مالانج، أندنوسيا، ٢٠١٠ م.

❖ أصول الكافي، أبو جعفر محمَّد بن يعقوب الكُليني (ت٣٢٨ هـ)، ط١، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

❖ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.

❖ الأفعال الإنجازيّة في العربية المعاصرة،(دراسة دلالية ومعجم سياقي)، عليّ محمود حجيّ الصّراف، ط١، مكتبة الآداب، ٢٠١٠م.

❖ الأفعال الكلاميَّة في سورة الكهف (دراسة تداوليّة)، آمنة لعور، جامعة قسنطينة، الجزائر، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، ٢٠١٤م.

❖ الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة بالسنة، رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤هـ)، تحقيق جواد الفيومي الأصفهانيّ، مكتب الإعلام الإسلاميّ، ط١، ١٤١٤ هـ.

المصادر والمراجع

❖ الأمـالي، الشيخ المفيد الإمـام أبي عبدالله محمَّد بن محمَّد بن النعمان العكبري البغداديّ(ت٤١٣هـ)، دار المفيد، (د. ت).

❖ الأمان من أخطار الأسفار والأزمان، رضيّ الدين علي بن موسى بن جعفر ابن طاووس، النجف، المطبعة الحيدريَّة، ١٣٧٠هـ.

❖ الأمر والنهي في اللّغة العربيّة، نعيمة الزهري الأنصاري، مؤسسة الثقلين لإحياء التراث الإسلامي، ط١، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

❖ الأنـوار الساطعة في المائة السابعة، محمَّد مُحسن المعروف بآغا بزرك الطهراني (ت١٣٨٩هـ)، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢م.

❖ الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين محمَّد بن عبد الرحمن القزوينيّ (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق: الشيخ بهيج غزاويّ، دار إحياء علوم التراث، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨ م.

❖ بحار الأنـوار، محمَّد باقر المجلسيَّ، (١١١١هـ)، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٩٩٨م.

❖ البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي(ت ٧٧٢هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

❖ البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب (ت ٣٣٥هـ)، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب، والدكتورة خديجة الحديثي، بغداد، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧.

❖ البلاغة والأسلوبية عند السكاكيّ، محمَّد صلاح زكيّ، ط١، غزة، ٢٠٠٧ م.

❖ تاريخ الطبريّ (تاريخ الأمـم والملـوك)، أبـو جعفر محمَّد بن جرير الطبريّ (ت ٣١٠هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م.

❖ تأصيل النص قراءة في أيديولوجيا التناص، الدكتور مشتاق عباس مَعْن، ط١، مركز عبادي للدراسات، صنعاء، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

❖ تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمَّد الحسن بن عليّ بن شعبة الحرانيّ (من أعلام القرن الرابع الهجري)، ط١، منشورات الأعلميّ، بيروت،١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

❖ التحقيق في كلمات القرآن الكريم، العلّامة المصطفويّ، ط٣، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٩ م.

❖ التداولية (البعد الثالث من سميوطيقا موريس حتَّى اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة)، الدكتور عبد بلبع، المجمع الثلاثي المصري، ط١، القاهرة، ٢٠١٦م.

❖ التداولية والحِجاج (مداخل ونصوص)، صابر الحبّاشة، ط١، مطبعة صفحات، دمشق، ٢٠٠٨م.

❖ التداولية اليوم، آن ومرشلار جاك، ترجمة سيف الدين دغفوساميكو، ومحمَّد الشيباني، ط١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣ م.

❖ تفسير القرآن الكريم، صدر الدين الشيرازي (ملا صدرا)، تحقيق: بيدافر، ط٣، دار المعارف، بيروت، ١٤١٥ هـ.

❖ تفسير أمومة الولاية والمحكمات للقرآن الكريم، الشيخ محمَّد السند، تقرير الشيخ مُحسن الجصاني، ط١، المطبعة شريعة، قم، ١٤٣٦ هـ.

❖ التفكير الناقد في القضايا الأخلاقية، تومس وول، ترجمة د. نجيب الحصادي،ط١، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٤م.

❖ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام)، أبو الحسين ورّام بن أبيّ فراس (ت٦٠٥هـ)، تحقيق: باسم محمَّد مال الله الأسدي، ط١، العتبة الحسينيَّة المقدَّسة، كربلاء، ٢٠١٣م.

❖ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبو علي أحمد بن محمَّد بن يعقوب مسكويه (ت٤٢١هـ)، تحقيق: ابن الخطيب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، (د. ت).

❖ الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، د. عبدالله إبراهيم، ط١، الدار العربية للعلوم، بالاشتراك مع دار الأمان، الرباط، ٢٠١٠م.

❖ جامع السعادات، محمَّد مهدي النراقي، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

❖ الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، محمود صافي، دار الرشيد – مؤسسة الإيمان، ١٩٩٥م.

❖ جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع، السَّيِّد علي بن موسى بن طاووس، جواد قيومي الأصفهانيّ، مؤسسة الآفاق، ط١، ١٣٧١هـ.

❖ الحِجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيَّة، عبدالله صَوْلة، ط١، منشورات كلية الآداب، بمنّوبة، الجزائر، ٢٠٠١م.

❖ الحِجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظريّة وتطبيقية في البلاغة الجديدة، حافظ اسماعيل علوي، ط١، دار الكتب الحديث، أربد، الأردن، ٢٠١٠م.

❖ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة المنسوب لابن الفوطي، طبع بعناية مصطفى جواد، بغداد، مطبعة الفرات، ١٣١٥هـ.

❖ خاتمة مستدرك الوسائل، الميرزا حسين الطبرسيّ النوريّ (ت١٣٢٠هـ)، قم، مطبعة ستارة، ١٤١٥ هـ.

❖ الخطاب الأدبي ورهانات التأويل (قراءات نصية تداولية حِجاجية): نعمان بوقرة، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٢م.

❖ الخطاب الإسلاميّ إلى أين؟ حوارات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبدالرحمن)، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ م.

❖ الخطاب القرآني (القرآن مرجعيتّه)، الدكتور سعد كموني، المركز الثقافي العربي،ط١، بيروت، ٢٠٠٨ م.

❖ دراسات في الحِجاج، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط١، ٢٠٠٩ م

❖ دراسات في الفكر التربوي عند الإمام الحسن، الأستاذ يوسف مدن، قسم الشؤون الفكريَّة والثقافيَّة في العتبة العباسيَّة، دار البرهان، بيروت، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

❖ دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمان الجرجانيّ (ت ٤٧١هـ)، ط٥، الشركة الدولية للطباعة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

❖ الدين والعلم مطارحات في دَيْنَنَة العلم، مجموعة من الباحثين، محمَّد حسن زراقط، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٨ م.

❖ السراج الوهاج لدفع عجاج قاطعة اللجاج، الفاضل القطيفي (ت ٩٠٥ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، ط١، ١٤١٣ هـ.

❖ سعد السعود، ابن طاووس، منشورات الرضي، مطبعة أمير، قم، ١٣٦٣هـ.

المصادر والمراجع

❖ سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، عبَّاس بن محمَّد القميّ (ت١٣٥٩هـ) ط٣، دار الأسوة، إيران، ١٤٢٧هـ.

❖ السيرة النبوية (سيرة ابن هشام)، أبو محمَّد عبد الملك بن هشام المعافريّ (ت ٢١٣هـ)، تحقيق الشيخ أحمد جاد، ط١، دار الغد الجديد، المنصورة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

❖ شرح إحقاق الحق، السَّيِّد المرعشي، منشورات كلية المرعشيّ النجفيّ، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

❖ شروح في علم الأُصول (شرح الآخوند للكفاية بقلم تلميذه الخوئينيّ) ترجمة: الشيخ محمّد شقير، ط١، دار المحجّة البيضاء، بيروت، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

❖ الصحيفة السجاديَّة الكاملة، الإمام زين العابدين، ط١، بيروت، ١٣٨٧ - ١٩٦٧م.

❖ طبقات أعلام الشيعة: آغا برزك الطهرانيّ، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت ١٤٣٠هـ.

❖ العُدّة في أصول الفقه، أبو جعفرٍ محمَّد بن الحسن الطوسيّ (ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق: محمَّد رضا الأنصاريّ القُمّيّ، ط١، ستاره، قم، ١٤١٧ هـ.

❖ عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، جمال الدين أحمد بن علي بن الحسين، ابن عنبة(ت٨٢٨هـ)، تحقيق: محمَّد حسن الطالقاني، المطبعة الحيدريَّة، النجف، ١٩٦١م.

❖ عندما نتواصل نتغير - مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦ م.

❖ فتح الأبواب بين ذوي الألباب وبين رب الأرباب في الاستخارات، رضيّ الدين ابن طاووس الحِلّيّ، تحقيق: حامد الخفاف، ط١، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

❖ الفخريّ في الآداب السلطانيَّة والدول الإسلاميَّة، محمّد بن عليّ بن طباطبا بن الطقطقيّ (ت ٧٠٩هـ)، مراجعة: محمَّد عوض إبراهيم وعلي الجارم، مطبعة المعارف، مصر، ١٩٢٣ م، ١٩٣٨م.

❖ فقه الأخلاق، محمَّد صادق الصدر، دار البصائر، بيروت، ١٤٣٣ - ٢٠١٢م.

❖ فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة، رضي الدين علي بن موسى ابن جعفر الحسنيّ، ابن طاووس، تحقيق غلام حسين المجيدي، دار جواد الأئمة عليهم السلام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٢ - ٢٠١٢ م.

❖ فلسفة الأخلاق في الإسلام، محمَّد جواد مغنية، دار الجواد، بيروت،ط٢، ١٩٨٤ م.

❖ فلسفة مرجعية القرآن المعرفيَّة في إنتاج المعرفة الدينيَّة، نجف علي ميرزائي، ترجمة: د. دلال عبَّاس، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ(سلسلة الدراسات القرآنية)، بيروت، ٢٠٠٨ م.

❖ فن البلاغة، د. عبدالقادر حسين، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، (د.ط)، (د. ت).

❖ الكامل في التاريخ، عزّ الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيبانيّ (ابن الأثير) (ت ٦٣٠هـ)، مراجعة: الدكتور سمير شمس، دار صادر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م

❖ كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمَّد علي التهانويّ، تحقيق: الدكتور علي دحروج، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦ م.

❖ الكشاف، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ط٢، دار إحياء التراث، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

❖ كشف الغطاء عن وجوه مراسم الاهتداء (في علم الأخلاق)، محمَّد حسن القَزْوينيّ، ط١، دار الحوراء، بيروت، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

❖ كشف المحجة لثمرة المهجة، رضي الدين ابن طاووس، تحقيق: الشيخ محمّد الحسّون، ط٣، ١٤٣٠ هـ.

❖ الكليات، أبو البقاء الحسين الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمَّد المصري، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م.

❖ اللاهوت الدينيّ وأصول العنف الدّيني، يوسف زيدان، ط٣، دار الشروق، مصر، ٢٠١٠ م.

❖ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمَّد بن مكرم بن منظور، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

❖ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، ط١، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٨م.

❖ اللغة والحِجاج، الدكتور أبو بكر العزّاويّ، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦ م.

❖ لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث، يوسف بن أحمد البحرانيّ (ت١١٨٦هـ)، تحقيق: محمَّد صادق بحر العلوم، مطبعة النعمان، النجف الأشرف.

❖ متشابه القرآن، القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمدانيّ (ت٤١٥ هـ)، تحقيق: أحمد عبدالرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، ط١، مطبعة الثقافة الدينية، ٢٠٠٩ م.

❖ مجمع الأمثال، للميدانيّ، تح: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

❖ مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل الحسن الطبرسيّ (ت٥٤٨هـ)، ط٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٥ م.

❖ محاسبة الملائكة الكرام، للسيِّد ابن طاووس، تحقيق الشيخ هادي القيسي، مجلة تراثنا، العددان الأوَّل والثاني، ٤٥ و ٤٦، السنة الثانية عشرة، محرم - جمادى الآخرة، ١٤١٧هـ.

❖ محاسبة النفس، تقي الدين إبراهيم عليّ الكفعميّ (ت٩٠٥هـ)، مؤسسة قائم آل محمَّدﷺ، قم المقدسة، إيران، ط١، ١٤١٣ هـ.

❖ محاضرات في الدين والاجتماع، مرتضى المطهري، ط١، قم، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

❖ المدارس الأخلاقيَّة في الفكر الإسلاميّ دراسة منهجيّة في المصادر والاتّجاهات، مجموعة مؤلِّفين، تعريب: عبد الحسن بهبهانيّ بور، ط١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، بيروت، ٢٠١٢ م.

❖ مستدرك سفينة النجاة، النمازي، ط٣، المركز الإسلاميّ، قم، إيران، د.ت

❖ مشكلة المكان الفني، يوري لوتمان، ترجمة وتقديم: سيزا قاسم (ضمن جماليات المكان)، ط٢، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٨ م.

❖ مظاهر التداوليّة في مفتاح العلوم للسكّاكي (ت٦٢٦هـ)، باديس لهويمل، جامعة محمَّد خيضر، بِسكَرَة، ط١، عالم الكتب، الأردن،٢٠١٤ م.

❖ معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧ هـ)، ط٣، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

❖ معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو، ترجمة عبدالقادر المهيري، وحمادي صمود، مراجعة صلاح الدين الشريف، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨ م.

❖ معجم المصطلحات الأدبيَّة المعاصرة: د. سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

❖ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير،أبو عبد الله محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

❖ مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمَّد بن علي السكاكيّ (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، ط١، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ١٩٨٢ م.

❖ المفردات في غريب القرآن، ابو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بـ(الراغب الأصفهانيّ) (ت ٥٠٢)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

❖ مقاربات في فهم الدين، الدكتور حبيب فياض، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٨ م.

❖ مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمَّد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٩٩هـ.

❖ مقدمة في علم الأخلاق، السَّيِّد كمال الحيدريّ، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

❖ مكتبة آل طاووس، علي عبد الرضا عوض، دار الفرات للثقافة والإعلام في الحلّة، ٢٠١٥ م.

❖ المنطق، محمَّد رضا المظفر، (ت ١٣٨٣هـ)، دار التعارف، بيروت، ط٣، ١٩٩٠م.

❖ المنطق الفطري في القرآن الكريم، محمود يعقوبيّ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د. ت).

❖ منهاج الصلاح في اختصار المصباح، أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف ابن المطهَّر الحِلِّيّ (ت ٧٢٦هـ)، بإشراف مكتبة العلّامة المجلسيّ، تحقيق: عبد المجيد الميرد أمادي، قم، ١٣٨٨هـ.

❖ مهج الدعوات ومنهج العنايات، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر ابن محمَّد بن طاووس الحسنيّ (٦٦٤ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

❖ موسوعة عالم السياسة (تعريف شامل بالسياسة فكرًا وممارسة)، أسْعَد مفرّج، ط١، دار نوبلس، بيروت،٢٠١١ م.

❖ نزهة أهل الحرمين في عمارة المشهدين، السَّيِّد حسن الصدر الكاظميّ، ١٣٥٤هـ، تحقيق: السَّيِّد مهدي الرجائي، ط١ ستارة، قم، ١٤٣١هـ.

❖ نشأة الفلسفة العلميَّة، هانس رايشيناخ، تحقيق: فؤاد زكريا، دار الوفاء، الإسكندريّة، (د. ت)

❖ نقد العقل العربي (العقل الأخلاقيّ العربيّ)، د. محمَّد عابد الجابريّ، ط٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٢ م.

❖ النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن عليّ بن عيسى الرمانيّ (ت٣٨٤هـ)، مطبوع ضمن (ثلاث رسائل في الإعجاز)، تحقيق: محمَّد خلف الله، ومحمَّد زغلول سلام، ط٥، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٨م.

❖ نهاية المرام في علم الكلام، الحسن بن يوسف الحِلِّيّ، تحقيق: فاضل العرفان، ط١، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤٢٩هـ.

❖ نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب(ت ٤٠هـ)، وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلميَّة: الدكتور صبحي صالح، منشورات دار الهجرة، (د. ت).

❖ الهندسة المعرفيَّة لعلم الكلام الجديد، أحمد قراملكي، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٢ م

❖ وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع)، أحمد حسن الزيّات، ط٨، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٣ م.

❖ اليقين باختصاص مولانا علي عليه السلام بإمرة المؤمنين، والتحصين لأسرار ما زاد من أخبار اليقين، بتحقيق الأستاذين: محمَّد باقر الأنصاري، محمَّد صادق الأنصاري، ط١، مؤسسة الثقلين لإحياء التراث الإسلامي، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

البحوث والدراسات

❖ أسرة آل طاووس ومساهماتها في الحركة العلميّة في الحِلَّة، الدكتور حسن عيسى الحكيم، مجلة أوراق فراتية، ع٢، س٥، ٢٠١٤م.

❖ البعد التداوليّ للمبنيّ للمجهول في القرآن الكريم، الدكتور حسين علي حسين الفتليّ، مجلة دواة، ع٧، م٢، العتبة الحسينيَّة المقدّسة، شباط، ٢٠١٦م.

❖ تداولية قبل التداوليّة (هي تداولية قروسطية عربية إسلاميّة)، بيار لارشي، ترجمة الدكتور عز الدين المجدوب، منشور في (إطلالات على النظريات اللسانية والدلاليّة في النصف الثاني من القرن العشرين) (مختارات معرّبة)، ط١، بيت الحكمة، قرطاج - تونس، ٢٠١٢م.

❖ السبيل إلى البلاغة الباتوسيّة الأرسطية، محمَّد الوليّ، مجلة الحجاج، ج٢، ٢٠٠٨ م.

❖ السياقات الإنتاجيّة للخطاب الإنشائيّ في نهج البلاغة (أسلوب النداء أُنموذجًا) الدكتور رحيم كريم الشريفيّ، والدكتور حسين علي المحنا، مجلة دواة، ع٣، م١، العتبة الحسينيّة المقدّسة، شباط، ٢٠١٥ م.

❖ السَّيِّد علي آل طاووس: حياته، مؤلَّفاته، خزانة كتبه، محمَّد حسن آل ياسين، مجلة المجمع العلميّ العراقيّ، م١٢، ١٩٦٥م.

❖ القُرآنية في نهج البلاغة، م. م. علي ذياب محيي العبادي، مجلة العميد، ع٦ م٤، العتبة العبَّاسيَّة المقدّسة، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

❖ اللغة العربيَّة والعولمة في ضوء النحو العربيّ والمنطق الرياضيّ، الدكتورة مها خير بك ناصر، مجلة التراث العربي، العدد (١٠٨٤)، ٢٠٠٧ م.

❖ مفهوم التخاطب بين مقتضى التبليغ ومقتضى التهذيب، طه عبدالرحمن، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، ع١، ١٩٩٤م.

فِهْرِسُ المحتَوَيَاتِ

الإهداء	٧
كلمة المركز	٩
المقدمة	١٣
التمهيد	١٧
أوَّلًا: لمحة من حياة رضيّ الدين علي ابن طاووس الحلّيّ	١٧
اسمه و نسبه الشريف	١٧
ولادته	١٨
أقوال العلماء فيه	١٨
شيوخه وتلامذته	١٩
مؤلَّفاته	٢٠
وفاته ومدفنه	٢٢
ثانيًا: الخطاب الأخلاقي (تعريفًا) بوصفه مركبًا وصفيًا	٢٤
الخطاب في اللغة	٢٤
الخطاب في الاصطلاح	٢٥
الأخلاق في اللغة	٢٦

الأخلاق في الاصطلاح	٣٠
ثالثًا: التداولية	٣١
التداولية في الاصطلاح	٣٢
التداولية في القرآن	٣٣
الفصل الأوَّل: جذور الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس الحلّيّ	٣٧
المبحث الأوَّل: القرآن في الخطاب الأخلاقيّ لابن طاووس	٣٩
أوَّلًا: القرآنيَّة المباشرة (النصّية)	٤٧
ثانيًا: القرآنيَّة غير المباشرة (غير النصية)	٤٨
ثالثًا: القرآنية المتضمنّة (المعاني والدلالات)	٤٩
المبحث الثاني: أقوال الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام	٥٧
المبحث الثالث: أقوال العلماء الذين سبقوه	٦٥
أوَّلًا: الشيخ الطوسيّ (ت ٤٦٠هـ)	٦٥
ثانيًا: الشيخ ورّام	٧٠
الفصل الثاني: سمات الخطاب الأخلاقي عند ابن طاووس الحلّيّ	٧٩
المبحث الأول: الدعاء والمناجاة	٨٣
المبحث الثاني: الشمولية	٨٩
المبحث الثالث: العقلانية	٩٩

فِهْرِسُ المُحْتَوَيَاتِ

المبحث الرابع: تعقيب الخطابات الإنشائيّة	١٠٧
المبحث الخامس: تخيّر الألفاظ	١١٣
المبحث السادس: مزية الفضاء (الزمكانيّ)	١١٧
المبحث السابع: التقابلات الدلالية	١٢١
الفصل الثالث: الأفعال الكلاميّة في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس	١٢٥
المبحث الأول: الأفعال الكلاميّة المباشرة	١٣١
المبحث الثاني: الأفعال الكلامية غير المباشرة	١٤٣
أوَّلًا: الأمر	١٤٩
ثانيًا: النهي	١٥٤
ثالثًا: الاستفهام	١٥٧
رابعًا: النداء	١٦٢
تقسيمات سيرل	١٦٤
أوَّلًا: التعبيريات	١٦٤
ثانيًا: التنبيهات	١٦٥
ثالثًا: التوجيهات (التحذيرات)	١٦٦
رابعًا: الإخباريات (التقريرات)	١٦٧
الفصل الرابع: الاستلزام الحواريّ والحِجاج في الخطاب الأخلاقيّ	١٦٩

المبحث الأوَّل: الاستلزام الحـــواريّ	١٧٣
المبحث الثاني: الحِجاج	١٨٩
أوَّلًا: قياس التمثيل	١٩٣
ثانيًا: حجَّة المقارنة	١٩٦
ثالثًا: حجَّة التعريف	١٩٦
رابعًا: الحِجاج الترجيحي (إلزام الحجة)	١٩٧
خامسًا: الحجَّة الخبرية (الحجة النقلية)	١٩٨
سادسًا: احتجاج االتقريب	٢٠٢
سابعًا: المناظرة المتخيلة	٢٠٣
أ. السؤال والجواب	٢٠٣
ب. أسلوب الفنقلة (الحوار)	٢٠٥
السلالم الحِجاجية	٢٠٦
العبارات الروابط الحجاجية	٢٠٨
الخاتمة	٢١٣
الفهارس الفنية	٢١٩
المصادر والمراجع	٢٤٧

منشوراتُنا

تشرَّفَ مركزُ تراثِ الحِلَّة التابع لقسم المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة في العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة بتحقيق ومراجعة وضبط ونشر الكتب الآتية:

١. معاني أفعال الصلاة وأقوالِها.

تأليف: الشيخ أحمد ابن فهد الحِلِّيّ (ت ٨٤١هـ).

تحقيق وتعليق وضبط: مركزُ تراثِ الحِلَّة.

٢. مختصر المراسم العلويَّة، تأليف: المحقِّق الحِلِّيّ، جعفر بن الحسن الـهُذَليّ (ت ٦٧٦هـ).

تحقيق: أحمد عليّ مجيد الحِلِّيّ.

٣. التأصيل والتجديد في مدرسة الحِلَّة العلميَّة- دراسة تحليليَّة.

تأليف: د. جبَّار كاظم الملَّا.

٤. مدرسة الحِلَّة وتراجم علمائها، مِن النشوء إلى القمَّة.

تأليف: السيِّد حيدر السيِّد موسى وتوت الحسينيّ.

٥. المنهج التاريخيّ في كتابَي العلَّامة الحِلِّيّ (ت ٧٢٦هـ) وابن داوود (حيًّا سنة ٧٠٧هـ) في علم الرجال.

تأليف: أ.م.د. سامي حمود الحاج جاسم.

٦. التراث الحِلِّيّ في مجلَّة فقه أهل البيت عليهم السلام.

أعدَّه وضبطه: مركز تراث الحِلَّة.

٧. شرح شواهد قطر الندى

تأليف: السيِّد صادق الفحَّام (ت ١٢٠٥هـ).

دراسة وتحقيق: أ.م.د. ناصر عبد الإله دوش.

٨. مراصد التدقيق ومقاصد التحقيق.

تأليف: الحسن بن يوسف بن عليّ بن المُطهَّر، العلَّامة الحِلِّيّ (ت ٧٢٦هـ).

تحقيق: د. الشيخ محمَّد غفوري نژاد.

٩. درر الكلام ويواقيت النظام.

تأليف: السيِّد حسين بن كمال الدين بن الأبزر الحسينيّ الحِلِّيّ (بعد ١٠٦٣هـ).

تحقيق: السيِّد جعفر الحسينيّ الأشكوريّ.

١٠. موسوعة تراث الحِلَّة المصوَّرة.

إعداد: وحدة الإعلام. مركز تراثِ الحِلَّة.

١١. فقهاء الفيحاء وتطوُّر الحركة الفكريَّة في الحِلَّة. (بجزئين)

تأليف: السيِّد هادي حمد آل كمال الدين الحسينيّ (ت ١٤٠٥هـ).

دراسة وتحقيق: أ.د. عليّ عبَّاس الأعرجيّ.

١٢. الموسوعة الرجاليَّة للعلَّامة الحِلِّيّ (ت ٧٢٦هـ).

وتشتمل: تحقيق كتاب (خلاصة الأقوال)، مع إضافة حواشي كلٍّ مِن: الشهيد الثاني، والشيخ حسن صاحب المعالم، والشيخ البهائيّ، وتحقيق كتاب (إيضاح الاشتباه)، وتأليف كتاب بعنوان: (المباني الرجاليَّة للعلَّامة الحِلِّيّ في كتبه الأخرى).

تحقيق: الشيخ محمَّد باقر ملكيان.

١٣. كشف المخفيّ من مناقب المهديّ للحافظ ابن البطريق الحِلِّيّ (نُسخة مستخرجَة).

استخرجها وحقَّقها: السيِّد محمَّد رضا الجلاليّ.

١٤. مسائل متفرِّقة لفخر المحقِّقين.

تحقيق: الشيخ قاسم إبراهيم الخاقانيّ.

١٥. تدوين السيرة الذاتيَّة في تراث السيِّد رضيّ الدين ابن طاووس الحِلِّيّ.

السيِّد حيدر موسى الحسينيّ.

١٦. ديوان الشيخ حسن مصبِّح الحِلِّيّ.

دراسة وتحقيق: د. مضر سليمان الحِلِّيّ.

١٧. خلاصة الأقوال في معرفة الرجال (فاكس ميل).

إعداد وتقديم: ميثم سويدان الحِميريّ الحِلِّيّ.

١٨. رسائل الشيخ حسين الحِلِّيّ.

تحقيق وتعليق ومراجعة وضبط: مركز تراث الحِلَّة.

١٩. خمسُ رسائل لفخر المحقِّقين.

تحقيق وتعليق ومراجعة وضبط: مركز تراث الحِلَّة.

٢٠. منهج القصَّاد في شرح بانت سعاد.

تأليف: أحمد بن محمَّد ابن الحدَّاد البجليّ الحِلِّيّ (بعد ٧٤٥ هـ).

تحقيق: أ.د. عليّ عبَّاس الأعرجيّ.

٢١. مزارات الحِلَّة الفيحاء ومراقد علمائها.

تأليف: السيِّد حيدر السيِّد موسى وتوت الحسيني.

٢٢. أجوبة المسائل المهنَّائيَّة.

تحقيق: الشيخ حسين الواثقيّ.

٢٣. بغية الطالبين لما وصل إلينا من إجازات فخر المحقِّقين.

جمع وتحقيق: ميثم سويدان الحِميريّ.

٢٤. اختبار العارف ونهل الغارف (ديوان الشيخ حمَّادي نوح الكعبيّ).

تحقيق وتعليق: الدكتور مضر سليمان الحِلِّيّ.

٢٥. الخطاب الأخلاقيّ وأبعادهُ التداوليَّة عند السيَّد رضيّ الدين عليّ بن طاووس الحِلِّيّ. تأليف: أ.د. رحيم كريم الشريفيّ، و أ.م. د. حسين عليّ حسين الفتليّ.

وسيصدرُ قريبًا (بمراجعة وضبط مركز تراث الحِلَّة)

١. إيضاح المصباح لأهل الصلاح. للسيِّد بهاء الدين عليّ بن عبد الكريم النيليّ النجفيّ. دراسة وتحقيق مركز تراث الحِلَّة.

٢. الدرس النحويّ في الحِلَّة. تأليف: د. قاسم رحيم حسن.

٣. موسوعة اللُّغويِّين الحِلِّيِّين. تأليف: أ.د. هاشم جعفر حسين الموسويّ.

٤. العلَّامة الحِلِّيّ (ت٧٢٦هـ). تأليف: د. محمَّد مفيد آل ياسين.

٥. بحوث ودراسات حِلِّيَّة مترجمة، العلَّامة الحِلِّيّ (١). ترجمة: أيُّوب الفاضليّ. مراجعة وضبط وتعليق: أ.د. عليّ عبَّاس الأعرجيّ.

ومن الأعمال التي قيد التحقيق، بمراجعة وضبط مركز تراث الحِلَّة

١. الإجازة الكبيرة. تأليف: الحسن بن يوسف بن عليّ بن المُطهَّر العلَّامة الحِلِّيّ (ت ٧٢٦هـ). تحقيق: المرحوم كاظم عبود الفتلاويّ.

٢. حاشية إرشاد الأذهان. تأليف: الشيخ ظهير الدين عليّ بن يوسف النيليّ (حيًّا سنة ٧٧٧هـ). تحقيق: السيِّد حسين الموسويّ البروجرديّ.

٣. الفوائد الحِلِّيَّة، تأليف: أحمد عليّ مجيد الحِلِّيّ.

٤. كشف الخفا في شرح الشفا. تأليف: الحسن بن يوسف ابن المطهَّر، العلَّامة الحِلِّيّ (ت٧٢٦هـ). تحقيق: الشيخ مجيد هادي زاده.

٥. المختار من حديث المختار. تأليف: أحمد بن محمّد ابن الحدَّاد البجليّ الحِلِّيّ (بعد ٧٤٥هـ). تحقيق: مركز تراث الحِلَّة.

٦. كافية ذوي الإرب في شرح الخطب. تأليف: الشيخ ظهير الدين عليّ بن يوسف النيليّ (كان حيًّا سنة ٧٧٧هـ). تحقيق: مركز تراث الحِلَّة.
٧. منتهى السؤول في شرح معرب الفصول. تأليف: الشيخ ظهير الدين عليّ بن يوسف النيليّ (حيًّا سنة ٧٧٧هـ). تحقيق: مركز تراث الحِلَّة.
٨. موصل الطالبين إلى شرح نهج المسترشدين. تأليف: الشيخ نصير الدين عليّ بن محمَّد القاشيّ الحِلِّيّ (ت ٧٥٥هـ). تحقيق: مركز تراث الحِلَّة.
٩. نهج البلاغة، يُطبع بالفاكس ميل على نسخةٍ كتبها تلميذ العلَّامة الحِلِّيّ سنة (٦٧٧هـ) في مقام صاحب الزمان عليه السلام في الحِلَّة.
١٠. نهج المسترشدين. تأليف: العلَّامة الحِلِّيّ الحسن بن يوسف ابن المطهَّر الحِلِّيّ (ت ٧٢٦هـ).
١١. إرشاد المسترشدين وهداية الطالبين، تأليف: فخر المحقِّقين. تحقيق: ميثم سويدان الحِميريّ.
١٢. تفسير الإيضاح للعلَّامة الحِلِّي بين المنهج العقليّ والمبنى الكلاميّ. تأليف: أ.د. حكمت الخفاجيّ.
١٣. الشيخ حسين الحِلِّيّ وآراؤه الفقهيَّة في مستحدثات المسائل. تأليف: رياض أحمد محمَّد تركيّ.
١٤. الإجازة العلميَّة عند علماء الحِلَّة حتَّى نهاية القرن الثامن الهجريّ. تأليف: محمَّد جسَّاب عزُّوز.
١٥. معجم النسَّاخ الحِلِّيِّين. تأليف: م.م. حيدر محمَّد الخفاجيّ.
١٦. الفرائد المحمَّديَّة في شرح الفوائد الصمديَّة. تأليف: محمَّد رضا ابن الحسن الحسينيّ الحِلِّيّ الأعرجيّ تحقيق: أ.د. عليّ عبَّاس الأعرجيّ.

١٧. التحقيق المبين في شرح نهج المسترشدين. تأليف: الشيخ خضر بن محمَّد الحبلرودي الحِلِّيّ (ت ٨٥٠هـ). تحقيق: مركز تراث الحِلَّة.